أخبار المعاصرين

من العلماء و التجار و الوجهاء المصلحين

تأليف

عبدالسلام بن صالح العييري

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠]. أما بعد:

فهذه طائفة منتقاة من الأخبار والأحوال لثلّةٍ من أفاضل المعاصرين، ممن قدّم وبذل في حياته لأجل نشر دين الله ﷻ ، ونصر العقيدة الصحيحة، ونافح عنها، وهاجر في سبيل الله، فهجر

الأهل والولد في سبيل العلم ونشره، أو فراراً بدينه من اضطهاد المستعمر والمتجبر، رغبة فيما عند الله ﷻ .

وأخبار حكت أحوالهم مع الوقت، والظنِّ به، واستغلال ثوانيه ولحظاته؛ ذلك أنهم علموا أنه رأس مالهم لبلوغ الدرجات العلى من رضوان الله تعالى. فكانت كالأزهار المتناثرة في البساتين، تتنقل بين خبر وفائدة، ومعلومة شاردة لعلماء، وتجار، ومصلحين عاصرناهم في الأزمنة القريبة؛ رجاء أن ننتفع بها جميعاً.

ورغم أن هذه الأخبار متناثرة في الكتب، لا يجمع شتاتها مؤلف مستقل، إلا أن الأذن تطرب لسماعها؛ للأثر الذي تتركه في القلب. أرجو الله أن ينفع بها جامعها، وقارئها، والسامع إنه قريب مجيب .

وقبل الشروع في المقصود، لابد من ذكر بعض الصعوبات في الجمع، وفائدة هذه الأخبار، ومنهجيتي في هذا العمل.

والحمد لله رب العالمين، صلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

صعوبات في جمع المادة، و قلّة التراجم

من أراد أن يكتب أو يجمع في تراجم المعاصرين، فسيعترضه الكثير من الصعوبات، ولن يجد احتفاءاً بهذا الموضوع من قبل عدد من الناس، لا أدري ما السبب؟

وعند التفتيش عن الأسباب، نجد أن من أبرز ما يُطالعنا ما ذكره ابن عقيل الحنبلي في زمنه عن قلة التأليف عند الحنابلة، فهم من أقل الناس تأليفاً. فيهم كثرة التعبد والاحتساب، والبُعد عن القضاء، وقلَّة التأليف، وكثرة التدليل، تأثروا بهذا إلى زمن قريب. فمن أراد أن يكتب أو يجمع فسيجد صعوبات وعقبات.

وبعض البلاد مليئة بأهل العلم، بينما تجد التراجم عنهم قليلة، وإن كانوا في بلدٍ واحد، فلا تجد من يكتب عن هذا البلد، وعلمائها، ووجهائها، ومن دخلها من الأعلام. وهذا مما تميزت به بلاد كثيرة في التاريخ الإسلامي، أثبتت علمائها، وولاتها، ووجهائها، ومن مرّ بها، كما في تاريخ نيسابور، وتاريخ جرجان، وتاريخ دمشق، وأخبار مكة، وغيرها.

من أسباب قلة التراجم أيضاً: عدم تقييد العالم لذكرياته، وإذا كان العالم لا يكتب الذكريات التي تمر به والمواقف مع التلاميذ، والعلماء، والأقران، وما حصل له في الدروس والخطب، فإنها تُنسى. إلا أن تكون له ذاكرة كذاكرة الشيخ عبد الله بن جبرين –رحمه الله– توفي وذاكرته في حفظ المتون، والقصص، والأخبار، والذكريات التي مرت به سليمة. كذلك الشيخ علي الطنطاوي –رحمه الله– ألف الذكريات بعدما جاوز الخامسة والستين من عمره ، ورقمها في مجلدات، ذكريات من الذهن، لم يرجع إلى كتاب، وكأنها أمامه. فإذا كان العالم لا يقيد ذكرياته اليومية تُنسى.

ومن الأسباب: عدم رغبة العالم الكلام عن نفسه، وتحاشيه ذكر بعض مواقفه؛ لأنه لا يريد أن يصدّر نفسه. من ذلك ما كان من الشيخ محمد بن صالح المنصور-رحمه الله- المتوفى سنة ١٤٢٢هـ، و الذي تتلمذت عليه، وتخرج به العلماء، والقضاة في القصيم، وغيرها.
بعد أن شارك الشيخ المنصور –رحمه الله- في أحد البرامج المتعلقة بالذكريات في إذاعة القرآن زرته، فشكرته على اللقاء، فقال: ماذا يستفيد الناس؟ رحت، وجيت، وأكلت، وبعدين؟ فقلت له: يا شيخ، أنت لا تستفيد مما تقول عن نفسك، لكن الناس يستفيدون، فيعرفون من هو العالم محمد بن صالح المنصور.

وقد يكون من الأسباب أيضاً: ضعف الطلاب، فقد يوجد بعض العلماء يملئون الدنيا سمعةً وعلماً، وتتفاجأ أنه لا يوجد له ترجمة، ولم يترجم له أحد، كالليث بن سعد. يقول الشافعي: الليث بن سعد أعلم من مالك، لكن لم يقم به أصحابه. ذلك أن الليث بن سعد كان في مصر، وله مذهبٌ متبع. أما مالك فكان في المدينة، والمدينة محط العلماء، وبقايا ممن تتلمذ على التابعين و أتباع التابعين، وهم قريبون من الصحابة، دار الهجرة، بخلاف مصر، فليست بلد علم. فهذا من الأسباب .

كذلك قلة اهتمام الأبناء و الذرية ، وانشغالهم بدنياهم ، وترك النقل عن والدهم، أو جدهم، أو قريبهم العالم. وربما يكون لبعض التلاميذ حظوة واختصاص بالعالم ما لا يوجد لغيرهم من أبنائه، فلا يخرجون سيرته، ولا كتبه، أو شروحه، يظنّون به مدةً. فهذا يعد عقوقاً. وقد عانيت قرابة العشر سنوات، في محاولة مخاطبة بعض أبناء المشايخ، وبعض المقربين منهم، وتلاميذهم، ولا أجد التفاعل، إلا من القليل.
و من أسباب ضعف الأبناء و الذرية و الأقارب في الترجمة للعالم: ضعفهم علمياً وثقافياً، لا يَقْدرون للعلم قَدْرهُ، ولا يُقَدِّرون أن أباهم أو قريبهم من أكابر العلماء، وكما هو معلوم أن: أزهد الناس في العالم جيرانه.

ومن الطرائف التي تُحكى في ذلك: أن أحد العلماء كانت زوجته تؤذيه ، فقال لها : لو حضرتي عندي في المسجد النبوي وأنا أشرح، تجدين الناس مطأطئي الرؤوس يستمعون للعلم مد البصر، فاحضري حتى ترين كيف الناس يكرمونني. فحضرت، ولما انتهى من الدرس ورجع البيت، قال: كيف الأمر يا فلانة ؟ قالت له: سبحان الله، جميع الناس متأدبون بمسجد النبي ﷺ إلا أنت ، ترفع الصوت. وكان يرفع صوته للعلم قبل المُكبِّرات تعويضاً عن عدم وجود المُكَبِّر.

فأزهد الناس بالعالم جيرانه، ويقول العَوَام : (من عرفك صغيراً ، حقركَ كبيراً)، وهذه من أسباب عدم شهرة بعض أهل العلم و عدم نشر علمهم.

وبعض مكتبات العلماء من مشاهير العلماء وُجد بعضها قد أُغلق عليها في دورة المياه في بيتٍ مهجور، وبعضها تُركت في السطح تحت الشمس والمطر، وبعضها اكتشفها علماء ثم اشتروها، وبعضها فيها مخطوطات مهمة، وبعضها تُلقى مع المخلفات، كما وُجد من بعض أبناء العلماء المعاصرين.

ومن الأسباب في قلّة تراجم العلماء والاهتمام بهم: أن بعض الذين يترجمون للعلماء يسيء للعالم ، فيُصور العالم كما يريد التلميذ. فيفهم الناس أن هذا العالم شديد، شرس، ليس له هم إلا الردود على الآخرين، وينتج عنه بُغض الناس للدعوة و الدعاة. فيكتب عن شيخه كما شاء، وليس له اشتغال إلا بالتبديع، والتفسيق، وهذا إنما هو من صنيع التلميذ المترجم لشيخه. لا يأتي إلا بهذه القصص التي تعجبه، وتعجب توجهه، وقد لاحظت بعض التراجم من هذا الباب.

فإذا كان المؤلف مهتماً بالدعوة، وبالأمور التربوية، واللطف في التعامل مع الناس، ينقل أبرع وأروع ما يرى من شيخه في هذا الباب. أما إذا كان من بعض الناس سليطي اللسان، ويحب التبديع، والتفسيق للآخرين، فإنه يهتم بهذا الباب الذي ربما لا يُعرف عن شيخه، إلا في أشياء معدودة، فيأتي المؤلف المترجم للشيخ ويحَشِّي عليه الكلام الكثير، ثم يبدأ يفسق، ويبدع الناس؛ لأن هذا هو توجهه. فلنحذر من بعض التعليقات الجانبية في تراجم أهل العلم.

***

ثناء العلماء على بعضهم، و مراسلاتهم

ثناء العلماء على بعضهم، ليس من باب التزيّن، والمديح، فليس هذا المقصود، هذا قد يكون بين أناسٍ منتفعين، لكن بين العلماء هذا في موضعه، وله قدره، وفي ميزانه.

من فوائد ثناء العلماء: الارتياح، والثقة، وأن يعرف الناس من أين يؤخذ العلم. على سبيل المثال: لما أراد الشيخ القاضي فهد السليمان -وفقه الله- جمع فتاوى الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله-، وكان الشيخ ابن عثيمين حينها لم يشتهر شهرةً كشهرته فيما بعد، فذهب يستشير شيخه الشيخ ابن باز –رحمه الله-، فأثنى الشيخ ابن باز على تلميذه ابن عثيمين، وقال: حقيقٌ أن تجمع علمه و فتاواه، فهو رجلٌ عالمٌ صالح. فهذا كان ما قال ابن باز عن العثيمين.

فثناء العلماء بعضهم على بعض يُستفاد منه ثقة الناس بالعالم، إذا أثنى عالمٌ على عالمٍ لا نعرفه فإنه يُعرف بين الناس، فإن فُقد العالم الأول نعرف أين نذهب.

ومن فوائد ثناء العلماء بعضهم على بعض: ظهور التواضع بينهم. وبعض الناس إذا تفرد بشيء في أمور الدنيا من أصحاب التخصصات فإنه لا يريد أن ينافسه أحد، في الطب، في الهندسة، في الاستشارات الأسرية والتربوية، وغير ذلك. وقد يوجد أيضاً في جانب بعض الدعاة من هذا التفرّد، يريد أن لا يذهب الناس إلى غيره أبداً ، لكن إذا أثنى العالم على العالم تعلم أنه يريد الله والدار الآخرة؛ لأنه لا يهتم لشيء، والأصل أن الناس يهتدون، ويقربون إلى الله تعالى، سواءً اهتدوا على يدك، أو على يد غيرك. المهم أن الناس جميعاً يتعبدون لله.

ومن فوائد ثناء العلماء بعضهم على بعض: تربية الطلاب على ترك التعصب، فإذا كان الطالب متعصباً لشيخٍ واحد، ثم لاحظ هذا الطالب أن شيخه يثني على العلماء والدعاة، فبالتالي يخف عنده ويقلّ منسوب التعصب.

وبالمناسبة فإن غالب المتعصبين للعلماء ليس العالم نفسه، ولا العلماء من تلاميذه، إنما المتعصبة للعلماء هم أنصاف المتعلمين، والجهلة الذين يتعصبون للعالم ضد علماء آخرين، وتأمل في التاريخ، وفي واقع الناس تجد مصداق ذلك.

والمراسلات بين العلماء لها عدة ثمرات، من ذلك: ظهور الفوائد والعلم، بمعنى أنها ليست رسالة من محبك أو من تلميذك إلى فضيلة الشيخ العلامة كذا، أهنئك بشهر رمضان وأخبرك أني طيب. هذا يوجد في بعض رسائل العلماء، لكن فيها مطارحات وفوائد علمية. إن أردت أن ترجع لنموذجٍ واحد، اقرأ مراسلات الشيخ عبد الله بن عقيل -رحمه الله- تجد حقيقة ما أعني.
ومن ذلك رسائل الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- لتلاميذه، والشيخ ابن عقيل لطلابه ومشايخه وأقرانه، والمراسلات التي كانت بين الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء الشام والشيخ محمود الألوسي من علماء العراق -رحمهما الله-، هما عالمان لم يلتقيا، والذي رتب بينهما طالب علم تاجر من أهل عنيزة يسافر للشيخ الألوسي في الشام فينقل له سلام الألوسي، وينقل كتب أو رسائل وسلام الألوسي للقاسمي من العراق إلى الشام، فكان بينهما مراسلات صدرت في مجلد، وكلٌ منهم لم يلتقِ بالآخر، و يودُّ أن لو لقيه ، ثم لما مات أحدهما قبل الآخر فُجع أحدهما على صاحبه.

***

مظنّة تراجم المعاصرين

كتب التاريخ ، الرحلات ، المراسلات ، اللقاءات ، و التراجم الذاتيّة

كتب التاريخ :

من الكتب المهمة كتاب (من علماء الشام في القرن العشرين)(١)، مؤلفه الشيخ محمد حامد الناصر، وهو من المؤلفين المميزين، وتوفي قريباً، ولم يعلم به إلا نادراً، وله مؤلفات من ألطفها: كتاب (العصرانيون)(٢)، تكلم عن المدرسة العصرانية الجديدة، وكتابه (من علماء الشام في القرن العشرين)، ترجم فيه لكثير من علماء الشام.

كذلك كتاب يقع في مجلدين (رجال فقدناهم)(٣) لمؤلفه مجد مكي، سبط الشيخ علي الطنطاوي، جمع جميع تراجم العلماء من مجلة (حضارة الإسلام).

قد تجد تراجم لبعض أهل العلم في تاريخ الشيخ إبراهيم بن عبيد (تذكرة أولي النهى والعرفان)(٤)، وهو كتابٌ بلغ تسعة مجلدات، آخر ترجمة فيه وفاة الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– وقبله الألباني، تاريخٌ معاصر منذ زمن إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب فقط، ثم انتقل من عام ألف وثلاثمائة إلى وفاة الشيخ العثيمين.

---

(١) : علماء الشام في القرن العشرين ، محمد حامد الناصر توفي سنة ١٤٣٤هـ ، دار المعالي ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ م .

(٢) : العصرانيون ، محمد حامد الناصر ، مكتبة الكوثر ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠١ م .

(٣) : رجال فقدناهم ، مجد مكي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٤٣٣هـ .

(٤) : تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ، إبراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن ، مكتبة الرشد ، ١٤٢٨هـ .

ثم تاريخ البسام (تحفة المشتاق في أخبار نجد و الحجاز و العراق)[1] الذي ترجم فيه لعدد من علماء نجد، وهذا مشهور، ترجم لقرابة ثمانمائة عالم، و داعية، وشيخ، وطالب علم.

الرحلات :

من نماذج العلماء المعاصرين، عالم رحالة أديب، فقيه صاحب مؤلفات ورحلات، هو الشيخ محمد بن ناصر العبودي -حفظه الله وبارك فيه -، فمما تميز به أنه يكتب كل شيء: المذكرات اليومية يكتبها الشيخ إذا سافر.

سافر الشيخ العبودي في إحدى المرات أربعة أشهر إلى أفريقيا ، وكان معه الشيخ عمر فلاته والشيخ أبو بكر الجزائري. فكان يكتب كل شيء. وفي رحلة أخرى ذهب سبعة أشهر لم ينقطع عن الكتابة، فخرج كتابه (في أفريقية الخضراء)[2] .

وبعض العلماء يذكر رحلته العلمية أو رحلة الحج، كما ألف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحلته من بلده إلى مكة، ركب الطائرة والقطار، ومشى على قدميه وعلى الدواب، و ركب الباخرة. هذا في رحلة واحدة للحج، ومشهورة هي رحلة الشيخ محمد الأمين لحج بيت الله الحرام (رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)[3]، وذكر فيها كثيراً من اللطائف والفوائد والطرائف أيضاً العلمية. وله كتاب آخر بعنوان: (الرحلة إلى أفريقيا)[4].

الشيخ عبد الرحمن السميط -رحمه الله- مع أنه لم يكتب إلا متأخراً بعد ما كثرت أشغاله وزاد مرضه، بدأ يكتب بعض الذكريات ويلقي بعض المحاضرات من مشاهداته.

---

(١) : تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، عبدالله محمد البسام، نشرته عام ١٤٣٣هـ دارة الملك عبدالعزيز. مصورة عن نسخة المؤلف ، و شارك في إكماله الشيخ المؤرخ إبراهيم بن صالح بن عيسى و الشيخ محمد بن سليمان البسام .

(٢) : في إفريقية الخضراء ، محمد بن ناصر العبودي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٨٨هـ .

(٣) : رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، مجمع الفقه الإسلامي بجدة - دار عالم الفوائد ، ١٤٢٦ هـ .

(٤) : الرحلة إلى أفريقيا ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، مجمع الفقه الإسلامي بجدة- دارعالم الفوائد،١٤٢٦هـ

وكذلك رحلة الشيخ عبيد الله الأفغاني –رحمه الله–، من العلماء المغمورين أيضاً، وقد التقيته، توفي –رحمه الله– من سنواتٍ قريبة، كان من علماء أفغانستان، هاجر وتنقل خلال هجرته لعدة بلاد كالعراق، واليمن، ثم وصل إلى مكة.

ذكر الرحلات العلمية أو الدعوية: مثل رحلة الشيخ ابن جبرين للشمال [١]، لما كان شاباً مع الشيخ أبو حبيب الشثري –رحمهما الله–، وعدد من العلماء. فكتب تلك الرحلة، وصدرت في مجلد. وكان يكتب كل شيء.

المراسلات :

من طرق كتابة التراجم ما كان يفعله الشيخ محمد المجذوب –رحمه الله–، وهو عالم حلبي سكن المدينة. فكان يراسل المشايخ ببعض الأسئلة، أشبه ما تكون بالتحقيقات الصحفية، لكن بصياغة وأسلوب عالم. يكتب للعلماء، ثم يجيبون. فأخرج كتاباً في سير العلماء [٢].

اللقاءات :

من المناسب التقاط سير العلماء، وبخاصة ممن يتحفظ عن إخراج شيء من أحواله، من خلال اللقاءات والمناسبات التي يُدعى لها. فتكون الأحاديث الودّية أدعى لاستخراج بعض أخباره. من ذلك ما يكون خلال الأحاديث الوديّة والسؤال عن الأحوال والأخبار، عن البلد، والعلماء كم عددهم، وكم عدد المساجد، فيذكر ذلك. ولم يُعثر إلا على بعض الكتابات، أو بعض الأوراق في ذلك.

---

(١) : و صدرت الرحلة بعناية د. محمد بن ناصر الشثري بعنوان: العذب الزلال في اختصار رحلة الشمال ، د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، اختصره و حققه: د. محمد بن ناصر الشثري ، دار الحبيب ، ٢٠٠٤م .

(٢) : و كتابه هذا هو: علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار النفائس، ١٩٨٨م .

وبعض العلماء يذكر مواقف عن شيوخه في مناسباتها في الدروس، مثل ما كان يفعل كثيراً الشيخ ابن عثيمين إذا مر بمسألة يقول: وقد مرت بنا مع شيخنا ابن سعدي، فقال كذا وكذا. وهذا من الوفاء لشيوخه.

وكذلك فعل الشيخ حماد الأنصاري، فهو يذكر الشيء عند مناسبته إذا مر به أي موقف، فيقول: وقد حصل لأحد العلماء كذا وكذا ممن لقيهم، وترجم لعدد من العلماء كثير بهذه الطريقة.

وبعض أهل العلم ممن تتلمذت عليهم مدةً ليست بالقليلة، والحمد لله. فإذا كنا معه إما في لقاء، أو رحلة يقول: اسألوا عن ما شئتم في العلم، لكن الأشياء الذاتية أرجو أن لا أحد يسأل. عن طريقته في العلم في التحضير، لا يُسأل أبداً. ومع الوقت تتضح بعض الأمور، فيمكن أن تتحايل عليه، فكنت أسأله عن بعض شيوخه وأقرانه في تدريسه في المعهد العلمي، ثم تدريسه في الجامعة، ثم بعد التقاعد. واسأله مثلاً عن علو الهمة عند بعض العلماء ممن لقيهم، فيذكر بعض الأمور، وله بها صلة، فكنت آخذ الترجمة بهذه الطريقة.

من ترجم لنفسه من العلماء ، أو ترجم له ابنه :

من المعاصرين: الشيخ عبد الله بن عقيل –رحمه الله–، رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى، وهو ممن كان يدير مكتب سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم –رحمهم الله–، كتب ترجمةً لنفسه مطولة (فتح الجليل في ترجمة و ثبت شيخ الحنابلة ابن عقيل) [1] خرّجه الشيخ محمد زياد التكلة، وفيها لطائف كثيرة، وفوائد لو أفردت أو لخصت في كتاب لانتفع بها الناس.

فكنا ذات مرة في مجلسه، ولما انتهينا من الجلسة قال الذي استضافنا: أن الشيخ سأل عن الحضور واحداً واحداً، والشيخ كان قد قارب التسعين.

ويقول مضيفنا: الشيخ طريقته أن أي مجلس يجلسه إذا انتهى يذهب لبيته و يكتب: جلست اليوم الفلاني عند فلان، ويكتب الأشخاص، جلس معي فلان وفلان. هذه من طرق هؤلاء العلماء و الحفاظ، وهذه النماذج مفيدة حتى يزول العجب والكبر من القلب.

---

(١): فتح الجليل في ثبت و ترجمة شيخ الحنابلة عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل ، جمع: محمد زياد التكلة، دار البشائر، ٢٠٠٨م .

كذلك بعضهم قد يترجم لنفسه في طريقة سير الدروس فقط، لا يقول: فعلت، وحفظت، وقرأت. لا يكتب هذا، بل يكتب بعض الترجمة المتعلقة ببعض المواقف المتعلقة بطريقة تدريسه، أو بمدارسه، كما فعل الشيخ عبد الله القرعاوي –رحمه الله–.

ومنهم من ترجم لأبيه وهذا من البر، مثل ما فعل الشيخ عبد الرحمن–وفقه الله– ابن الشيخ عبد الله بن جبرين –رحمه الله–، ترجم لأبيه ترجمة وافية في: (أعجوبة العصر)[(١)]، وهو كتابٌ رائع، مرتب.

والشيخ العبودي له ذكريات وهو طفل أسماها (مذكرات طفل) أوصى بها أن تخرج بعد وفاته؛ لأنه يرى أنها لا تليق ، بمعنى أنه كان صغيراً.

***

المنهجية في جمع التراجم

ميزة هذه المواقف والقصص أنه ليس بينها ترابط؛ رغبة في التنوّع، وطرداً للسئامة. وغالباً ما أورد الموقف ولا أذكر التعليق عليه ولا العبرة منه ؛ ليبقى طرياً شهياً كما هو، فلا أغيره بتعليقي، فيكفي من القلادة ما حاط بالعنق، وروعة الموقف أن يُترك هو من يتكلم عن نفسه، وهؤلاء العلماء الذين سأتناول شيئاً من سيرهم، منهم من تميز بالحديث، ومنهم من تميز بالإقراء والقراءات، ومنهم من جمع حظوظًا كثيرة من العلم، ونال منصباً، وتولى التدريس. ولا يخفى

(١) : أعجوبة العصر، د. عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين، عن مؤسسة الشيخ ابن جبرين، ٢٠١٢م .

نفع هذه السير والأخبار على الجامع والسامع والقارئ ؛ لأن القارئ يضيف أعمارًا إلى عمره، ويضيف تجارب، وأخبار ونوادر وطرائف، ففيها متعة وقدوة.

و كلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم[1]

ومن منهجيتي في التراجم لعلماء الحرمين خاصة: أنه إذا كان العالم الذي أترجم له إماماً للحرمين أو أحدهما أو مدرسًا فيهما، أو أحدهما، ولن أتطرق إلا لمن درس في الحرمين، ومنهم من أَلَّف عن الحرمين، وإن كانت قصيرة وإشارات عامة، مثل الشيخ عمر عبد الجبار الذي أَلَّف كتابًا فيه سير كل من درس في مكة في الحرم، وكذلك الشيخ محمد بن ناصر العبودي الرحالة، له رحلة من بريدة إلى المدينة، تكلم عن رحلته بالتفصيل أيام الشباب، وخرجت في كتيب رائع.

والشيخ عبد الله بن زاحم -رحمه الله-، إمام الحرم النبوي ، ألف كتابًا سماه (قضاة المدينة)[2]، وهو ليس بالطويل. فكل من مر اسمه في الوثائق والسجلات في محكمة المدينة يُقيده ويبحث عمن يعرف هذه الأسماء.

ومنهجي ألاَّ أتكلم عن حي؛ لأن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، و (اقتدوا بمن قد مات)[3].

ومن باب العرفان بالجميل، أني عندما رغبت في جمع مادة عن الشيخ عبدالله الخليفي –رحمه الله– اتّصل بي عبد الرحمن ابن الشيخ الخليفي، وهذا من البر بوالده، وقال: مستعد أن أعطيك كل ما تريد عن الشيخ. فالتعاون من قبل بعض أقارب العلماء وتلاميذهم معدوم ونادر.

---

(١) : البردة للبوصيري

(٢) : قضاة المدينة المنورة من عام ٩٦٣ هـ إلى عام ١٤١٨ هـ، عبدالله بن محمد بن زاحم، مكتبة العلوم و الحكم – المدينة المنورة، ١٤١٨هـ .

(٣) : كما جاء في حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٣٠٥)، عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: " من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ، كانوا خير هذه الأمة، أبرُّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ ، كانوا على الهدى المستقيم .

ولربما يُكتب عن العالم أو يجمع شيء، لكنه قليلٌ في مقابل ما بذل من الخير لهذه الأمة. وأنصح أن يكون للإنسان دفتر يكتب فيه بعض الذكريات التي تمرُّ به، والمواقف التي يعايشها مع طلاب العلم ومع العلماء، لأيِّ موقفٍ يمرُّ عليه، فقد يحتاجها يومًا ما؛ فقد لقيت الكثير من أهل العلم وتتلمذت -ولله الحمد- على عدد منهم ليس بالقليل، لكن لعدم كتابة سيرهم وأخبارهم والمواقف التي مرت بهم ذهب كثير منها فلا أكاد أذكر إلا المُجملات، وقد ندم الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- ندمًا على أنه لم يكن يكتب أيام شبابه، فكتب الذكريات بعد السبعين، فكيف لو كتبها أيام الشباب؟

ومن المقاصد: أن نتلقى عن العلماء الأحياء. فأدركوا من بقي قبل الندم، وقد بقيت ثلة من أهل العلم من الكبار، ومن الحُفّاظ، وممن يضبط التاريخ والأحوال، فهؤلاء العلماء كما قال ابن مشرف[1]:

مجالسهم مثل الرياض أنيقة   لقد طابت منها الريح و اللون و الطعم

ومما تجدر الإشارة إلى ذكره أن هذه التراجم المباركة لم أوفها حقها، و لم أجلس لها جلوساً طويلاً للجمع، إنما هي ملتقطات من عدة كتب، ومن عدة مسموعات ومجالس، على أنه يصعب أن توجد في كتاب واحد مجتمعة .

فالنقص في أصل الطبيعة كامن   فبني الخليقة نقصهم لا يجحد

***

(١) : هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهيبي التميمي ، فقيه مالكي، كثير النظم، و له ديوان ابن مشرف، توفي ١٢٨٥هـ.

باب

استفادتنا من التراجم

التراجم لها أهميةٌ ظاهرة عند أهل العلم. فهي قصص نافعة وصادقة، في حين أن الناس قد ملّوا الروايات والقصص التي لم تقع، وربما وقع شيءٌ منها، لكنه مكرر، ومُلَّ لكثرة التكرار، بينما في قصص أهل العلم وأخبارهم أشياء واقعية معاصرة. فالذي يدعونا للاهتمام بتراجم الأعلام والمصلحين المعاصرين ما يلي:

أولاً :

أنهم علماء ومصلحون قاموا بالتعليم وبنوا الخير، ثم ماتوا ولم يعلم بهم أحد، ولا يضرهم؛ ذلك أن الله تعالى يعلم بما قدموا.

ولأجل رفع الهمة، وتربية النفس على المعالي، وإزالة العُجب من القلب نذكر أخبارهم. إذا ما حصّل الإنسان علماً أو زاد عن غيره فهماً، فعليه أن يقرأ سير هؤلاء الأعلام، وأن يطالع بعض أخبارهم، فذكر هذه الأخبار عن العلماء كالدَّين الواجب الوفاء على الشرفاء، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

وبعض الناس إذا شاهد الأحداث من حوله، وموت العلماء، وقلة أهل العلم، وكثرة الفتن والفساد والمنكرات قد يحبط، ويظن أنه لا خير إلا في القرون المفضلة التي فضلها النبي ﷺ، لكن الفضل فيمن بعدهم أيضاً. وهذا العمل يأتي رفعاً للإحباط الواقع بين المسلمين، ودفعاً للتشاؤم، ولنشر التفاؤل، وإظهار نماذج رائعة.

ففي كل واد بنو سعد　　　و لله أوس قادمون و خزرج

ولا يخفى نفع هذه السير والأخبار على الجامع والقارئ؛ لأن القارئ يضيف أعماراً إلى عمره، ويضيف تجارب، وأخبار ونوادر وطرائف، ففيها متعة وقدوة.

ثانياً :

بعض هؤلاء الأعلام يكتب التراجم والسير والأخبار ويكد نفسه وخاطره في الكتابة والتحقيق والتدقيق، فإذا مات لم يُكتب عنه، كالشيخ صالح بن عبد العزيز العثيمين [1]، وهو من كبار المؤرخين من سكان مكة، ترجم للعلماء مذهب الإمام أحمد، في كتابه (تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة) في خمس مجلدات إلى زمنه. وقد توفى عام ١٤١٠هـ، ولا يُعرف عنه إلا القليل.

ومن المؤسف أن نرى الكثير من أهل العلم يموتون ولا يُعرف عنهم إلا القليل.

فنرى بعض العلماء كتب التاريخ، لكن لما مات لم يكتب تاريخه، مثل: الشيخ عبد الله البسام[2]، من كبار القضاة والعلماء، والمدرسين في المسجد الحرام لخمسين سنة. وترجم لعلماء نجد ومن عاش فيها، ومن خرج منها، ومن مرَّ بها، حتى ترجم لتسعمائة عالم، لكنه لما مات لم يذكر عنه فيما أعلم ترجمة وافية.

وهذان نموذجان لشخصيتين لم يكتب عنهما الكثير، بينما كتبوا هم الكثير. كما قيل:

كأن لم يكن بين المروة والصفا   أنيس و لم يسمر بمكة سامرُ

---

(١) : هو العلامة المحدث الفقيه المؤرخ الأديب الشاعر الموسوعي الشيخ صالح ابن عبدالعزيز بن علي بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن سعد بن عثيمين الوهبي التميمي . ولد سنة ١٣٢٠هـ ببريدة ، وجاور في مكة ثمانية وخمسين عاماً ، فتوفي سنة ١٤١٠هـ .

(٢) : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد بن إبراهيم البسام التميمي. ولد سنة ١٣٤٦هـ في عنيزة ، وتوفي سنة ١٤٢٣هـ بمكة.

ثالثاً :

جمع هذه السير والأخبار، وقراءتها وتذاكرها، سبب لزيادة الإيمان وحب الخير والصلاح والإصلاح.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح

وهذا يدعونا أن نحب هؤلاء العلماء في الله، وأن نتقرب إلى الله بحبهم، فالحب في الله والبغض في الله أوثق عُرى الإيمان.

رابعاً :

من مقاصد هذه التراجم: أن نتلقى عن العلماء الأحياء، وأن نتسابق لدروسهم ومجالسهم، ونسألهم عن أخبارهم وأخبار العلماء الذين التقوا بهم؛ فهي التربية المباشرة المؤثرة في طالب العلم. فأدركوا من بقي قبل الندم، وقد بقيت ثلة من أهل العلم من الكبار، ومن الحُفّاظ، وممن يضبط التاريخ والأحوال، فهؤلاء العلماء:

مجالسهـــم مثل الرياض أنيقـــة   لقد طاب منها الريح و اللون والطعم

خامساً :

في زمن انتشرت فيه الشبهات والشكوك وتكلم الرويبضة، وتكلم الجاهل الذي إذا ذَكرَ العلماءَ قال: هم رجالٌ ونحن رجال، ويبدأ بمنازعتهم ومناطحتهم، ويدخل نفسه فيما لا يحسنه، والناس أعداء ما جهلوا، فكيف يعرف الجاهل قدر العالم وهو لا يعرف العلم أصلاً ولا يقدر للعلم والعلماء قدرهم؟ فيكون العالم والجاهل سواء عنده.

والمأخذ على طالب العلم ، و على من يفرق بين العالم وغيره، كيف يموت العلماء ولا يؤخذ عنهم ولا يُعرف عنهم شيء؟

سادساً :

من خلال هذه السير ندرك التكامل في حياة هؤلاء العلماء بين تحصيل للعلم وبذله، ونفع الناس، والحرص على العبادة، لو كان هؤلاء العلماء والحُفَّاظ بين أهل البدع، أو من أهل البدع على شدة حفظهم وتقدمهم في العلم لغسلوا عن أقدامهم وعظموهم وجعلوا فلان آية الله، وفلان العارف بالله، وغيرها من العبارات أو الألقاب، كما قيل:

ألقاب مملوكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

بينما يمر العالم بنا، يعيش ويموت، ولا يُعرف عنه إلا من طريق الأوراق الرسمية أن هذا العالم كان له ارتباط بدرس علمي ، أو محاضر في جامعة، أو نحو ذلك، ولا نعرف العالم إلا إذا مات.

سابعاً :

من أهمية هذه التراجم: ايضاح جهود العلماء، و إبراز القدوات المعاصرة. كما حدث لما عزم الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني-رحمه الله- أن يترجم للشيخ الألباني، في زمن وجود الألباني، فأرسل له الشيخ عبدالعزيز بن باز رسالة قال فيها: (أحسنتم فيما عزمتم عليه من كتابة ترجمة توضحون فيها جهود وأعمال العلامة الجليل الشيخ الألباني) ا.هـ

فنحن بحاجة لقدوات معاصرة، فلو تحدثنا عن الصحابة والتابعين، لصعب اللحاق بهم، لكنني أنقّب عن أُناس عاصرناهم، وماتوا قريباً.

ولئن مات أصحاب النبي ﷺ، وذهب التابعون، والعُبَّاد، فيوجد في زمننا من لا يقصر علمهم على المتقدمين، لكن للأولين فضل الصحبة، ولهم فضل القرون المفضلة، لكن يوجد في زمننا من يقاربهم في العلم، ومن يقاربهم في العبادة، على أن الصحابة لا يقرب من فضلهم أحد.

وهذه الأخبار تحرك مشاعر القلب لحب الخير، والعلم والفضل والعبادة. ومعرفة هؤلاء الأعلام والقراءة عنهم وتتبع سيرهم من الوفاء لعلمائنا، والرجل الصالح، والعالم الباذل يدعو الناس بفعله قبل قوله.

وقد يقول قائل: أن الصحابة لم يبدأ التاريخ في زمنهم حتى يقال فيمن بعدهم: لو قارنت بعض مؤلفات العلماء المعاصرين، أو الدعاة، أو الشباب، الذي له عشر سنوات في الهداية، ثم طلب العلم شهرين، ثم يبدأ بالرسائل، يخرج رسالة تلو الأخرى. فليس العلم بكثرة المؤلفات، ولا التأليف، ولا بالشهرة. فقد يوجد عالم ولا يُعرف، وبعض أفراد هيئة كبار العلماء في بلدنا الآن، وقبل عشر سنوات، وعشرين سنة، وثلاثين سنة، من لو ذُكر اسمه، ولم يُذكر في تعريفه أنه عضو هيئة كبار العلماء لم يُعرف. فلا يُقاس علم الشخص بالشهرة، وكونك أنت لا تعرف فلاناً لا يعني أنه ليس بعالم.

قال أحمد بن حمدان الحنبلي عن الإمام أحمد: (رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدت إلى بغداد)[1] . و كانت هذه هي الدنيا في زمنهم.

وابن حبان ، صاحب الصحيح الذي تتلمذ على ألفي شيخ فقط. فهذا الذي لو سئل فقيل له: ما رأيك بفلان ؟، فقال : لا أعرفه. فإنما هذا هو الذي يُسأل؛ لتجربته مع الشيوخ، وسعة أخذه عنهم واطلاعه.

(١) : صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان (١/ ٧٨)

ولذلك، قال الإمام مالك وقد جلس للتدريس بعدما بلغ السابع عشرة -رحمه الله-: لم أجلس للتدريس، حتى شهد لي سبعون من شيوخي أني أهلٌ لذلك. قيل له: لو منعوك، تمتنع ؟ قال: نعم، امتنع. هذا الإمام مالك الذي قال فيه ابن الخيّاط[1]:

يَدَعُ الْجَوَابَ فَلا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى فَهُوَ الْمُهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

ثامناً :

ذكر الفوائد العقدية من أنفع ما نستفيد من تراجم المعاصرين، مما يقوله الشيخ، أو مما يُنقل عنه، وبعض اللطائف والفتاوى، وبعض العبارات المشهورة، والمواقف. فهذا الذي يُنتفع به منها. وكذلك المواقف التربوية، وكيف كان يعامل والديه، كيف كان يعامل أبنائه و تلاميذه وجيرانه. ويُتلمس بعض الفوائد واللطائف من سيرة كل عالم. وكذلك مواعظ بعض أهل العلم، فالبعض يعتقد أن العالمَ عالمٌ فقط بمسائل الحلال والحرام، وأنعم به من علم، لكن يكون العالم واعظاً أيضاً، وكان ابن الجوزي بالوعظ مشهوراً، وابن رجب الحنبلي أيضاً مشهورٌ بالعلم والوعظ. فليست هذه قصصٌ جافة، إنما هي قصصٌ نافعةٌ .

تاسعاً :

تطرقت في هذا العمل إلى التجار الصالحين. فلماذا نتكلم عنهم ؟

سبب ذلك أن المال عصب الحياة وقوامها، وقد جاء الاسلام بحفظ الضروريات الست، ومنها: المال، كيف يكتسبه الإنسان ؟ وكيف ينفقه ؟، بل صارت ثلث أسئلة يوم القيامة: عن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟

(١) : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/ ١٨٤)

وقد يلج الإنسان النار بالمال، وقد يدخله ماله الجنة. ونحن بحاجة لذكر بعض أخبار الصالحين، من التجار المعاصرين؛ لعملهم بقول الله ﷻ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩] ، حتى يكونوا قدوات لنا.

ومن الأسباب: أن أبواباً من الفجور، والفساد دخلت على الأمة الإسلامية من طريق أصحاب الأموال، أو من بعضهم، في نشر الربا و القنوات الفاسدة، و نشر المواقع السيئة، والملابس السيئة للنساء، فلو صلح هؤلاء، وعرفوا حق الله عليهم، وما أوجب الله عليهم، وعرفوا ما حرم الله، و حذرناهم من إفساد نساء وشباب المسلمين، لكفينا شراً كبيراً.

***

فصل

في الوقت وأهميته

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي شرف أهل العلم في كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:١١]. ورفع قدرهم؛ فجعلهم بمنزلة النجوم في السماء، وخصهم بميراث الأنبياء.

أحمده على ما أسبغ من النعماء، وأجزل من العطاء. حمداً لو ارتقى إلى السماء لصار قمراً منيراً، ولو نزل إلى الأرض لكساها سندساً وحريراً.

حمداً كثيراً طيب الآلاء   يملأ أرجاء الأرض والسماء

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائل في محكم التنزيل: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، بعد شهادته بالوحدانية لنفسه، ثنّى بالملائكة، وجعل شهادة أهل العلم بعد الملائكة.

وأصلي وأسلم على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، رسول رب العالمين، نبيِّ الرحمة والحكمة والهدى، والعلم والبيان، اللهم صل وسلم وبارك عليه. قال ربه تبارك وتعالى عنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] . زكَّى الله قلبه، ولسانه، وبصره، وأثنى عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

وصدق عبد الله بن رواحة ﵁، إذ قال :

فما حملت ناقة فوق ظهرها   أبرُّ ولا أوفَى ذِمَّةً من محمد

فيتمثّل برّه ﷺ بهذه الأمة أن أرشدها إلى ما فيه خيرها، فقال: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[١]. وحذّرها مما يجلب لها الحسرة والغبن يوم القيامة، حيث قال: « لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ ، عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفناهُ ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ بِهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أين اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ »[٢].

فكانت أهم الأسئلة التي ترد يوم القيامة على الإنسان: عن عمره فيما أفناه ؟، وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وبهذين السؤالين تكون قد انقضت ثلث الأسئلة فيما يتعلق بالوقت و الحياة .

***

(١) : أخرجه البخاري (٧١) كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ومسلم (١٠٧٣) في الزكاة باب النهي عن المسألة عن معاوية بن أبي سفيان ﵁ .

(٢): أخرجه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي ، و قال : حديث حسن صحيح .

باب
الوقت هو الحياة

الوقت أعلى وأغلى من السيف، وأعلى وأغلى من الذهب؛ لأن الإنسان لو فقد الذهب عاش فقيراً، ولربما مات خفيف الظهر من الذنوب، ثم يدخل الجنة، لكن إذا فَقَدَ المرء الوقت فَقَدَ الحياة.

وفقدُ الوقت له صورٌ متعددة، من أظهرها: تمضيةُ الوقت فيما لا يعود بالنفع الدنيوي أو الأخروي. قال ﷺ: « لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا » (١).

وحسرة أهل الجنة ليس على فقد مالٍ، أو حبيبٍ، أو شهوة، إنما يتحسرون على فقدِ ساعة لم يكونوا ليستغلّوها فيما يُرقّيهم في درجات الجنة.

جاء عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلاَّ نَدِمَ، قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ ازْدَادَ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لاَ يَكُونَ نَزَعَ » (٢).

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ » (٣).

ولِعِظم قيمة الوقت، أقسم الله عز وجل بأجزاء منه: بالعصر، والفجر وليال عشر، وأقسم بالضحى، والليل. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢].

---

(١) : أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨) ، و البيهقي في شعب الإيمان (٥٠٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) : أخرجه الترمذي (٢٤٠٣) . و قال الألباني : ضعيف جداً .

(٣): أخرجه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق ، باب لا عيش إلا عيش الآخرة .

وفضّل الله الأزمان بعضها على بعض، فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]. فاختار ﷻ رمضان، وعشر ذي الحجة، وبعض الليالي المباركة، واختار يوم الجمعة. فهي أيام فاضلة مباركة، وهي من أفضل الأوقات.

***

باب
عادات العلماء في استغلال الوقت وأخبارهم

من العبارات المشهورة: (الوقت هو الحياة). والوقت عند العلماء مسرح بَذْلِهم وعطائهم؛ لذلك اهتمّوا به أيما اهتمام، ظنُّوا به، فلم يضيعوا منه شيئاً؛ فالدقائق التي يتساهل بها غالب الناس هي في ميزان العلماء عظيمة ودقيقة جداً.

وكم في الدقيقة الواحدة من الأعمال الخيرية العظيمة. من ذلك قراءة سورة الإخلاص قرابة الأربعين مرة. ومن لم يجرب لن يعرف قيمة هذه الدقائق، كما قال الشاعر ابن الأمير الصنعاني:

فمن لم يجرب ليس يعرف قدره ... فجرب تجد تصديق ما قد ذكرناه

فانتهاز أيَّ فرصة، و إن قلّت، في أي مكان أو زمان، للدعوة أو التعليم، أو النفع العام هو شاغلهم الوحيد. كما جاء عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: « إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ،

وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا » [1].

دل هذا على استغلال الوقت. فلربما ألقى الإنسان كلمة عابرة لا يُلقى لها بالاً يبلغ بها مبلغاً عظيماً من رضوان الله .

ومن عاداتهم: الدقة في المواعيد، واحترام أوقات الآخرين، والانتفاع بالوقت في كل حين، وعلى كل حالٍ، في الصحة والمرض، في السفر والحضر، في الطائرة، على متن السفينة، في الحج، في الرحلات والنزهة، حتى في أوقات المزاح، والواجبات.

الشيخ حافظ الحكمي

يخبر من ترجم له أن من أسباب نبوغه استثمار وقته، بل جميع وقته في القراءة و الحفظ. فاشتهر على صغر سنه. وقد مات والداه وهو دون العشرين، فكان كل وقته ما بين قراءة وتأليف، وتعبد. فصنف المنظومات الكثيرة. وقد مات وهو دون الأربعين، رحمه الله.

❋❋

الشيخ حمود التويجري

لازم شيخه الشيخ عبد الله العنقري خمساً وعشرين سنة. وقرأ عليه فتح الباري، فأتمّه، و فتاوى شيخ الإسلام كلها، وقرأ عليه الروض المربع مراراً، و الصحيحين مراراً، والمغني لابن قدامة أيضاً. ورثاه ابنه فقال عنه:

أترابه شغلوا باللهو وانصرفت   منه العزيمة للكراس والقلم

❋❋

(١): أخرجه أحمد (١٢٩٩٠٢) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم. هشام: هو ابن زيد بن أنس بن مالك.

الشيخ عبد الرحمن بن قاسم

جد الشيخ عبد المحسن القاسم إمام الحرم النبوي، سافر الشيخ عبد الرحمن إلى لبنان للعلاج، وكانت هذه الرحلة فتحاً عظيماً للمسلمين. فطرأ له في هذا الوقت الطويل في فترة علاجه أن يجمع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، فبدأ بهذا المشروع المبارك الذي دام أربعين سنة جمعاً لهذه الفتاوى، ويرحل لأجل ذلك. ثم أكمل بعده ابنه الشيخ محمد بن القاسم، وكانا ربما يكتبان في الطائرة.

من صور حرص الشيخ على الوقت أنه كان ينتهز الفرصة في المزرعة، وخلال إشرافه على العمال في حفر البئر.

وكان ينزل معهم، أو يقف على شفير البئر، فكان يكتب في حاشية الروض المربع، التي تُدرّس اليوم في الجامعات وتُعدّ مرجعاً مهماً، بل يقول بعض من ترجم للشيخ ابن باز –رحمه الله– : لا يكاد يمر على سماحة الشيخ ابن باز أسبوعان إلا و قد طلب حاشية الروض المربع لمراجعتها.

**

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

اهتمامه بالوقت معهود منه في زمن الطلب، وما رحلته الشاقة للحج إلا خير دليل على ذلك، والتي رقمها في مجلد له لطيف بعنوان (رحلة الحج)، وهي من أمتع و أنفع الرحلات.

ففي رحلة الحج ركب الدواب، القطار، السفينة، والطائرة. وقلما يمر ببلد إلا و يقف لعقد مجالس علمية وفتاوى. والشيخ له في ذلك لطائف وطرائف، وفوائد كثيرة أصولية وعقدية، مبثوثة في رحلة الحج في مجموع كتب الشيخ رحمه الله .

**

تزوج ملكة الهند، وهو عالم قبل أن يتزوجها. واستمر -رحمه الله- في العلم والتعليم، وبذل العلم، و هو على مذهب السلف في الاعتقاد و نشر السنة .

رحلته إلى الحج في السفينة استمرت ستة أشهر. كان يقرأ طيلة الطريق في الكتب، وقد وصف رحلته، فقال: حتى مرت بنا أمواج كالجبال، و بلغت القلوب الحناجر، وكانت القلوب والأيدي والأعين مرتفعة إلى الله بالدعاء أن يسلمنا الله من هذا، ومع ذلك لم أضيع شيئاً من وقتي، حتى لما نزلوا في ميناء الحديدة للراحة في منتصف الطريق. ويقول: نزل الحجاج للتبضع والنزول للسوق، ونزلت للكتب و المكتبات.

ونسخ بيده عدداً من كتب الشيخ الصنعاني. كما يقول عن نفسه.

ويردف قائلاً: (وانتفعت بكل وقت إلا في وقت أداء المناسك).

فكون الشخص يتخذ وقتاً للراحة والنزهة لا يعني أنه مهمل لوقته. فالإمام البخاري –رحمه الله- كان يخرج مع تلاميذه للنزهة، ولا يعني أن الذي لا يخرج أبداً إما لبرٍّ أو بحرٍ أو سياحة، ولا يخرج، ولا يرفرف قلبه لمطر، ولا ربيع، ولا شيء من هذه المناظر، لا يعني أنه حافظ لوقته. فقد يكون في داره مضيعاً لوقته، قد يكون في البلد ما بين المجمعات والمعارض، والمطاعم وأسواق الحراج، فلا يلزم أنه من ذهب لن ينتفع بوقته. فالإمام البخاري يخرج مع بعض تلاميذه لبعض البساتين، والإمام الذهبي ألف بعض (تاريخ الإسلام) في البستان.

وكان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحلة كل خميس مع طلابه للصيد، يأخذ البنادق، وتكاليف الرحلة على حسابه.

ونقل الشيخ العبودي عن شيخه الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله، فيذكر عن الشيخ أنه مغرم برحلات البر، وقلما يمر به أسبوع، إلا ويخرج مع بعض تلاميذه، ويستفيد بتلك الرحلة. والشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله إذا كان في الطائف لا يمضي عليه أسبوع هناك، إلا و يذهب

للردف، بل ربما أقل من الأسبوع. فيذهب معه بالمعاملات، وبعض الكتب قرئت عليه في الرحلة. والشيخ ابن باز لما كان قاضياً في الخرج، وهو دون الثلاثين، يخرج مع بعض أهل البلد لصيد الجراد، و الشيخ عالم يُرحل إليه يخرج لصيد الجراد مع أهل البلد؟ نعم، خرج مع أهل البلد لطرد الجراد و صيده. ويخرج للنزهة، كما ذكر تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن جلال، المتوفى سنة ١٤٣٤ هـ.

وكذلك الشيخ الألباني أيضاً كان يخرج مع بعض تلاميذه للبساتين والنزهة. وقد أخبرني أحد تلاميذه ممن خرج معه، فيقول: إذا خرج، صحيح أن هناك وقتاً للطرفة والدعابة، لكن كل الوقت منتفع به في العلم و التوجيه.

وللشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- نصيب من الرحلات، حيث كان يخرج كل فترة مع طلابه لبعض المزارع، و يدخل معهم و كان ينافسهم في المسبح.

**

الشيخ صالح بن غصون

من علماء المملكة العربية السعودية، توفي سنة ١٤١٩هـ، شارك في برنامج (نور على الدرب) قرابة الأربعة عشر عاماً مع المذيع الأستاذ عبد الكريم ابن صالح المقرن، والذي أخرج كتاباً له عن تجربته مع الشيوخ الثلاثة: ابن باز، ابن عثيمين، والألباني. وتكلم عن حفاظ الشيخ ابن غصون -رحمه الله- على وقته، فيقول: (كان الشيخ نموذجاً فريداً في حفاظه على المواعيد ودقته، كان لسانه قبل التسجيل وبعده لا يفتر عن ذكر الله والدعاء، و لا أذكر أن الشيخ على مدى هذه الأعوام اعتذر عن التسجيل أبدًا أو سوف).

ويقول: (تعلمت منه أهمية الوقت في حياة المسلم، واحترام المواعيد، والدقة فيها، حتى سائق الشيخ أصبح دقيقاً في الموعد. فكان يأتي قبيل الآذان، يقف عند باب المجلس. و يقول: لابد أن يوقف الشيخ التسجيل قبل الآذان بدقائق استعداداً للصلاة).

أخبار أئمة من السلف

إمام اللغة ثعلب

سبب موت ثعلب، وهو إمام من أئمة اللغة الكوفيين، أنه كان في يده كتاب يطالعه، وقد أصيب بالصمم الشديد. فمرت فرس في الطريق، ولم ينتبه لها. فضربته هذه الفرس، فسقط في هوة، فأسعف وهو كالمختلط لا يميز ويتأوه، حتى مات رحمه الله. هذا من القراءة في كل مكان و في كل حال. وكذا كان الخطيب البغدادي يمشي ومعه جزء يطالعه.

**

أبو نعيم الأصفهاني

من الحفاظ، وكان يُقرأ عليه من الفجر حتى الظهر، وربما قرئَ عليه انتهازاً للوقت وهو عائد إلى داره.

**

فهذه بعض أخبار العلماء حتى في وقت الراحة والنزهة، ولا يعد هذا عيباً، أو منقصة للعالم، بل بعض العلماء في أوقات الراحة أو النزهة لا يرضى بأن يُسأل عن أي مسألة علمية أبداً؛ لأنه يعتبر وقت العلم في الدرس، وفي المسجد، وفي الأماكن الجادة. أما في وقت النزهة فتكون الأخبار والأحداث والحوادث، وما يتعلق بالكتب وقراءتها، والطرائف واللطائف.

وهكذا كان فعل شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- ، فكان في ذهابه للمسجد، وداره تبعد أكثر من كيلو عن المسجد، ففي الذهاب لا يمشي مع أحد، ولا يسمح لأحد أن يمشي معه.

ينتفع بوقته بمراجعة حفظه والدعاء. أما في رجوعه من المسجد فيمشي معه الطلاب لمن يريد مسائل الطلاق والشفاعات، أو إذا كان هناك ما يحتاج إلى توقيع أو كتابة أو تزكية، أو نحو ذلك في المسجد، ثم إذا رجع يرجع معه وفود.

وقد قرئت عليه بعض الرسائل و هو يمشي وسجلت، وبعض الفتاوى أيضاً حفظت له وهو يمشي .

وكثير من العلماء كانت سيارته كالمجلس العلمي المتحرك. والبعض منهم استغل الممشى لبث العلم، وهذه من أعجب طرق استغلال الوقت في الوقت الراهن. ومن أسئلة السيارة أُصدرت أشرطة للشيخ الألباني -رحمه الله-.

كذلك قرئت عدة كتب على الشيخ ابن باز -رحمه الله- في السيارة، والطائرة، وقد جمع تلك المسائل الشيخ عبد العزيز السدحان عنه. ويقول أحمد ابن الشيخ ابن باز: من ضبط الشيخ و دقّته أننا إذا قرأنا و نزلنا إلى مكان، ثم لم نرجع إلى القراءة. فإنه بعد الرجوع في يوم آخر يتذكر أين وقفنا؛ لأن همه و باله مشغول بالكتاب رحمه الله.

***

باب
بركة الوقت

لا يوجد شخص إلا و ينشُد البركة في وقته. لذلك يتساءل أحدنا: كيف لنا أن ندرك بركة الوقت؟ وهل أوقاتنا كأوقات أولئك العلماء؟

الحافظ بن حجر -رحمه الله- قرأ معجم الطبراني الصغير قراءة إجازة بين الظهر والعصر، وهو من أعجب وأسرع ما نُقل في قراءة الحديث. وغيره كثير من أهل العلم، فمنهم من يختم القرآن في ليلة، ومن يصلي عشرات الركعات ، فهل أوقاتنا كأوقاتهم؟

لاشك أن من أشراط الساعة تقارب الزمان، كما روى الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرَمَةِ بِالنَّارِ » [1]، فوجد من المعاصرين من العلماء، و من الزهاد، ومن العبّاد من يأتي بأعمال كثيرة في أوقات قليلة.

واختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقيل: معنى ذلك سرعة انقضاء الأيام الأوقات والساعات. وقد جاء في الحديث تفسير تقارب الزمان.

قال البعض أن المعنى: عدم الانتفاع بالوقت، فيذهب سُدى، وسريعاً لا ينتفع به الإنسان، فيكون وقته متقارباً لا يميز بين وقت الصباح و وقت الليل؛ من سرعة انقضاء الوقت. وقيل: أن سرعة انقضاء الوقت حسيّة. وقيل: أنها سرعة معنوية.

وهذه الأقوال في هذا المعنى متداخلة. وقيل: بل لسهولة الاتصال، والتواصل، والمواصلات بين الناس؛ صار الوقت سريعاً، فينجز المرء أموراً كثيرة في وقت قليل، فكأنَّ الوقت قد تقارب. وهذا الأخير هو اختيار الشيخ حمود التويجري، والشيخ ابن باز، وعدد من أهل العلم، وذلك بعد وجود الاكتشافات الحديثة.

---

(١) : أخرجه الترمذي (٢٣٣٢) ، وقال : حديث غريب من هذا الوجه . و صححه الألباني .

والله تعالى وهبَ هذه الأمة المرحومة أعمالاً جليلة عظيمة، ورتّب عليها الأجور العظيمة في وقت قصير. ذلك أن أعمار هذه الأمة لا تقاس بأعمار الأمم الماضية، كما أخبر النبي ﷺ عند الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ: « أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ »[1]. ومن هذه الأعمال: إدراك ليلة القدر، ومضاعفة ثواب بعض العبادات.

ومواقف العلماء في استغلال الوقت مهمة لشحذ الهمة، لكن إن لم يكن مع هذه المواقف برنامج عملي لاستغلال الوقت، وبخاصة لطالب العلم، فلن تنفع الحكايات والأخبار في هذا الشأن. والإنسان أدرى بنفسه و إمكانياته.

ويختلف استغلال الوقت باعتبار عمر الإنسان، وارتباطاته، وفترات العمل التي يقضيها. فكلٌ أدرى بنفسه، و البَسْ لكل حالة لبوسها.

والمهم في الخطة العملية التدرج، وأن لا يكون الإنسان حادَّ النظر، أو التفكير، إما أن يعمل وفق هذا المخطط بدقة كما هو أو يفشل. فالبعض ربما يكتب خطة عملية لإنجاز كتاب ما، أو إنهاء شيء معين في مدة معينة، فإن لم يعمل بهذه الخطة في هذا الوقت المعين، خلال أسبوع، أو شهر، وإلا فإنه يعتبر نفسه قد فشل، فيترك كل الخطط والترتيبات. فليتدرج الإنسان بنفسه.

والتدرج من أهم الأمور في الإنجاز، ثم منح النفس قسطاً من الراحة، و إلا فالخطط والبرامج كثيرة، ويتفاوت الناس في ذلك .

فإذا كان الإنسان مقبلاً على حفظ القرآن الكريم فقط، فله برنامج. و إذا كان لديه مع حفظ القرآن حفظ بعض المتون، فيكون له برنامج آخر. وإذا كان مع حفظ القرآن والمتون منتظماً في حضور دروس علميه، فلذلك برنامج آخر. وإذا كان مع حفظ القرآن والدروس وحفظ المتون مشاركاً في برامج دعوية، فإنه يختلف برنامجه. وكذلك إذا كان مع البرامج الدعوية زيادة أعمال إغاثية، أو إذا كان أهله في حاجته. فالأمر يتفاوت من حال إلى حال.

---

(١) : أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وقال: حسن غريب. و حسّنه الألباني.

ولذلك، قال الإمام الشافعي: (لو كلفني أهلي شراء بصلة ما حفظت مسألة)[1] . فإشغال النفس بأعمال جانبية، وربما تافهة، أو يقدّم غير المهم على الأهم والمهم، فهذا مما يجعل حياة الإنسان سبهللا.

***

باب
التعب في العلم

بذل الوقت الكثير في العلم سبب للتعب أحياناً . فقد أصيب الشيخ عبد القادر بن بدران -رحمه الله- بضعف في بصره لكثرة الكتابة، فكاد أن يذهب بصر ابن كثير -رحمه الله- لذات السبب .

وفي حال المرض، تجد منهم التعلق بالعلم قراءةً، وتعليماً، ومدارسة، حتى مرض الوفاة.
فشيخ الإسلام ابن تيميه كان يطالع الكتب وهو مريض، حتى قال له بعض الأطباء: لو رفقت بنفسك. فقال له: أنا أحاكمكم إلى علمكم، ألا ترون أن النفس إذا ارتاحت تنشط، ينشط الجسد و يدفع المرض ؟ قالوا: نعم. فقال: أنا أرتاح بالقراءة.

وكذلك الشيخ عبد الله بن عقيل – رحمه الله – كان ينتفع بكل وقته، بعد كل فرض له درس .

(١) : تذكرة السامع و المتكلم في أدب العالم و المتعلم ، لابن جماعة (١/ ٤٣) .

ولك أن تتصور أن الشيخ قارب المائة وهو يُقرأ عليه في جميع الأوقات، حتى في مرض وفاته؛ حيث أصيب بإغماء وأُدخل العناية. فكان إذا أفاق انتهز الفرصة بعض الطلاب فيقرؤون عليه، وكان قبل ذلك قد قُرئت عليه كتب كثيرة.

وكذلك الشيخ عبد الرحمن الدوسري في مرضه، ذهب إلى لندن. فكان يزور المراكز الإسلامية، ويلقي في المراكز والمساجد، وكان قد ألقى مرة كلمة بعد صلاة الجمعة فأغمي عليه-رحمه الله - من شدة الإعياء والتعب، فحُمل إلى المستشفى.

وأخبرني أحد الإخوة أنه رأى الشيخ ابن جبرين -رحمه الله- كان قد رُتب له محاضرة في قرية في الجنوب، فرأى الشيخ، وليس بشيء مستغرب من الشيخ؛ لبذله الكثير من العلم. فيقول: كان الشيخ ينتظر عند محطة البنزين، ينتظر من سيمر به ليأخذه للمحاضرة.
ويقول: فكان الشيخ قد طال به الأمر، فجلس بكتابه على رصيف المحطة. فيقول: تمنيت أني صورت الشيخ.
وفي آخر صيف قبل مرضه، قضى شهرين متتابعين في الدعوة في عدة مناطق لم يرجع لبيته أبداً مدة الشهرين، وكان بعض أبنائه المقربين منه وتلاميذه يذهبون معه أسبوعاً فيتعبون، يملون من كثرة بذله، ثم يأتي غيرهم، يتناوبون على خدمة الشيخ. وهو لمدة شهرين لم يكل أو يمل. وعدد من المناطق والقرى النائية، وبعض الجبال في جنوب المملكة، والقرى في الشمال. تتصور أنه لم يأتِها أحد من الدعاة، لكن تسمع أن الشيخ قد خدمها بدورة أو محاضرة أو وليمة أو افتتاح مكتب دعوة. وهذا مشهور عن الشيخ رحمه الله في كثرة بذله.
وكذا حال الشيخ محمد بن إبراهيم، يقول عنه تلميذه الشيخ عبدالله بن منيع: كان يخدم الإسلام ثماني عشرة ساعة.

***

باب

الإسلام والاهتمام بالوقت

من الإشارات والإضاءات العظيمة في هذه الشريعة المباركة التي تُجلّي للمسلم أهمية الوقت، ومكانته في الإسلام:

أحكام المواقيت في الصلاة، والمواقيت الزمانية والمكانية في الحج، بل إن جميع أركان الإسلام الأربعة، ما عدا الشهادتين، مرتبطة بالوقت، كالصوم، فإنه مرتبط بوقت، والصلاة كذلك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتاً ﴾ [النساء:١٠٣]، والحج، كقوله تعالى: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:١٩٧] .

والزكاة كذلك لها ارتباط بالوقت، وكون الزكاة حولية فإن ارتباطها بالوقت أوثق، فكل شخص يوقّت لزكاته بوقت حصوله على المال، وما هذا إلا لعظمة الوقت.

***

باب
آفاتٌ تعترض الوقت

هدر الأوقات وضياعها في أربعة: النوم، الوظيفة، الأكل، والأهل

فانشغل الناس بكثرة النوم، وقد عدّهُ ابن القيم من بين مفسدات القلب، فقال: (المفسد الخامس: كثرة النوم. فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل.) [1] ا.هـ.

كما بين أن النوم المعتدل: ثلث اليوم، فقال: (وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافا بحسبه.) [2]. وهذا الطبيعي، ولا يزيد عليه، لكن من الناس من ينام أقل من ذلك، كحال العلماء الثلاثة: الألباني، و ابن باز، وابن عثيمين – رحم الله الجميع- .

أما الوظيفة، فتأخذ ذروة الوقت وسنامه، فضلاً عن أنَّ كثيراً من وقت العمل مجرد ضياع وقت، بالذات لمن يقابل الناس، من الموظفين، أو من المعلمين الذين يقابلون الطلاب. فلو أراد الإنسان أن ينتفع بوقته ما استطاع، (ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي) [3]. ومن كان معلماً يلاحظ هذا الأمر، وانشغال الذهن من أسباب ضياع الأوقات.

فمن الإحسان على الأمة عموماً ، وعلى الدعوة و الدعاة ، و العلم و العلماء ، أن تنتبه الأمة إلى تفريغ علماء ومعلمين في كل بلدة، يفرغون للعلم والدعوة، وتعليم الناس. وليكن المال الذي يتقاضاه راتباً على وظيفته متفرغاً للعلم والتعليم، كما هي أوقاف عظيمة وقديمة كانت في زمن

---

(١) : مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٥٦)

(٢) : مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٤٥٧)

٣ : مقتبس من كلام الفخر الرازي ، انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢٢٤) .

مضى، فكان الناس يتفننون أيام الدول والدويلات الإسلامية الماضية على ضعفها، كانوا يتفننون في الأوقاف، فمن الأوقاف التي مرت في التاريخ: أوقاف على حمام الحرم بشراء الشعير؛ لينثر لحمام الحرم. هذه من الأوقاف التي كانت في التاريخ. ومن الأوقاف أيضاً: أوقاف لمطلقات الحرم المكي.

والثالث من المشغلات: الانشغال بالأكل.

والرابع من المشغلات: أن الإنسان إذا انشغل بأهله بإسراف يكون قد أضاع وقته. ولا أدعو إلى أن يكون متسلطاً على أهله، ولا يقوم بواجباته، لا. فهناك واجبات شرعية متعينة، لكنني أقصد إضاعة الوقت فيما لا ينفع.

كم هو مؤلم أن ترى المسلم مضياعاً لوقته سبهللاً، مهدراً له، لا يقدر قيمة ذلك الوقت، يقتل وقته بالتافه من المشاغل. وقد ترى الكافر حريصاً على كل دقيقة في حياته. كما قيل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجل

قال الحسن البصري: (يا بن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك) (١).

فاحذر من ضياع الأوقات . واحذر من سوف و لعلَّ . قال الناظم (٢):

و لا ترج فعل الخير يوماً إلى غدٍ لعل غداً يأتي و أنت فقيدُ

و قال الآخر :

ولا أدخر شغل اليوم عن كسل إلى غد إن يوم العاجزين غدُ

فإن بعض العاجزين يؤجل، فيومه هو الغد. كما تضيع الأوقات بكثرة الزيارات واللقاءات

(١) : لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٠٤) .

(٢) : عزاه الثعلبي للحسن بن علي ﷺ في كتاب الكشف و البيان (١٠١٦٧) . و جاء عند البيهقي في الزهد الكبير عن محمود بن الحسن (١/ ٢٣٥) .

والمجالس التي لا نفع فيها مع الإطالة، وكثرة الخلطة وصحبة البطالين. كما قال أحدهم [1]:

ان البطالة والكسل   احلى مذاق من عسل

ان لم تصدقني فسل   من كان مثلي في كسل

السينات الثلاث: السهر والسمر والسفر، هذه من مضيعات الوقت.

أما ما يتعلق بالسهر، فقد ابتلينا به، والنبي ﷺ كره الحديث بعد العشاء [2]، إلا في مصالح المسلمين، وطلب العلم، وانشغال الإنسان بضيفه، أو بأهله. وأغلب ارتباطاتنا هذا الزمان تكون بعد العشاء، هذا في الأغلب. والسهر والسمر أصبح من سماتنا هذا الزمن، حتى الانشغال بشيء مباح قد يفضي إلى ما هو غير مباح.

أما السفر، إلا إذا كان في العلم، أو العبادة فأكرم به من شغل. فمن كان مشغولاً بأمر دنيوي مباح، أو بأمر ديني، فهو في نعمة عظيمة، وصدق الشاعر أبو العتاهية إذ يقول :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة

ومن أكثر ما يسرق الوقت في عصرنا هذا: أجهزة التواصل، بل هي أجهزة التقاطع ؛ لأن فيها تقاطع مصالح. يصل الإنسان البعيد، و يترك القريب. يغفل عن أمه و أبيه و إخوانه و أبنائه وأقاربه. كما يقول الشاعر [3]:

جسمي معي غير أن الروح عندكم   فالجسم في غربة والروح في وطن

و لهذه الأجهزة، و وسائل التواصل آثار بلا شك أنها سلبية.

---

(١) : ذكره ابن الخطيب في كتابه روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار (١/ ٣٨٨) .

(٢) : جاءت كراهة الحديث بعد العشاء عند النسائي في الكبرى (١٥٣٦) عن أبي برزة الأسلمي ، و فيه : (... وَكَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخِّرَ الْعِشَاءَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الْعَتَمَةَ، وَكَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا، وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا)

(٣) : أورده الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب ، و قال : أنشدني محمد بن صالح : فذكره . (١/ ٢٣٣) .

ومن آفات الوقت: هجوم بعض الناس المغرمين بهذه المفاجئات، وهو مضياع لوقته، لا يهتم به، ولا يقدر له قدره. ويظن أن الناس مثله عابثين بالوقت، حتى لو جاء الإنسان بغير وقت زيارة، فمن المروءة أن يقدم اعتذاراً، وهذا من الأدب، حتى لو كنت أكثر شهرة من الشيخ أو من الداعية أو من إمام المسجد أو عندك موضوع مهم عظيم للإسلام والمسلمين، فإن الشخص المقابل أيضاً وقته ثمين، فضلاً عن إخلاف الوعد من غير اعتذار سابق ، و هذا شيء مؤلم .

***

باب
الوقت في تراجم العلماء

تجد وأنت تقلب صفحات التاريخ وكتب التراجم لعلماء الأمة من السابقين، وممن نبغ من المعاصرين، أن فلاناً حفظ القرآن صغيراً، ورحل وهو دون العشرين، جلس للإفتاء وهو في السابعة عشرة من عمره، كالإمام مالك؛ الذي شهد له سبعون من شيوخه أنه أهل للفتيا.

قال الحافظ عمر البزار: (كان شيخ الإسلام ابن تيمية في حال صغره إذا أراد المضيّ إلى المكتب يعترضه يهودي -وكان بيت هذا اليهودي في طريق الشيخ- فكان يعترضه بمسائل يسأله عنها، وكان الشيخ يجيبه عنها سريعاً، حتى تعجب اليهودي منه، ثم إنه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء

مما يدل على بطلان ما يدينه من دين اليهودية، فلم يلبث أن أسلم الرجل وحسن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه)[1]. وهذا وهو دون العاشرة.

وتقلب الصفحات، فتجد أن فلاناً قد قرأ العلم على المشايخ، وبرز وهو دون العشرين. وما هذا الأمر إلا لتربية قوية، جادة، استغل فيها وقته، أو كان وليه أو المشرف عليه أو شيخه يراعيه ويتابعه، ينتبه له ويحافظ عليه، ويقضي معه الأوقات الطويلة؛ ليتخرج عالماً، أو داعيةً من دعاة الإسلام.

***

باب
ارتباط الراحة و السعادة بالإنجاز والنفع المتعدي

المنتفع بوقته، والذي يقسم أعماله على الوقت، يشعر بسعادة و ارتياح بعد الانجاز.

فمن ذكريات الشيخ علي الطنطاوي- رحمه الله -، وقد أصبح معلماً، قاضياً، مشاركاً في برامج الإذاعة، يفتي، ويقود مظاهرات ضد الفرنسيين أيام الشباب. فقد طال به العمر- رحمه الله -، وكان يشكو من العمل وكثرة الشغل، فلما تفرغ شكى أشد من الفراغ، كما يحكي في ذكرياته عن ذاته: (انغمست في الحياة لأملأ نفسي بمشاغل الحياة وأُغرق وحدتي في لُجّة المجتمع، واتصلت

(١) : الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (١/ ١٧)

بالسياسة وخببت فيها ووضعت، وكتبت وخطبت، فكنت أحسّ وأنا على المنبر بأني لست منفرداً وإنما أنا مندمج في هذا الحشد الذي يصفّق لي ويهتف، ولكني لا أخرج من النديّ وينفضّ الناس من حولي وأنفرد في غرفتي حتى يعود هذا الفراغ أهول مما كان وترجع الوحدة أثقل، فكأنها ما نقصَت هناك إلاّ لتزداد هنا.).

ثم انتهى إلى قوله: (إني لأقرأ هذا الكلام الذي كتبته من خمسين سنة شمسية فأراه حقاً، ولكن أرى نفسي عنه بعيداً؛ أراني لا أزال أفتّش عمّن أضيع بالحديث معه عمري أو عن كتاب أو مجلة أمزّق بها حياتي، وأنا أعلم أن هذا العمر هو رأس مالي.) (١) ا.هـ

والبذل في النفع المتعدي للآخرين ليس مضيعة للوقت كما يتبادر لأذهان بعض من يهتم بوقته، أو يقرأ في الوقت، ومن يضن أنَّ المنتفع بوقته يجب أن يكون حبيس الدار، يذهب للصلاة، ويرجع ليقرأ، وينجز لنفسه فقط، من غير نفع متعدٍّ للآخرين بأعمال دعوية و تعليمية، أو إغاثية، أو تربوية، وليس هذا هو استغلال الوقت؛ لأن أجور النفع المتعدي تمتد إلى ما بعد وفاتك، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » (٢).

والوقت يمضي على المرتَّب والمذبذب لا محالة . فالفوضوي سيذهب وقته بلا طائل، والمرتب المؤَصّل سيحصّل النفع؛ لاستغلاله وقته فيما يعود عليه بالفائدة.

***

(١) : الذكريات لعلي الطنطاوي (٨/ ٢٢٣)

(٢) : رواه الإمام مسلم (١٦٣١)

باب
من أقوال السلف في أهمية الوقت

قال الحسن البصري رحمه الله: (أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على ديناره ودرهمه) [1].

وقال أبو بكر بن عياش: (لو ضاع درهم أحدهم لقال: إنا لله، ضاع درهم. وهو طول يومه لم يعمل بالطاعات) [2]. بمعنى أن من لم يعمل بالطاعة طول يومه أشد ضياعاً من ضياع الدرهم أو الدينار.

ويقول ابن القيم: (إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن الموت يقطعك عن الدنيا، وإضاعة الوقت تقطعك عن الله) [3].

***

---

(١) : أورده ابن أبي الدنيا في كتاب العمر والشيب، باب في الكبر (٨٥).

(٢) : جاء عند أبي نعيم في كتاب حلية الأولياء (١٢٧٦٢).

(٣) : الفوائد لابن القيم (١/ ٢١).

باب

أمور تعين على حفظ الوقت

مما يعين على إدراك أهمية الوقت، والحرص على استغلاله، والاستفادة منه: معرفة شرف الزمان، و أن الحياة أغلى من الذهب. ومجالسة من يحافظ على وقته، وقراءة أخبارهم، وقصصهم. والوقت كما في الأمثال: كسحابة صيف ، عن قليل تقشّعُ.

ويمكن تلخيص الأسباب في الآتي:

أولاً : أن يعرف الإنسان قدر زمانه .

ثانياً : أن يتذكر المرء سرعة انقضاء الأيام والأعوام .

ثالثاً : أن يتذكر أنه مسئول يوم القيامة عن الوقت .

فيا أخي المسلم، لن تجد منجزاً، عالماً، داعيةً، أو خطيباً مؤثراً، أو شخصاً نفعه متعدٍّ للمسلمين ولغير المسلمين، إلا وهو حريص، بل شحيح على وقته. والعمر يسير، وأنت تسير، كما قال ابن الجوزي -رحمه الله- في المدهش [1]:

يا ابن آدم ، لا تغررك عافية	عليك شاملة فالعمر معدود
ما أنت إلا كزرع عند خضرته	بكل شيء من الأوقات مقصود
فإن سلمت من الآفات اجمعها	فأنت عند كمال الأمر محصود

وحفظ الوقت يكون بالعبادة، النوافل بأنواعها، بالعلم الواجب على الكفاية والعيني، بالأذكار، وبنفع الخلق، بإغاثتهم وإعانتهم.

---

(١) : المدهش لابن الجوزي (١/ ١٦٠)

ويكون حفظ الوقت بترتيبه، بتنظيمه، بأن يجعل وقتاً للطلب، ووقتاً للنزهة، ووقتاً للزيارات العلمية والدعوية، والصلة والمباحات، ويضع جدولاً للزيارات والمشاريع والأفكار التي أنجزها.

ومن رحمة الله بنا ربط حياتنا بالصلوات، فمواعيد أهل الخير و الطاعة و عموم المسلمين ترتبط بالصلاة، وهي علامة خير وصلاح. فإذا ضرب لك موعداً قال: آتيك بعد صلاة العشاء، بعد المغرب. بخلاف من لا يقدر الصلاة قدرها، ولا يعرف وقتها. فيربط مواعيده بالساعات، وأحياناً لضبط الفوضوي تضطر أن تربطه بالساعة. هذا شيءٌ واقعي، لا أُغرب إن قلت أنه ظاهرة لعدد من الناس.

وبعض الناس يهجم عليك هجوماً في أوقات غير مناسبة، بل يحفظ قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾ [النور:٢٨]، و مع ذلك يتضايق إذا اعتذرت بشغلك.

وآخر يأتي في أي وقت لأي شخص، وليس عنده أي هدف، بل هدفه تمضية الوقت فقط. يخرج من بيته، يريد أي شيء يتحدث معك فيه، عن الأحداث، عن الداخل، عن الخارج، عن العلم، عن الدعوة، المهم أن يقضي وقته، بل ربما يتصور معه، ثم يذهب. هؤلاء هم من قطاع الطريق.

وقد كان يتألم كثيراً ابن الجوزي لأمثال هؤلاء، فيقول: (فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهابه بفعل الخير، كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم، وقعت وحشة، لموضع قطع المألوف! وإن تقبلته منهم، ضاع الزمان! فصرت أدافع اللقاء جهدي: فإذا غلبت، قصرت في الكلام، لأتعجل الفراق. ثم أعددت أعمالًا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم: قطع الكاغد، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر، وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي. نسأل الله عز وجل أن يعرفنا شرف أوقات العمر، وأن يوفقنا لاغتنامه)[1] .

---

(١) : صيد الخاطر لابن الجوزي (١/ ٢٤١) .

فساقطُ الهمة همته دنية . و هذه همة بعضهم ، همة ساقطة . كما ما قال أبو نواس [١]:

إنما العيش سماع و مدام و ندام فإذا فاتك هذا فعلى العيش السلام

أما البعض فهمته تحوم حول العرش، وبعضهم يدور حول الحُش. فمنهم يفكر فيما يصلح قلبه ،كما كان حال الصحابة ﷺ، وعدد منا يفكر فيما يصلح بطنه و مطعمه ومشربه. وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾[الليل:٤] .

قال ربيعة بن ثابت[٢]:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم و الأغر بن حاتم

فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ومن الناس من همته في الثريا، بينما تجد من همته تكون في الثرى، كما قال الشاعر أبو تمام[٣]:

بَصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلَّا على جسر من التعبِ

ولسان حال صاحب الهمة كما قال أبو فراس الحمداني[٤]:

إذا لم أجد من خلةٍ ما أريده فعندي لأخرى عزمة و ركاب

***

(١) : عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢٥٩) .

(٢) : طبقات فحول الشعراء لابن المعتز (١/ ١٥٩)، وقال: سار هذا البيت له في الآفاق، وصار مثلاً، امتدح به يزيد بن حاتم وهجا به يزيد بن أسلم السلمي.

(٣) : من قصيدته (السيف أصدق إنباء من الكتب).

(٤) : من قصيدته (أما لجميل عندكن ثواب).

فصل

علماء الحرمين

سير و مواقف لعلماء الحرم المكي و المدني و من درّس فيهما

تمهيد

علماء الحرمين الشريفين. علماء مصلحون، قاموا بالتعليم، وبنوا الخير، ثم ماتوا ولم يعلم بهم أحد، ولا يضرهم ذلك، كما قال عمر بن الخطاب عن شهداء نهاوند: (لا يضرهم أن لا يعرفهم عمر، لكن الله يعرفهم) [١].

***

(١): أثر صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٢٤). والطبري في تاريخه (٤/ ١٣٤)

باب
المجيء إلى مكة

يأتي بعض العلماء إلى مكة للحج أو العمرة، أو إلى المدينة للزيارة، فيرغب عدد منهم البقاء مدة لتلقي العلم والتعليم، منهم:

رحمت الله الهندي:

صاحب كتاب (إظهار الحق) (1) في الرد على النصارى، والذي بسببه اهتدى للدعوة إلى الله الشيخ أحمد ديدات – رحمه الله–.

يقول في مطلع كتابه: (استدعيت ثانياً من القسيس الذي كان بارعاً وأعلى كعباً من العلماء المسيحية الذين كانوا في الهند مشتغلين بالطعن والجرح على الملة الإسلامية، تحريراً وتقريراً، أعني مؤلف (ميزان الحق) أن يقع بيني وبينه مناظرة، في المجلس العام، ليتضح حق الاتضاح أن عدم توجه العلماء الإسلامية ليس لعجزهم عن رد رسائل القسيسين كما هو مزعوم بعض المسيحيين، فتقررت المناظرة في المسائل الخمس التي هي أمهات المسائل المتنازعة بين المسيحيين والمسلمين أعني: التحريف والنسخ، والتثليث، وحقيقة القرآن، ونبوّة محمد ﷺ؛ فانعقد المجلس العام في شهر رجب سنة ألف ومائتين وسبعين من هجرة سيد الأولين والآخرين ﷺ في بلدة أَكْبَرَ أبادْ.

وكان بعض الأحباء المكرَّم أطال الله بقاءه، معيناً لي في هذا المجلس، وكان بعض القسيسين معيناً للقسيس الموصوف، فظهرت الغلبة لنا بفضل الله في مسألتي النسخ والتحريف اللتين كانتا من

---

(١) : كتاب (إظهار الحق) لمحمد رحمت الله الكيرانوي الهندي، نشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، بدراسة وتحقيق وتعليق: د. محمد أحمد ملكاوي. ط ١٤١٠ هـ

أدق المسائل وأقدمها في زعم القسيس، كما تدل عليه عبارته في كتاب حل الإشكال. فلما رأى ذلك سَدَّ باب المناظرة في المسائل الثلاث الباقية)[1] ا.هـ .

وكان الشيخ رحمت الله مدرساً في الحرم، وله قدم السبق في تحويل نظام التعليم في مكة من الطريقة التقليدية إلى الطريقة الحديثة. فكان يرى أن الأوضاع التعليمية في مكة المكرمة ما زالت على الطريقة القديمة، فأقدم على إحداث أول مدرسة بترتيب ونظام جديد على نفقته الخاصة في شهر رجب عام ١٢٨٥هـ ؛ رجاءَ أن تخدم طلاب العلم من الهند وسائر أنحاء العالم الإسلامي، وعرفت بمدرسة الشيخ رحمت الله أو المدرسة الهندية، وسرعان ما غصت بطلابها.

ويُذكر أنه قدمت امرأة من الهند من كلكتا في عام ١٢٨٩هـ للحج واسمها: (صولت النساء بيغم) وكانت عازمة على إنشاء رباط في مكة المكرمة، وكانت تسمع عن الشيخ رحمت الله لكنها لم تعرفه، فاستشارت الشيخ في أمر الرباط فأخبرها بكثرة الأربطة، وأن أبناء مكة في حاجة ماسة إلى مدرسة، ففوضت الشيخ بشراء الأرض والإشراف على البناء وتم البناء، وتم افتتاح المدرسة في الرابع عشر من شهر الله المحرم من سنة ١٢٩١هـ في احتفال كبير حضره علماء مكة المكرمة وأعيانها، وانتظمت الدراسة فيها، وسُمّيت بـ (الصولتية) إكراماً للمحسنة الفاضلة)[2]. ا.هـ

الشيخ محمد حياة السندي:

وهو محمد حياة بن ابراهيم السندي الأصل والمولد، المدني الإقامة والوفاة.

انتقل من مدينة مولده (جاجر) إلى (تته)، وبها أخذ عن علماء منهم: الشيخ ولي الله الدهلوي، والشيخ محمد معين التتوي السندي. ثم هاجر إلى الحرمين الشريفين، وتوطن المدينة، فأخذ عن علمائها كالشيخ عبدالله بن سالم البصري، والشيخ أبو طاهر محمد بن ابراهيم الكردي المدني،

---

(١) : إظهار الحق لمحمد رحمت الله الكيرواني العثماني (١/ ٦)

(٢) : أهل الحجاز بعبقهم التاريخي (١/ ١٨٦)

ولازم الشيخ أبا الحسن بن عبدالهادي السندي المدني. وجلس في مجلسه بعد وفاته أربعاً وعشرين سنة.

من تلاميذه: إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب، وقد لقيه في الحرم النبوي وتتلمذ عليه وأجازه بالأحاديث. وكذلك العلامة محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني، صاحب كتاب (سبل السلام). يقول عنه القنوجي: (شد حزامه على درس الحديث النبوي، وأفنى عمره في خدمة الكلام المصطفوي، وكان يعظ الناس قبل صلاة الصبح بالمسجد الشريف. وانتفع به خلق كثير من العرب والعجم وأقبل عليه: أهل الحرمين ومصر والشام والروم والهند بالاعتقاد والانقياد وعاش عيشة مرضية ولقي الله سبحانه يوم الأربعاء السادس والعشرين من صفر سنة ١١٦٣هـ، ودفن بالبقيع)[١]. ا.هـ

وقال: (ورغم أن الشيخ نشأ على المذهب الحنفي، وهو السائد في البلاد الهندية، إلا أنه لم يكن من الغالين في المذهب. كان منابذاً للتقليد، متمسكاً بالدليل، ولأجل ذلك أَلَّف رسالة: (تحفة الأنام في العمل بحديث النبي عليه الصلاة والسلام).

وينقل عنه العلامة الفلاَّني في كتابه: (ايقاظ همم أولي الأبصار) ما نصُّه:

(قال شيخ مشايخنا محمد حياة السندي اللازم على كل مسلم أن يجتهد في معرفة معاني القرآن وتتبع الأحاديث وفهم معانيها واخراج الأحكام منها فإن لم يقدر فعليه أن يقلد العلماء من غير التزام مذهب لأنه يشبه اتخاذه نبيا وينبغي له أن يأخذ بالأحوط من كل مذهب ويجوز له الأخذ بالرخص عند الضرورة وأما بدونها فالأحسن الترك أما ما أحدثه أهل زماننا من التزام مذاهب مخصوصة لا يرى ولا يجوز كل منهم الانتقال من مذهب الى مذهب فجهل وبدعة وتعسف وقد

١ : أبجد العلوم صديق حسن خان القنوجي (٦٦٥/١)

رأيناهم يتركون الأحاديث الصحاح غير المنسوخة ويتعلقون بمذاهبهم من غير سند. إنا لله وإنا إليه راجعون.)[1] ا.هـ

شمس الحق العظيم أبادي

أبو الطيب محمد شمس الحق بن أمير العظيم آبادي. من كبار محدثي الهند. ولد سنة ١٢٧٣هـ بـ(ديانوان)، وتنقل بين (لكنأو)، و(مراد آباد)، و(دهلي) التي لازم فيها الشيخ نذير حسين الدهلوي.

شرح سنن أبي داوود مع جمع من علماء الهند. قال الشيخ محمد تقي الدين الهلالي: (كان الشيخ شمس الحق العظيم آبادي هو الذي كان ينفق على أولئك الجماعة زمان تأليفه ويشاركهم في العمل)[2] ا.هـ

وقال الفريوائي: (وقد اشتهر المحدث شمس الحق العظيم آبادي بتأليفه هذا الشرح، إلا أن المجلد الأول منه في الطبعة الأولى قد نشر باسم أخيه الشيخ شرف الحق محمد أشرف العظيم آبادي، والحقيقة أن هذا الشرح من تأليف المحدث شمس الحق وإنما استعان بأخيه وغيره من العلماء أثناء التأليف وهم: المحدث عبد الرحمن المباركفوري صاحب تحفة الأحوذي، والشيخ أبو عبد الله إدريس بن أبي الطيب الديانوي، وخال المؤلف الشيخ الحاج عبد الجبار بن الشيخ العالم نور أحمد الديانوي، والشيخ القاضي يوسف حسين خان الهزاروي، والشيخ محمد الشاه جهانفوري.

وسبب تأليفه هذا الشرح أنه لما كان يؤلف شرحه الكبير على سنن أبي داود المسمى (غاية المقصود) شعر أنه يطول إلى ما لا نهاية له، وأن هذا العمل يمكن أن لا يتم في حياته، فشرع في

---

(١) : ايقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار لصالح بن محمد بن نوح العمري المعروف بالفلاني (١/ ٧٠)

(٢) : (الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة) للعلامة: تقي الدين الهلالي.

تأليف مختصر ينفع العلماء والطلاب، ويعينهم في فهم معاني الأحاديث، وها هو (عون المعبود) أكمله في سبع سنين)[1] ا.هـ

وكان إذا جاء مكة يدرس في الحرم المكي الشريف.

**

الشيخ أبو شعيب الدكالي

أبو شعيب بن عبدالرحمن الدكالي الصديقي. ولد سنة ١٢٩٥هـ ، من محدثي وفقهاء المغرب. كان وزيراً للعدل في المغرب، وتولى التدريس في الأزهر، والافتاء بالمذاهب الأربعة. وكان يتولى الخطابة و التدريس إذا جاء للحرم. فالتدريس في الحرمين شرف، وكان هناك قديماً انتشار للتدريس بالمذاهب الأربعة، و كان في الزمن القديم أكثر من الزمن المعاصر.

وأعلن في سنة ١٣٢٥هـ مواجهته للبدع والخرافات، ونصر السنة. وكان من كبار دعاة السلفية.

**

الشيخ عبد العزيز بن باز

أيضاً كان إذا قدم إلى مكة في بعض الأحيان يجلس للفتوى، و يلقي كلمة مختصرة للناس، ثم يستقبل أسئلتهم. وصار رئيسًا للجامعة الإسلامية، استقطب لها عدداً من العلماء، أتى بهم من عدة بلاد في أكثر من تخصص، فصارت نهضة علمية في المدينة، وما زالت آثارها وثمارها، و إن كانت قبل خمسين عاماً تقريباً، ودرَّس الشيخ الألباني فيها لثلاث سنوات، فقامت صحوة حديثية بعد مجيئه –رحمهم الله–.

---

(١) : الحركة السلفية في الهند ودورها في خدمة السنة المطهرة للفريوائي

الشيخ محمد بن عثيمين

سيرته لا تخفى، ودروسه أشهر من أن تُذكر، استمرت سنين طويلة، قرابة العشرين سنة، حتى كان آخر عهده بالدروس العلمية والجلوس للإفادة و الإفتاء كان في الحرم المكي الشريف في آخر رمضان سنة ١٤٢٠هـ.

***

باب
لماذا علماء الحرمين؟

سبب الكلام عن علماء الحرمين: لأنهما محط أنظار العالم، وموئل المسلمين في النُسك والزيارة.

وكما أن الإمام مالك اشتهر بالعلم مع أنه ما خرج من المدينة، لكن لكثرة العلماء الذين يأتون، فكانوا في زيارتهم للمدينة يتلقى عنهم، كذلك لوجود عدد من العلماء فيها من كل بلد في المذاهب الأربعة، ومنهم من تولى الإمامة والخطابة، بل بعضهم لا يأتيه الدور إلا بعد سنة في الخطبة؛ لكثرة من يخطب في الحرمين.

كما أن الأذان صار بالوراثة، وما زالت عوائل كبيرة في مكة و المدينة يتولون الأذان، كذلك كانوا في زمن مضى يتولون الخطابة، مثل: آل الطبري الشافعية: كانوا لسنين هم الخطباء في مقام الشافعية. ويُحكى أن أحدهم عزل قرابة عام ألف للهجرة ليلة العيد. ومعلوم أن خطيب العيد لأي مقام من المقامات يستقبل الناس بعد العيد في بيته، فيعد لهم الطعام و الشراب.

فكان يُعد تلك الليلة، فأخبره والده بعزله. فلما علم صُعِق فمات؛ لأنه يُعد وجاهة وشرف تولي الخطابة في الحرم وخطبة العيد.

كذلك لكثرة الطرق والأساليب للتدريس التي تمارس في الحرمين، فكانت أشبه بالجامعات. ويختلف التدريس على حسب العلماء، وطرائقهم ومذاهبهم، وحسب الكتب والمواسم. فبعضهم في الموسم في وقت توافد الناس يتوقف عن الشرح، ويُخصص الكلام عن التوحيد وفتاوى الحجاج والمعتمرين.

كذلك يحصل في الموسم من المناظرات المباشرة ما يُنقح الفهوم. وقد استفاد الشيخ صالح القاضي، وهو من علماء عُنيزة، وشيخ الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمهم الله –، من طرقهم في التعليم عندما ذهب مدة لطلب العلم في مكة.

فكانت طريقة التدريس عند علماء نجد كعادة بعض البلاد والتي ما زالت مستمرة إلى ذلك الوقت، طريقة: (سم، بركه)، تقرأ الكتاب، ولا يشرح لك الشيخ إلا إذا طلبت.

فلما ذهب الشيخ صالح القاضي إلى مكة، شاهد الطرائق من التدريس وأنواع من التدريس، وهو الشرح المُفصل والمطول، فنقل هذه الفكرة إلى القصيم، وتأثر به تلميذه السعدي، وتأثر بالسعدي تلميذه الشيخ ابن عُثيمين، وكذلك الشيخ محمد بن مانع، وسيأتي الحديث عنه، وكذلك الشيخ أحمد بن عيسى.

ومن الأسباب: أن مكة أفضل بقاع الدنيا ، ثم بعدها المدينة. فلذلك، سأقدم علماء مكة ثم المدينة.

***

باب
أخبار علماء الحرمين

الشيخ عبد الظاهر أبو السمح

هو عبد الظاهر بن محمد، نور الدين التليني، أبو السمح خطيب وإمام الحرم المكيّ، ومن وعاظ الفقهاء الأزهريين. من بلدة التلين في الشرقية بمصر. تفقه في الأزهر.

وقام بإمامة مسجد (أبي هاشم) برمل الإسكندرية. واستقدمه الملك عبد العزيز إلى مكة، وولاَّه الخطابة والإمامة بالحرم المكيّ، وإدارة دار الحديث الخيرية (١٣٤٥ – ١٣٧٠هـ). وتوفي بمستشفى في الجيزة. وهو من مؤسسي (جماعة أنصار السُنة) بمصر.

تم الاعتداء عليه في مسجده بالإسكندرية ، فنصره الله على الذين اعتدوا عليه، ولم يرتضوا أن يصلي بهم، فصلى خلفه المسلمين في الحرم.

طلب الملك عبد العزيز–رحمه الله– من الشيخ محمد رشيد رضا أن يرسل له عدداً من العلماء يتولون الإمامة والتدريس في الحرم، فرشح له الشيخ عبد الظاهر أبو السمح ، ومعه تلميذه وصهره محمد عبد الرزاق حمزة، وهو أيضًا إمام الحرمين.

جاء الشيخ عبد الظاهر أبو السمح إلى مكة ونقل معه عائلته وصارت له وجاهة في مكة، باعتبار أن عنده دربة وخبرة في كيفية مقاومة البدع؛ لأنه جاء من مصر وهو عالم، وله طريقة في مقاومة البدع، بل جميع خُطبه قرابة العشرين عاماً أكثرها في التوحيد والتحذير من الخرافات والخزعبلات، وله عدة مقالات في الصحف والمجلات.

من أسباب معرفته لمذهب السلف اتصاله بالشيخ أمين الشنقيطي، أحد سكان مصر. فهو الذي دلَّه على كتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم. فكان بعد ذلك ينافح عن عقيدة السلف

الصالح، ويدافع عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته، من ذلك أنه ألف رسالة في الرد على المخالفين لتلك العقيدة، وعنوان رسالته (الرسالة المكية في الرد على الرسالة الرملية)[1].

بعد مجيء الشيخ عبد الظاهر أبو السمح الحرم اجتمع عدد من الأئمة مع عدد من العلماء وأعيان مكة واقترحوا عليه فتح دار للحديث. فكتب للملك عبد العزيز هذا الطلب، فأقرهم على ذلك، وذلك في رسالة طويلة رائعة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عبد الظاهر مع أهل مكة، فيها الحث على الاهتمام بالدليل واحترام الأئمة الأربعة واحترام الأئمة الأربعة.

ثم قال الملك عبد العزيز في الرسالة : وإذا كانت المدرسة سيعلم فيها مذهب أحمد وعدم العيب على أحد من العلماء من الأئمة فهذا نوافق عليه، وقرر فيها ما ترى مع الشيخ عبد الله بن الحسن آل الشيخ – و هو رئيس القضاة في مكة- قرر ما ترى معه الشيء المناسب ، أعتمد ذلك ، بهذا نفتح مدرسة.

فوضعوا لها نظامًا وأرسلوه للملك، ثم جاءت الموافقة، ووضع حفل كبير في افتتاح دار الحديث.

والشيخ عبد الظاهر أبو السمح صاحب صوت جميل، توفي ١٣٧٠ هـ . ومن ترجم له ذكر عنه أنه صاحب صوت جميل وبكاء كثير في التلاوة.

تولى رئاسة هيئات مكة، ورشحه الملك عبد العزيز لإلقاء خطبة عرفة. وصلى خلفه الجمعة سنة ١٣٤٧هـ.

قيام المبتدعة عليه أيام شبابه في الإسكندرية:

بدأ بجمعية أنصار السنة في مصر، وتولى الإمامة في مسجده في الاسكندرية والخطابة. وقاوم البدع والمخالفات، فتضايق أهل البدع منه، و كذبوا عليه. فمما قالوا عنه أنه يقول للناس: (أن العصا خير من رسول الله). ويقولون أنه يقول: (أن العصا تنفعك، تتوكأ عليها، لكن النبي لو توسلت إليه ما نفعك)، هذا مما كذبوا على الشيخ، وقالوا عنه: (أنه يدعو لمذهب خامس ، وأنه

---

(١) : طبعت سنة ١٣٤٩هـ في مطبعة المنار

لا يؤمن بالمذاهب الأربعة، وأنه صعد على المنبر ليخطب فوجد علمين عند المنبر قال للناس ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟).

وكتبوا لمحافظ الإسكندرية في ذلك الوقت هذه الأكاذيب وصدّقهم وأخذ برأيهم، وزاد شرهم على الشيخ. وفى الوقت ذاته، أعطوا أحد العوام عصى وقالوا له نحن نريد أن نناظر عبد الظاهر مناظرة في المسجد علانية، ونسأله عن شفاعة رسول الله ﷺ لو سألناه هل يشفع لنا الآن أم لا ؟ إن قال لا: اضربه.

فسألوا الشيخ في المناظرة. فقال: (إن النبي ﷺ قد مات، والآن ما ينفع ولا يضر). فضربه ذلك الرجل، ثم نقل بعض الكذبة للمحافظ أنّ الشيخ أثار مشكلة في المسجد. فأمر المحافظ بإغلاق المسجد، وطرد الشيخ منه، ومُنع من الإمامة والخطابة.

فجاء إلى الشيخ محمد تقي الدين الهلالي وقال له: إن المسجد قد مُنعت منه وطُردت، وسيسد الباب. فلو قمت بالتدريس. فذهب الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المغربي إلى المسجد وبدأ بالإمامة والتدريس. فجاء الأمن من المحافظ وقالوا: أنت الشيخ عبد الظاهر ؟، قال: لا، محمد تقي الدين الهلالي المغربي، فسكتوا. خافوا؛ لأن المغاربة في ذلك الوقت لهم امتياز فرنسي، ومصر كانت مستعمره فرنسية. فأي شخصية مغربية لها أحقية التنقل أينما شاءت في مصر كأي فرنسي؛ فخافوا منه وتراجعوا.

والمحافظ كان مع المبتدعة فلم يكتفوا بذلك، فكتبوا للملك فؤاد يشتكون على المحافظ أنه وهابي، من السلفية ؛ لأنه سكت عنه ولم يضربه ولم يسجنه ، إنما منعه من المسجد ، فعلم بذلك المحافظ ، واستدعاهم جميعًا ، قال: أنتم وقعتم للملك، كتبتم هذه ؟، دخلوا عليه واحدًا واحدًا ، يقررهم بتوقيعاتهم ، فكل منهم واقف يقول : نعم هذا توقيعي، فيؤنبه ويطرده، واحدًا واحدًا حتى طردهم جميعًا، أو قبل أن يطردهم قال: أنتم دعاة فتنة، إذا كان عبد الظاهر وهو مصري وهابي، كيف محمد تقي الدين الهلالي المغربي يصير وهابي؟ وأنتم إذا فعلتم ذلك أثرتم علينا فرنسا؛ لأن الخوف صار أمنياً، أثرتم علينا فرنسا، هذه المرة أعفو عنكم، لكن مرة أخرى سأعاقبكم، ففرقهم وطردهم.

ونصر الله ﷻ الشيخ عبد الظاهر عليهم فاستمر خطيباً في ذلك المسجد، ويأتي يحضر الخطبة والدروس.

وبعد شهرين من هذه المشكلة رجع إلى الخطابة والإمامة ونصره الله على أعدائه، ثم ما هي إلا سنتين تقريباً حتى رشح إماماً للحرم، فالله ﷻ نصره عليهم. والذين امتنعوا عن الصلاة خلفه وضربوه واستعدوا عليه السلطة، صلوا خلفه في الحرم المكي.

**

الشيخ أحمد بن عيسى

هو من علماء شقراء ، ذهب إلى مكة لأجل التجارة و التعليم.

كان في تلك الفترة اضطرابات في نجد بسبب بعض القبائل، وضُعف الحكم في وقته؛ فذهب إلى مكة، وفتح دكاناً للتجارة يبيع فيه أقمشة، وفي نفس الوقت يدرس.

وهذا يذكرنا بطريقة الشيخ القرعاوي في جيزان، وطريقة الشيخ الألباني أيضاً يصلح الساعات ويستقبل الطلاب فيدرسهم في الدكان. فكانت هذه طريقة الشيخ أحمد بن عيسى، وهو أكبر منهم ، فقد مات قبل مائة سنة تقريباً.

أسباب انتشار دعوة الشيخ أحمد بن عيسى في مكة :

صار الشريف عون القرشي من محبي الشيخ، ويُعطيه ويدعمه بما يريد، ويساعده في نشر الدعوة ومحاصرة الخرافات والتصوف .

فمن أسباب انتشار دعوته: أنّ أحد التجار يدعى التلمساني، كان يأتي للتجارة بين مكة وجدة والطائف، يأتي بالأقمشة إلى جدة فيشتريها منه الشيخ أحمد بن عيسى بألف دينار أو درهم – عملتهم التي كانت في وقتهم– ، أربعمائة منهم مُعجلة، والباقي إلى نهاية العام، في كل سنة يأتي

من مصر هذا التاجر في الحج، ويأتي ببعض الأقمشة معه ويحج و يأخذ الأموال و يذهب، فاستمر معه الشيخ بالتعامل.

قال له مرة التلمساني – وقد كان أشعرياً و صوفياً – : منذ أربعين سنة وأنا أعامل الناس، ما وجدت أصدق منك يا وهابي، ونسمع عنكم خارج البلاد كلاماً سيئاً، لعله من كلام السياسيين ضدكم ، وما وجدت أصدق منك. وبدأ يطرح على الشيخ بعض الشبهات حول الإمام محمد بن عبد الوهاب و دعوته. والشيخ كلما ذكر شيئاً أجابه، واستمرت المناظرة ثلاثة أيام، حتى ارتفع بها التلمساني وترك التصوف ومذهب الأشاعرة، فصار داعماً قوياً لمذهب السلف بنشر الكتب. والتلمساني هذا أثّر في التاجر العالم الوجيه محمد نصيف.

الشيخ أحمد بن عيسى له علاقة كما سبق وأشرت بالشريف عون القرشي حاكم مكة، وبالتأثير عليه وحسن التعامل معه وافقه على منع البدع، بل كان من جرأة الشيخ أحمد بن عيسى أن يأتي بعض حلق المتصوفة والأذكار المبتدعة في الحرم فيفرقهم بعصاه فيهربون، وهذا قبل أن يتعرف على الشريف أول دخوله إلى مكة.

وقام ضده بعض المبتدعة وأساءوا الكلام عليه فذهبوا للشريف عون وقالوا: إن هذا الرجل يُنكر علينا الدعاء والأذكار والاستغفار والصلاة على رسول الله، فقال لما استُدعى الشيخ عند الشريف عون، قال الشيخ: أنت – الشريف عون – هل ترضي أن يُسميك الناس يا عون يا عون يا عون، أو يا عو يا عو؟ فينادونك بهذا الشيء، هل ترضى؟ قال : ما أرضى . قال الشيخ: كيف هؤلاء ينادون الله بهو هو؟ حلقة كاملة بهو هو مستمرة على هذا الذي يسمونه ذكراً وليس بذكر ، فهل ترضى بذلك؟ يقفون عند بابك يا عو، يا عو؟ فقال: لا أرضى بذلك. فصار سببًا لمنع هذه الحلق ، ووافقه لهدم القباب والقبور.

ومن سلامة منهج الشريف عون وتأثره بمذهب السلف أنه بدأ يتهمه الخرافيون والصوفية والرافضة في مكة بأنه يأخذ المكوس والمظالم والرشاوى ويطرد أعيان مكة ويفرق العلماء

ويوقف المذاهب الأربعة ، كذبوا عليه كذبات كثيرة وتأثر بهذا الكلام أحمد شوقي، فكتب أبياتاً يستنجد بها لأهل مكة من ظلم الشريف عون.

وأحمد شوقي ليس مُحققاً إنما شاعر فقط ، فلا يُظَن أن شعره نصاً حتى ما يُرد عليه، بل يُرد عليه. فأزيلت ولله الحمد بعض البدع و القباب و القبور.

وذكر أمين الريحاني في كتاب (ملوك العرب): أن القناصل الأجانب في جدة لما بُدئ هدم القباب والقبور اعترضوا على هدم قبة حواء، قبر حواء، قالوا: لأنها أم الجميع. فقال: (عون الرفيق المصلح، الذي كان يميل في عقيدته إلى الوهابية. فحمل حملته المشهورة على الأولياء، فأمر بهدم القبور والمقامات، وكان جهاده يذهب حتى بقبر (أمنا) حواء لولا تدخل القناصل، وقولهم للشريف عون: لك ما تشاء في الأولياء، ولكن حواء أم الناس أجمعين، ونحن نحتج على هدم مقامها)[1] فانظر الرابط بين العدو أو المستعمر وبين التصوف.

**

الشيخ حسن المشاط

مدرس في الحرم، أحد علماء مكة، له شرح مختصر على البيقونية منتشر بين مبتدئي طلاب العلم، مع أن علمه وشهرته في شتى الفنون.

درس ألفية ابن مالك ثمان مرات في الحرم. وانظر إذا كان تدريسه لألفية ابن مالك تكرر ثمان مرات، فماذا، أو كم درّس باقي الكتب أو باقي الفنون؟!

(١) : ملوك العرب لأمين الريحاني (١/ ٥٩)

إذا كانت الألفية تُدرس بهذا القدر، بل درّس الكتب الستة في الحرم وتولى القضاء في مكة، وحكم بقضية ونُقضت من بعض القضاة في مكة وأُحيلت عل الشيخ محمد بن إبراهيم –رحمه الله– فأقره.

ولا يسمح للطالب في حلقته أن يتكلم إلا بالفصحى، وله أسانيد عدة وشيوخ؛ لأنه سافر لأكثر من بلد.

عينه الملك عبد العزيز –رحمه الله– عضواً في هيئة تمييز الأحكام في بدايات القضاء، لكن لمّا عينه قاضياً هرب من القضاء، فذهب للسودان، ثم مصر، ثم فلسطين، ثم رجع لمكة، فكان نائباً لرئيس المحكمة إدارياً، ولم يرض بالقضاء. وهذا ما وقفت عليه من أخبار الشيخ حسن المشاط.

**

الشيخ محمد نصيف

هو العالم الوجيه محمد نصيف، بيته موئل ومرجع لكل قادم إلى جدة، والذي لفت انتباه علي الطنطاوي –رحمهما الله–، الطنطاوي الذي لا يمدح أي شخص، فإذا مدح فهو ميزان دقيق في المدح، ولا يستغرب من أي مظاهر في الحياة، وقد لقي الكثير وانتقل بين عدة بلاد، وشاهد عدداً من العلماء، فلا يلفت انتباهه أي شخص. ولد سنة ١٣٠٢ هـ، وتوفي ١٣٩١ هـ.

اجتمع هذا الرجل – محمد نصيف – والملك عبد العزيز –رحمهما الله– بأعيان جدة؛ لأنه وجيه، وملك الحجاز الذي لم يُتوج. كما يسميه محمد رشيد رضا.

فإذا كان محمد رشيد رضا يقول عنه هذا الكلام ، وتقي الدين الهلالي يمتدحه، وعلي الطنطاوي يعجب به. فكيف يكون حال هذا الرجل؟

اجتمع به الملك عبد العزيز وجمع له أعيان جدة أو أعيان الحجاز لأخذ البيعة عليهم.

مكتبته فيها أكثر من ستة آلاف مُجلد، قال عنه علي الطنطاوي: (من زار جدة ولم يزر الشيخ نصيف فما زارها، سرقت المعنى من قول ذي الرمة:

تمام الحج أن تقف المطايا ... على خرقاء واضعة اللثام

لقد كانت داره أكبر (أو من أكبر) الدور في جدة، وكان هو أوجه (أو من أوجه) أهلها) .
وأكبر مكتبة رآها الطنطاوي مكتبة محمد نصيف، يقول: (كانت في داره مكتبة من أكبر ما عرفت من المكتبات الخاصة). وقال: (إن سيرته تاريخ لهذا البلد) [1].

قال عنه الشيخ محمد بن مانع: (لا أعرف رجلاً يساويه في الكرم وحُسن الخُلق).
محمد نصيف تأثر بالتلمساني، والتلمساني تأثر بالشيخ أحمد بن عيسى، فطبع كثيراً من الكتب ووزعها على أكثر مكتبات العلماء في العالم .

قال عنه الشيخ محمد بن إبراهيم: جبل علم، جبل علم يُخيف كل من حوله. الكلمة هذه تعتبر من محمد بن إبراهيم وهو الذي يخبُر الرجال، وتعتبر كلمة فيها تفخيم لهذا الرجل. جبل علم يُخيف كل من حوله. وقلما يوجد عالم إلا وصله بهدية أو كتاب أو دخل بيته، أو سمع عنه الكرم وحُسن الخلق.

غالباً لا يدخل عليه أحد إلا و يجده يقرأ في كتاب، ولا يخرج كتاب في السير والطبقات إلا واشتراه مهما ارتفع. وحبه للكتب منذ الصغر، أرسله والده أو جده لشراء أمةٍ في جدة، فلما ذهب لسوق الإماء والموالي شاهد معاملة امرأة لمولاتها التي ستبيعها في السوق، تشتد عليها وتهينها فتألم وهو صغير فترك شراء الأمة وذهب لمبسط فيه كتب فاشترى كتاباً ورجع لبيته و شكره والده أو جده، هذا من الصغر.

(١) : الذكريات لعلي الطنطاوي. (٣/ ١٢٧)

وبعدما صار تاجراً وجيهاً عالماً، كان أحياناً يرسل خادمه لإحضار كتاب ويحدد له موضع الكتاب وموضع المسألة في محلها، فيخرج له المسألة كما قال.

ولما ذهب للعلاج في لندن في آخر حياته كان يزور المرضى من معارفه، رغم تعبه آخر حياته وثقل مشيه. ومرضه في ركبتيه، لكنه كان يسير بنظام مستمر في استقباله الناس وكرمه، وزيارته للناس حتى في لندن.

طيب الخلق، حسن الابتسامة، كل من لقيه يذكر عنه ذلك، حتى أن له صورة مع الملك سعود متكئ على عصا والملك سعود بجانبه وهو أكبر من الملك سعود وهو بجانبه ويبتسمان، يظهر أن بينهما حديث باسم؛ ذلك أنه مذكور عنه حسن الخلق والابتسامة، حتى وهو مريض يدخل السرور على من يزوره. ولما ثقل جداً في آخر حياته، كان لا يُصلي إلا واقفاً.

قال تقي الدين الهلالي: مناقبه لا يفي بها إلا مؤلف خاص، وقد طفت كثيراً من العالم فما رأيت أحداً – مع أن تقي الدين الهلالي يعرف أربع لغات: ألمانية، فرنسية، أردية، والفارسية. أربع لغات أو خمس، و هو عالم في الحديث، وطوَّف البلاد، حتى قال: حتى القطب الشمالي ذهبت إليه. - فما رأيت عالماً كمحمد نصيف، وما رأيت أحداً من العلماء والوجهاء أوتي من خدمة العلم والكرم والضيافة ما يوجد عند محمد نصيف -رحمه الله - .

**

الشيخ عبد الحق الهاشمي

ابنه الشيخ عبد الوكيل الهاشمي المُسند المُحدِث الموجود في مكة. وكذلك ابنه أبو تراب الظاهري من أهل اللغة والبلاغة، ومحبي كتب الأدب يعرفون من أبو تراب الظاهري، وله برامج إذاعية معلومة.

الشيخ عبد الحق الهاشمي ولد ١٣٠٢ هـ، وتوفي ١٣٩٤ هـ ، وهو من علماء الهند. يرجع نسبه إلى آل البيت.

منذ الصغر وهو يكره علم المنطق والفلسفة، ويحب الفقه والحديث والتفسير، وترك التقليد، فصار من دعاة مذهب السلف في شبابه في الهند، حتى اشتد عليه أيضاً المبتدعة، وكان في شبابه في الهند يدرس في أحد المعاهد الشرعية أكثر من عشر ساعات شبه متواصلة، وعُيّن قاضياً في بلده، ثم صار رئيساً أو مديراً لرئاسة علماء الهند، وكانت له مناظرات. كل هذا في الهند قبل أن يأتي لمكة.

أسلم على يديه عدد كبير، وكان يأتي لمكة أيام الأشراف، ولما تولى الملك عبد العزيز أتى إليه مع بعض العلماء وبايع الملك عبد العزيز، ثم لما سمعت به الحكومة الهندية منعوه من الرجوع للبلد، فكان خيراً للشيخ أن استمر أكثر من عشرين سنة مدرساً للحرم، ولم يرجع لبلده.

له شرح تراجم البُخاري، وله تعليق أو شرح على الصحيحين والمسند، ومؤلفاته أكثر من أربعين كتاباً، لم يطبع أكثرها.

مؤلفات الشيخ يذكر عنها الجودة، وقد رأيت له مطبوعاً حول تراجم أو شرح بعض أبواب البخاري، أسس دار الحديث بالهند، و تخرج من عنده طلاب كثر، وهجره بعض أقرانه بسبب محاربته للتقليد، وهو من أعلى المسندين في الحديث.

**

الشيخ محمد بن مانع

من علماء مكة، وإن كان تلقى و درس في أكثر من بلد، لكن أنا أذكر أنه في مكة؛ لأنه درس في الحرم. الشيخ محمد بن مانع ولد عام ١٣٠٠ هـ وتوفي ١٣٨٥ هـ. من علماء عُنيزة، لكن لم يقم بها إلا قليلاً، نشأ يتيماً، قامت أمه على رعايته، وحرصت عليه وأرسلته لعلماء بُريدة، ثم بعض

علماء القصيم. ثم لما جاوز العشرين قليلاً علت همته فذهب للعراق وطلب العلم عند الألوسي وبعض العلماء في العراق، وذهب للشام وتتلمذ على الشيخ ابن بدران، ثم ذهب لمصر وتتلمذ على بعض علماء الأزهر، ودُعي للبحرين فصار مُعلماً وداعية. ثم دعاه حاكم قطر فأقام فيها أربعاً وعشرين سنة قاضياً ومفتياً، وانشأ مدرسةً أو معهداً دينياً تخرج به الشيخ ابن محمود من علماء قطر - . وكان الشيخ عبدالرحمن بن سعدي يستفيد منه إذا جاء إلى القصيم - .

ثم لما رجع الشيخ ابن مانع للمملكة من قطر في زيارة للملك عبد العزيز، تمسك به وجعله رئيسًا لهيئة تمييز القضايا ومدرساً في الحرم ورئيس هيئة مكة ورئيس الوعظ والإرشاد الديني في الحرم، ثم مشرفاً على دار التوحيد التي تخرج منها كبار العلماء وكانت في الطائف. وهي مدرسة ما زالت موجودة وقد رأيتها بعدما رُممت وجُددت، هي موجودة بجانب جامع الملك فؤاد، كانت قد خرّجت عدداً من العلماء، وهو مشرف عليها.

كل هذه الولايات تولاها ثم صار مديراً للمعارف، واستقطب عدداً من المدرسين للتدريس لدار التوحيد و للمعارف، و هو أول من بدأ بالمناهج الدراسية، وصار مشرفاً في نفس الوقت على طباعة الكتب في قطر، وحقق عدداً من الكتب واختصرها، ومازالت تطبع الكتب في قطر بعمل من جدهم مؤسس قطر.

لما جاوز الشيخ محمد بن مانع الثمانين كان يذهب إلى المسجد متكئاً على عصا، وربما سقط وهو يُصلي أكثر من مرة، ولا يترك الجماعة.

ارتحل لعدة بلاد كما سبق، ومن محبة أحد مشايخه في العراق أنه لما أراد أن يودعه أيام الشباب وهو يطلب العلم قال: إني ليُحزنني أن تذهبوا به. وذلك لما أراد أن يمشي مع القافلة، ودّعه بهذه الكلمات. فيُعرف منه النجابة والعلم والزكاة من أيام شبابه، وله مؤلفات وتحقيقات.

**

الشيخ عبد الرحمن المُعلمي

يُسمى ذهبي العصر؛ لمعرفته بالحديث. ويكفي أنه عندما كان دون الثلاثين كان في اليمن يُسمى شيخ الإسلام. وليست من الألقاب التي يقولها الناس تساهلاً، فلان حافظ الكتب الستة، فلان شيخ الإسلام، فقد قيلت له وهو قاضي دون الثلاثين، بل في بداية العشرين. لن أتكلم عنه إلا في موقف:

لما انتقل من اليمن إلى جيزان ثم إلى الهند مصححًا للكتب ومؤلفاً، جاء إلى مكة فصار أميناً لمكتبة الحرم، فهو المسئول عن مكتبة الحرم، يدقق و يُصحح في الكتب، ويخرج التحقيقات ويرد على المبتدعة، ويخدم ضيوف المكتبة. كل من قدم للمكتبة يعمل لهم الشاي ويضعه عندهم، ولا يأنف من ذلك.

جاء الشيخ أحمد شاكر أبو الأشبال المحدث المصري إلى مكتبة الحرم لمقابلة هذا الضخم العلم عبد الرحمن بن يحي المعلمي، يسمع عنه و يقرأ مؤلفاته، ويريد أن يقابله، فلما جلس أتى له بكأس من الشاي، وذهب المعلمي يخدم أحمد شاكر، وضع له الشاي ومضى. ثم سأل عنه لأنه لم يعرفه وليس عليه أُبهة العلم بلباس يختلف عن الناس، وإنما أمين مكتبة الحرم، فقالوا: هذا الذي خدمك هو عبد الرحمن المعلمي، فبكى.

هذه من مواقف أحمد شاكر مع المعلمي، رحم الله الجميع.

**

الشيخ محمد المُختار الشنقيطي

شخصية من علماء المدينة، والد الواعظ العالم الفقيه عضو هيئة كبار العلماء محمد المختار الشنقيطي ابن محمد المُختار، وأنا أعنى هنا الوالد. كان قد درس في الجامعة الإسلامية، ودرس في الحرم، وابنه مثله.

الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي – الشيخ الموجود الآن – تكلم عن والده في بعض المناسبات، فمما قاله عن والده: أنه لما كان في زمن طلب العلم كان يتنقل بين علماء بلده في شنقيط حتى قطع أكثر من ألف كيلو متر ليس معه إلا الكتب. ولما وصل للمدينة أول ما وصل ذهب إلى مكة حاجاً ماشياً، جاء لهذه البلاد وهو عالم حافظ ومع مجيئه لازم العلماء في الحرمين وتلقى عنهم وتتلمذ، فالتواضع الذي يوجد عند الشيخ محمد بن محمد المختار – حفظه الله – تواضع مثل والده الشيخ محمد المختار – رحمه الله- ، وإن كان الأولى أن لا نذكر الأحياء، لكن لزاماً باعتبار الحديث عن الوالد.

فيذكر الشيخ محمد المختار – حفظه الله – عن نفسه أنها كانت تمر المسألة أحياناً ويعرف الجواب، يقول: وأستظهر الكلام نقلاً عن العلماء، لكن لا أتكلم وفي المجلس من العلماء من هم، احتراماً لهم. فباحترام الشيخ لمشايخه وأقرانه وحسن أدبه صار طلابه ومن تأثر به يُعرفون بين الطلاب في المدينة من غيرهم، فوالده لازم علماء الحرمين وأخذ عنهم العلم والإجازات في الحديث، ثم انتقل إلى الرياض وتتلمذ على الشيخ محمد بن إبراهيم، ثم رُشِح للتدريس في المعهد العلمي، والمعهد العلمي في ذلك الوقت يُعد بمرتبة الجامعات؛ لأن فيه عدداً من الطلاب المتميزين، ومازال، ولكن في زمن الشيخ ابن إبراهيم كان أقوى، ومناهج خاصة، وعلماء متخصصين، ثم درّس في الحرم آخر عمره، وكان له بعد كل فرض درس لا ينقطع، وهو موسوعة في كل فن، ولا يقل علماً عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - صاحب أضواء البيان – لكن الشهرة صارت للأمين. وقته خلال اليوم كما يقول عنه ابنه الشيخ محمد: يقوم الليل ولا يتركه أبدًا. و إذا سمع الآذان الأول بعد قيام الليل، يقوم الليل ثم يحين الآذان الأول، و ذلك في الحرم قبل ساعة من وقت الفجر، فيبدأ بقراءة تفسير الطبري والقرطبي إلى الآذان الثاني، و إذا سمع الأذان الثاني نزل إلى الحرم ذاكرًا لله -عز وجل- مستغفراً ولا يكلمه أحد.

يذهب كل يوم مرتين لمزرعته ويذهب للتدريس في الجامعة الإسلامية، ولا يُخالط الناس، وربما لا يعرف بين الناس لعدم حبه للمخالطة.

أصيب بحساسية في جلده منعه الطبيب من البعد عن التكييف، فكان لا يخرج في النهار أبدا في آخر عمره، وكان يدرس الطلاب في بيته، ويقول: والله إن قلبي يتفطر ألماً على ترك صلاة الجماعة.

لم يكن يترك التدريس، ويأتي إليه الطلاب، وقبل أذان المغرب بقليل ينزل معهم إلى الحرم ويدرس في الحرم، هذا بعد المنع من الأطباء، مثلما منع الأطباء الشيخ الألباني من القراءة فلم يمتنع، ومثل ما منع الأطباء شيخ الإسلام ابن تيميه فلم يمتنع، والشيخ عبد الرحمن الدوسري مُنع فلم يمتنع، وهكذا عدد من العلماء، والشيخ ابن عقيل منعه الأطباء وأولاده ، أو منعوا من حوله أن يُقرأ عليه شيء، فلم يمتنع. هي حياتهم في العلم، ما يتحمل أن يبقى بلا علم، لكن في رمضان يتغير برنامجه مع المنع من الأطباء، فكل الصلوات يصليها في الحرم ويدرس بعد كل فرض.

رأيت مكتبته عندما زرت الشيخ محمد المختار قبل خمس عشرة سنة تقريباً، أكرمنا جزاه الله خيراً إكراماً لا نستحقه، و قد كنا طلاباً في الجامعة، لكن لكرمه وحسن خلقه، و من دون موعد ولا ترتيب. ذهبنا إلى الشيخ فكان الغداء في مكتبة والده، رأيتها مكتبة صغيرة وقليلة، لكن يظهر أنها محفوظة، وغيرها محفوظ، والشيخ محمد المختار يعرف عنه أن كتبه ليست له، لكثرة إعارته الكتب للطلاب.

مؤلفاته أقل من علمه، فله كتابان: كتاب عن الأضاحي سؤال وجواب، وله تعليق على سنن النسائي بدأ بتأليفه، وكتب منه أربع مجلدات، ولما وصل إلى الاستغفار بعد الصلاة توقف عن التأليف. وبعدها لم تطل به الحياة فمات.

يذكر عنه ابنه الشيخ محمد أيضاً أنه حفظ من دواوين الشعر ومن الأبيات قرابة عشرة الاف بيت، وهذا ربما يكون من أقل محفوظاته.

**

الشيخ محمد بن تركي

ولد ١٣٠٠ هـ، وتوفي ١٣٨٠هـ، والشيخ محمد بن تركي، لا أعلم في المعاصرين من درس في المساجد الثلاثة غيره، درس في المسجد الأقصى، وفي الحرم المكي، والحرم النبوي.

وحُق له أن يُذكر في علماء كل بلد، فهو عالم مكي، ومدني، ومقدسي. وهو من علماء عنيزة، لكنه يبق بها كثيراً. سافر لمكة لطلب العلم، وذهب لعلماء الشام فتلقى على ابن بدران الحنبلي الفقيه، وسافر للهند للتجارة، وقرأ على علماء الهند في الحديث.

جلس للتدريس في الحرم المكي، وسافر عام ألف و ثلاثمائة وأربعين للقدس، ودرس فيه في شهر رمضان. يقول محمد أمين الحسيني، والذي ينقل عنه الطنطاوي: أنه يحفظ البخاري بالسند، ولا ينام إلا قليلا، وإذا جاءه النوم استند ونام، ثم نهض. ومحمد أمين الحسيني كان هو المشرف على الدروس في المسجد الأقصى - عجل الله فرجه ورزقنا الاعتكاف فيه -، فيقول محمد أمين الحسيني: لم يمر على هذا الكرسي بعد محمد عبده أعلم من محمد بن تركي.

ودرَّس في الحرم النبوي عام خمسين وثلاثمائة و ألف للهجرة، وهو من أقران الشيخ عبد الرحمن السعدي، فقد ولدا في العام نفسه.

لتقدم الشيخ محمد بن تركي في العلم، لم يكن يحضر مع تلاميذ السعدي، كان الشيخ السعدي يذهب لبيته ويتدارس معه بعض متون الفقه. وطلبه الشيخ محمد بن إبراهيم للتدريس، فلم يرضَ أن يدرس في المعهد العلمي في الرياض؛ لأن الذهاب في ذلك الوقت فيه شيء من المشقة، يصعب عليه ترك مكة و المدينة، كيف يترك المدينة وقد طاب له المقام بها!

فرَّق الشيخ محمد بن تركي جميع ثروته و ما يملك على تحصيل العلم و على بذله، كان في درسه يحب ذكر الألغاز العلمية و الفقهية.

في نشأته يتيماً، ذهب للتجارة لنقل البضائع، وعمره أربعة عشر عاماً بين جدة ومكة، أيام الشريف حسين في مكة، وكان له ولاية على المدينة، دعا خطيب المسجد النبوي الناس إلى طلب

الشفاعة من رسول الله ﷺ في الخطبة، وحث على شد الرحل لزيارة القبر، فقام الشيخ بعد الخطبة و كذّبه، وردَّ عليه، وقال: لم يأمر النبي ﷺ بشد الرحل، ولم يقل اطلبوا مني الشفاعة.

ذكر الأديب محمد حسين زيدان -رحمه الله- في كتابه: (رجال ومواقف) تأنقه قبل جلوسه للتدريس، فقال : (كان يتأنق ويلبس من أفخر المشالح، وكان يمر على دروس المشايخ درساً درساً، يجلس عندهم).

ذلك قبل أن يؤذن له بالتدريس؛ لأنه أتى للمدينة وهو عالم. و يقول: (لما بدأ يدرس، بدأ يلبس البشت العادي جداً، حتى أنه كان يلبس من أقل أنواع البشوت)؛ زهداً في الدنيا رحمه الله.

فدرس في المسجد النبوي، والحرام، وجلس للتدريس في المسجد النبوي عام ١٣٥٠هـ.

**

أبو بكر خوقير الكتبي

ولد سنة١٢٨٤هـ . وممن تأثر بدعوة الشيخ أحمد بن عيسى، وقد سُجن لأجل الدعوة. والشيخ أبو بكر خوقير الكتبي اتُّهم أنه سلفي، مع أن والده كان أحد أئمة الحرم، فأوذي لأجل تلك التُّهمة -رحمه الله -. ترجم له محمد رشيد رضا -رحمه الله- فقال: (هو أبو بكر بن محمد عارف بن عبد القادر بن محمد علي خوقير . من بيت علم بمكة ، ولد فيها وتفقه أولاً على مذهب الحنفية تبعًا لآبائه ، ثم إن أستاذه مفتي مكة الشيخ عبد الرحمن سراج الحنفي أشار عليه وعلى آخرين من طلبة العلم بأن يتفقهوا في المذهب الحنبلي ؛ ليكون في علماء الحجاز مَن يتولى منصب الفتوى في هذا المذهب بدلاً من علماء نجد ؛ الذين كانوا يتولونه لعدم وجود أحد من علماء الحنابلة في الحجاز ، ولم يكن هذا مما ترتاح إليه الحكومة العثمانية ولا أمراء الحجاز ، فدرس الفقيه المذهب ، وتمكن فيه وفي مذهب السلف في العقائد . وقد عُين مفتيًا للحنابلة في أول إمارة الشريف حسين بن علي ، ولم يلبث أن غضب عليه فعزله وعين بدله أحد الشافعية ، فكان لا يُفتي للحنابلة إلا بعد مراجعته والأخذ بما يرشده إليه ، وجعله الشريف حسين عضوًا في مجلس

الشيوخ ثم عزله بعد سنة لاعتراضه على خوض محرر جريدة القبلة في تفسير القرآن بغير علم ، وكان الشريف نفسه هو الذي يفسر بعض الآيات برأيه في بعض المقالات التي ينشرها في تلك الجريدة وفي بعض بلاغاته الرسمية أيضًا .

وقد امتحن وأُوذي إيذاءً شديدًا جزاءً له على إنكار البدع والخرافات ولا سيما بدع القبوريين والمتصوفين ، حُبس أولاً ثمانية عشر شهرًا ، ثم حبس ثانيًا نحوًا من سبعين شهرًا في عهد الشريف حسين ، وحبس ولده الشيخ عبد القادر في سجن القبو الذي هو شر من سجن الحجاج بن يوسف ، وقد سبق وصفه في المنار ، فمات فيه صبرًا ، وكان له ابن صغير فمات كمدًا وقهرًا ، وخرج الشيخ من سجنه لا مال له ، وإنما كان يصيبه قليل من أوقاف الحرمين التي تأتي من الآستانة ومصر والشام والعراق . وكان قد اعتاد الاتِّجار بالكتب منذ عزله الشريف عون الرفيق من وظائف الحرم الشريف ؛ إذ كان غضب على الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي مكة ورئيس العلماء فيها فعزله وعزل جميع رجاله من المفتين والمدرسين . وكان للفقيد منها إفتاء الحنابلة وإمامة الصلاة في مقام الحنابلة كما كان مدرسًا .

وكان يدعو للشريف عون بالرحمة لإلجائه إلى تجارة الكتب التي تعينه على العلم ، فكان يذهب إلى الهند يحمل إليها من مطبوعات مصر ومكة ويعود منها ببعض مطبوعاتها إلى مكة ، وقد جلست إليه في مكتبته في باب السلام غير مرة ، وكان مهذبًا رقيق الطبع حسن المعاشرة على شدته في دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، حتى أن مجلسه لا يخلو من دعابة ما في المفاكهة ، ونكت أدبية وتاريخية).

وله مصنَّفات نافعة منها :

(فصل المقال وإرشاد الضال في توسل الجهال): طبع في مطبعة المنار بمصر .

(مسامرة الضيف في رحلة الشتاء والصيف): طبع في بيروت .

(ما لا بد منه في أمور الدين): طبع في مصر .

(حسن الاتصال بفصل المقال في الرد على با بُصيل وكمال)

(السجن والمسجونون)

(ما لا غنى عنه شرح ما لا بد منه)

(التحقيق في الطريق): في نقد الطرق المتصوفة .

وهذه المصنفات لم تطبع وهي جديرة بالطبع . وكان يقرأ لطائفة من الطلاب دروسًا في العلوم الدينية والتاريخية وغيرها في بيته بعضها بالنهار وبعضها بالليل ، وهو لم يتعرّف إلى الملك عبد العزيز آل سعود، ولم يطلب منه مساعدة ولا وظيفة على كونه أكبر علماء السلفيين، وفقهاء الحنابلة في الحجاز ، ولكن دلَّه عليه بعض العارفين بقدره فجعله مدرسًا في الحرم الشريف قبل وفاته بسنة .

توفاه الله تعالى في بلدة الطائف مصطاف الحجاز في يوم الجمعة غرة ربيع الأول من عام ١٣٤٩هـ بمرض الزحار عن عمر ناهز السبعين رحمه الله تعالى .

**

عبيد الله الأفغاني

هو عبيد الله بن عطا بن محمد الأفغاني أصلاً، من مواليد ١٣٥١هـ بمنطقة (كوهستان) شمال (كابل). توفي قريباً، وهو من القُراء، من علماء المدينة، وله سيرة لطيفة وشيقة.

أتى ماشياً مهاجراً من أفغانستان إلى المملكة مشياً، مروراً بإيران، ثم العراق، فالخليج، ثم مكة.

عمل عشرين سنة خياطاً في الرياض، ولا يعرف للأسف. وقد يوجد في بعض البلاد علماء أكابر وحفاظ، لكن لم يأتوا لبلادنا، وهذه دعوة لبعض الناس أن يبحثوا عن هؤلاء المميزين والمبدعين ممن أتوا بفيزا عامل، لكنه من الحفاظ.

فالشيخ كان خياطًا عشرين سنة، ثم تيسر له العمل مدرساً للقرآن، لا إجازات، أو قراءات، مع أنه أتى من بلده عاملاً.

فكان يذهب لأبها في الصيف، يقرأ عليه صغار الطلاب، حتى عرفه بعض المشايخ وقرأوا عليه، ثم اشتهر أمره رحمه الله، وأتى للمسجد النبوي في آخر حياته للجامعة الإسلامية، وكان على كبر سنه في آخر وقته.

وهو من علماء المدينة بلا شك، يغني ذكره هنا عن ما سنتطرق إليه من علماء المدينة لاحقاً.

يقول الدكتور محمد الحازمي: (كنت أقرأ عليه رحمه الله في سورة آل عمران فلما وصلت آية " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " .

قال لي رحمه الله حسبك قف : أتعلم أن لي مع هذه الآية قصة وأنها غيرت مجرى حياتي . ثم بدأ يسرد لي قصته كيف كان متردداً حتى مر على هذه الآية وكيف كانت رحلته شاقة وكيف ركب البحر وأين نزل أول ما نزل في السعودية يقول رحمه الله وصلت بعد رحلة البر والبحر إلى اليمن ومن اليمن توجهت شمالاً حتى دخلت إلى سامطة في جازان فقصدت مسجدها فإذا بي أجد طلاباً متحلقين بعد الفجر يدرسهم القرآن الكريم الشيخ الجليل العلامة حافظ بن أحمد الحكمي يقول فجلست داخل الحلقة فما وصل الدور إليّ قرأت نصيبي من القرآن فما كان من الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله إلا أن قام من مجلسه وأجلسني مكانه وقال لا مُقام لي بوجودك درسهم أنت وأنا اشتغل بأمر آخر يقول رحمه الله فبقيت حوالي شهراً في تلك الأجواء الإيمانية الرائعة ثم لم يناسبني الجو في تهامة).

وانتقل بعدها إلى أبها، حيث ناسبه مناخها البارد. لازم فيها عالم أبها الشيخ عبدالله بن يوسف الوابل –رحمه الله-. ويضيف الدكتور الحازمي مخبراً عن الشيخ عبيدالله: (وقدر الله للملك خالد رحمه الله زيارة أبها عام ١٣٩٦هـ يقول وكان الملك خالد رحمه الله محباً للعلماء فلازم الشيخ العلامة الوابل في تلك الزيارة وفي أثناء جلوسهما متجاورين طلب الشيخ الوابل من الملك خالد أن يعطيني الجنسية يقول وعلى الفور مال الملك خالد إلى وزيره سمو الأمير نايف فكلفه بالأمر

وفي خلال أيام كانت الجنسية قد منحت لي . يقول: فعدت إلى أهلي بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة فوصلتهم في أفغانستان وبقيت معهم أياماً).

ويقول: (قابل شيخنا الأفغاني يوماً أحدُ طلابه الصالحين نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً فقال له يا شيخ ، رأيت البارحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام - فقال أتعرف الشيخ الأفغاني فقلت نعم فقال الرسول صل الله عليه وآله وسلم للطالب الصالح في المنام أخبره أنه من خير من يمشي على الأرض فذهب التلميذ للشيخ الأفغاني وأخبره بالرؤيا فاغرورقت عيناه بالدموع وبكى بكاء حاراً ولم يزد على أن صلى على الرسول صل الله عليه وآله وسلم واستمر في نهجه).

يخبرني من حضر محاضرة للشيخ سعيد بن مسفر في مسجد الخيف في الحج، فيقول: كنا في أثناء المحاضرة، فكان من بين الحضور شخص ناداه الشيخ: تعال يا شيخ، فلما قرب من الشيخ قبل رأسه، وأجلسه بجانبه، وقال: هذا شيخي الشيخ عبيد الله الأفغاني.

فالشيخ عبيد الله رحمه الله بقي في المدينة رغبة فيها، لا عنها ، ودرس القرآن، وجميع وقته مستوعب لتدريس القرآن في مسجده مسجد أبي بكر الصديق، وفي المسجد النبوي. و لما بدأ بالتدريس، قالوا: يا شيخ، لو أنك تبحث عن موافقة أو إذن، فدرّس حتى مُنع.

وكان قد رأى رؤيا: أنه يريد أن يدخل المسجد النبوي، فرأى فيه شخص من أصحابه في أفغانستان لما كان شاباً، أنه يريد دخول المسجد النبوي، وأن رجال الأمن يمنعونه، فعبرت له في وقتها أنها خير إن شاء الله.

فلما جاء ودرس منع، فأحد تلاميذه في أبها، وسمّاه، وهو من المسئولين في الجامعة الإسلامية عرّف به الشيخ علي الحذيفي حفظه الله، فقال: يا شيخ، هذا أحد العلماء بين أيدينا، وعنده إجازات، قال: نتواعد مع الشيخ، ونلتقي بالشيخ عبد العزيز الفالح، فذهبوا إليه. فلما رأى بعض إجازاته وبعض أوراقه قال: خلاص، هذا الشخص لا يُمنع أبداً، فدرّس رحمه الله .

ومن حضر عند الشيخ وأدركه، وجد فيه طرفة ودعابة، وتعليق على الطلاب، وكان في أبها يحجز الطلاب عنده، كما أخبرني من قرأ عليه، يحجزون عنده قبل الفجر بساعتين؛ لأنه من لم يأتِ مبكراً للقراءة يفوته، و ربما يأتي موعد العمل، وينتصف الصباح، وهو لم يدرك دوره.

توفي -رحمه الله- في مدينة رسول الله ﷺ ليلة الأربعاء الخامس من محرم سنة ١٤٣٢هـ.

***

باب
محاربة أهل البدع لعلماء السنة

الشيخ محمد نصيف: كُذِب عليه فنُقل وسُجن بقبرص، وشفع له بعض الوجهاء والمحسنين، وإلا قُتل بسبب كذبات من بعض الصوفية وأهل البدع على هؤلاء المساكين السلفية، الذين يُكذب عليهم، يُقاتلون ويُقتَلون ويُكَفَّرون. ولو جمعت التاريخ المُعاصر لوجدت الكثير من هذا، وبالمقابل إذا صار لهم الغلبة والنصرة ولله الحمد لا أعرف أحداً منهم تسلط على هؤلاء المبتدعة، بل كان الشيخ عبدالقادر بن بدران يتألم ويكتب للشيخ عبد الله بن خلف الدحيان من علماء الكويت، فيقول: والذي دل الفرنسيين على عوراتنا في بلاد الشام ودخلوا بيوتنا وانتهكوا الأعراض، الذين دلوهم هم عُباد القبور.

كذلك الشيخ جمال الدين القاسمي: يقول الشيخ على الطنطاوي عنه: (اجتمع بعض علماء المذاهب المتعصبة فاستتابوه، واستكتبوه تعهداً أن لا تفتي بالكتاب والسُنة، أي على جمال الدين القاسمي، فلا تستغرب من شدتهم على الشيخ الألباني وعدد من العلماء في كل بلد، فهذه بضاعتهم، هذه طريقتهم، لا يستطيعون أن يقابلون الحجة.

***

فصل

أعلام المدينة المعاصرين خلال مائة عام

تمهيد

هذا ذِكرٌ لبعض الأعلام والمعالم في هذا البلد المبارك، الذي شرفه الله ﷻ، وجعله بعد مكة في الشرف، ولا يخفى تفضيل الإمام مالك للمدينة على مكة، وإن كان جمهور أهل العلم يفضلون مكة على المدينة، إلا أن لهذه المدينة المباركة فضائل، وبركات وخيرات، وما أكثر الفضائل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفي السنة النبوية بالتحديد لهذه البلدة المباركة.

ومما يتمثل به من الأبيات المتعلقة بالراحة والطمأنينة والسكينة في هذه البلدة الطيبة:

جاشت النفس بالهموم و لكن سكنت عندما وردنا المدينة

كيف لا تسكن النفس ارتياحاً عند من أنزلت عليه السكينة(١)

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد و آله وصحبه وسلم.

كم ضمت هذه البلدة الطيبة المباركة من علماء، وأدباء، ومثقفين، وتجار صالحين، ومن زهَّاد، وعبَّاد. وكم من أئمة ومدرسين في الحرم، ومكتبات ومجالس، ومتفرقات خلال المائة عام الأخيرة.

وهذا من باب الوفاء لهؤلاء الرجال الأعلام الذين انتفعنا بهم، ووصلنا الخير من طريقهم.

---

(١) : الأبيات للشاعر السيد رضا اللكهنوئي الهندي، توفي ١٣٦٢هـ.

سبقونا للعلم، ونشر الإسلام والدعوة.

ومن الناس من لا يتأثر بالأوامر والنواهي عموماً، لكنه إذا ذكر له الموقف عن أشخاص وشخصيات قد عرفهم، أو صلى خلفهم، أو حضر دروسهم، يكون تأثير ذلك أبلغ.

نتحدث عن المائة عام الأخيرة؛ لأن أكثر تراجم العلماء ترجمت للسابقين، وإن شئت فانظر إلى الكامل لابن الأثير، المنتظم لابن الجوزي، البداية والنهاية لابن كثير، سير أعلام النبلاء، معرفة القراء الكبار، تذكرة الحفاظ للذهبي، شذرات الذهب لابن العماد ، وغيرها من الكتب، هؤلاء ترجموا لمن قبلنا، لكن بالنسبة لمن كانوا في زمننا ربما تكون التراجم قليلة، ونحن بحاجة لبعض هذه القصص من باب التربية؛ لأن التربية بالقدوة مهمة، وبحاجة لقدوات معاصرة أيضاً.

***

باب
لماذا أعلام المدينة؟

لأن هذه البلدة هي محط أنظار المسلمين بعد مكة، ولكثرة الوافدين عليها، ووجود المذاهب الأربعة، والجنسيات المختلفة، ولأن الله تعالى جمع عدداً من الناس من مختلف الأقطار والبلدان، والألوان والأجناس، اجتمعوا في هذه البلدة الطيبة المباركة، ربما يبقى فيها الشخص لا يغادرها، ويطلب العلم فيها وقتاً طويلاً.

ونتطرق إلى كل من تولَّى، أو دخل في شرط من تولَّى الإمامة في المسجد النبوي، أو درَّس في المسجد النبوي، ولو كان من غير أهلها، وما أكثرهم.

وبعض الناس يظن خطأً أن المذهب أحادي، لا يلقى إلا مذهب الحنابلة في مكة والمدينة، بل إن المذاهب الأربعة وأقوال العلماء موجودة، وحتى من غير أهل هذه البلاد. علماء من عدة بلاد يدرِّسون في المسجدين الشريفين.

فكل من تولى الإمامة، أو التدريس الطويل، أو خرج الطلاب، أو كان له أمر مهم من تجارة، أو وقف، وله أثر بالغ في هذه البلدة الطيبة، فهذا يدعونا أن نذكرهم و ننشر علمهم.

***

باب
ماذا قالوا عن المدينة المنورة وعلمائها

للشيخ محمد بن ناصر العبودي رحلة كتبها من بريدة إلى المدينة قبل ستين عاماً. جاء فيها: أنهم لما زاروا الشيخ عبد الرحمن السعدي، وأفطروا معه في رمضان، ثم أقبل على المدينة، قال : لقد انتابني شعور عجيب.

وذلك عندما قال لهم السائق: الآن قدمنا، هذه جبال المدينة. يقول: شعور أول مرة يمر عليّ. وكان هذا عام ١٣٧٢ هـ. ولفت انتباه الشيخ العبودي عدة أمور في هذه الرحلة منها: نظافة المدينة وطرقاتها عام ١٣٧١ هـ مقارنة بنجد.

كذلك يقول: اعتناء المشايخ بلباسهم، وأنهم يهتمون بالدنيا، ويعرفون الواقع. ويظهر أن هذا بسبب اختلاطهم بباقي أهل البلدان القادمين إلى المدينة.

ثم يقول: أنهم يستمعون إلى الراديو، ويعرفون الواقع، ويثني على الشيخين إمامي المسجد النبوي: الشيخ عبد الله بن محمد بن زاحم، والشيخ عبد العزيز بن صالح-رحمهما الله-، فيقول: حمدت الله تعالى أن الله تعالى رزق المسجد النبوي مثل هذين العلمين. وله كتاب خاص بسيرة الشيخ عبد العزيز بن صالح –رحمه الله-.

كذلك ذكر الشعور بالطمأنينة العجيبة في المدينة، وقد كرر هذا الشعور في أكثر من موضع من كتابه.

قال: وأهل المدينة أخلاقهم سهلة لينة. هكذا قال الشيخ، ولم يقل ذلك وهو بين أهل المدينة، إنما رقمَ ذلك في كتابٍ أَلَّفه من باب الذكريات التي كان قد جمعها، وأخرج الكتاب سنة ١٤٣٠هـ .

والواقع شهد بذلك، وألسنتهم عفيفة لا تسمع السب والشتم، وكان قد أتى الشيخ في العشر الأواخر، أدرك تقريباً آخر خمسة أيام من رمضان، ثم ذكر العجب لليلة ختم القرآن بصوت

الشيخ عبدالعزيز بن صالح، يقول: فما سمعنا إلا باكياً، وأناس لهم نحيب بفراق رمضان، وبختمة الشيخ ابن صالح رحمه الله.

ثم تكلم عن خطبة العيد للشيخ ابن صالح، قال: أنه يقول: الله أكبر، الله أكبر، هي عبارات نطقها، لكن ينطقها الشيخ وتخرج منه، أبْكى الناسَ بها.

ومن أدرك خطب الشيخ -رحمه الله- علم ذلك، أنا صليت معه مرة واحدة لما كنت صغيراً، وخطب الشيخ موجودة، وإن كان بعض الناس قد يقول عن الشيخ بن صالح من ناحية صفاء صوته وحُسنه وتأثر العلماء به، قد أثنى عليه الشيخ عبد الفتاح قارئ، والد الشيخ عبد العزيز، أثنى عليه الشيخ عبد الفتاح القاضي، أثنى عليه الشيخ علي الطنطاوي، الشيخ علي الطنطاوي دقيق جدًا في مدح الرجال ونقضهم، وعدد من أهل العلم أثنوا على الشيخ بن صالح، لكن لا نحكم على الشيخ في آخر عمره لما جاوز السبعين، نتكلم عن الشيخ في أيام شبابه، كما أثنى الشيخ العبودي على عدد من أهل العلم منهم: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز لما كان يتلو القرآن، أو لما كان إماماً في الجامع الكبير في الرياض، والشيخ مجاز بالقراءات، أو بقراءة حفص أعني الشيخ ابن باز – رحم الله الجميع -.

لانحكم على الشيخ ابن صالح آخر عمره، وإن كانت العبرة ليست بنقص البدايات، إنما بكمال النهايات.

مروا على بئر قرب أحد وهي منذ زمن معاوية رضي الله عنه، يؤخذ منها الماء ولا ينقطع، لكنها انقطعت الآن ، كما يقول الشيخ: أدركنا أيضاً آباراً قد انقطعت، وتكلم عن بعض الأماكن، فيقول: كيف الآن الشعراء يتغزلون بمثل هذه المواضع التي ليس فيها إلا حجارة سود. وقد تكرر هذا الأمر عند المؤرخين.

يقول: فالله أعلم، أن المدينة كما هو معلوم، ووادي العقيق، مشهور بقصر عروة، وكان الناس يخرجون إليه منتجعاً شتائياً و ربيعياً. ومن جاء للمدينة يخرج إليه، فالظاهر أنها مرت على المدينة فترة مليئة بالزروع و الثمار، حتى أن الحافظ ابن حجر في الفتح يقول: جلس أبو محمد الجويني، والد أبو المعالي الجويني صاحب الورقات، جلس مع أمير المدينة فتذاكروا – هذا عام ٥٠٠ هـ ،

أو ربما قبل- يقول: فتذاكروا أمور المدينة فعدوا خمسين نوعاً من تمور المدينة.

ثم تحدث الشيخ عن توليه نيابة رئيس الجامعة، والخطط الدعوية والعلمية التي وضعت لإرسال البعثات الدعوية، واستقطاب الطلاب من هناك، فالشيخ محمد بن ناصر العبودي هو من وضع الخطط، وسافر على رأس البعثة، فاختار معه الشيخين أبو بكر الجزائري وعمر فلاته.

لما عادوا من رحلتهم جمع التقرير اليومي في ملف، وقدمه للشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-، ذلك أن الشيخ قرر انتداب خمسين عضواً من الدعاة على نفقة الجامعة، وهذه بعض الأمور المتعلقة برحلة الشيخ.

***

باب
مكتبات علماء المدينة المنورة

هذه البلدة المباركة فيها عدد من المكتبات يعرفها قاصدي العلم، وحتى غير قاصدي العلم. فالمدينة مشهورة بمكتباتها القديمة.

فمن المكتبات القديمة: مكتبة عارف حكمت، والمحمودية، ومكتبة الفاروقي. هذه التي في زمن ليس بالبعيد، وإن كان أقدمها عارف حكمت، هو من آل البيت، من تركيا، وكان قاضياً في بيت المقدس، وفي مصر، والمدينة، وكانت له خزانة كبيرة، فحولها إلى مكتبة، وكانت إلى وقت ليس بالبعيد موجودة، فضمت هذه المكتبات جميعاً الآن إلى مكتبة الملك عبد العزيز. والآن بعد إقرار الإزالة، كان من ضمن الإزالة هذه المكتبة، فجمعت هذه المكتبات في كراتين، ونقلت إلى

المستودعات. نوادر ومخطوطات، وشيء ربما لا يوجد متاحاً، بل يوجد مكتبات، أو كتب ومخطوطات ونوادر يذكرها بعض الباحثين لا توجد إلا في مكتبة المسجد النبوي، وهي بلا شك مهمة، وعمدة في المكتبات العالمية ؛ لكثرة الإهداءات الواردة إليها.

فكتب لا توجد إلا في المدينة، ولكن هذا حال التعامل مع الكتب. فوضعت هذه النوادر في كراتين حتى تنقل للمقر الجديد ، نسأل الله أن يعجل به.

***

باب
جهود المصلحين في المدينة

من الجهود في المدينة إزالة النخلة، و البئر، وكانا في الحصوة في المسجد النبوي؛ لأن الناس كانوا يتبركون بالبئر، ويتمسحون بالنخلة.

فالشيخ تقي الدين الهلالي المغربي لما جاء مشرفاً على الدروس في المسجد النبوي، ومدرساً في الجامعة الإسلامية، طلب من أمير المدينة أن يزيل هذه النخلة والبئر، فأزيلت، وهذه من الجهود.

***

باب
الجامعة الإسلامية

بدأت عام ١٣٨٢هـ، الأصل الحديث عن المكتبات، لكن حتى نعرف الارتباط الوثيق بين المكتبات والعلماء، بين الجامعات والعلماء، بين المجالس والمنتديات، والمجالس الثقافية والعلماء.

فتولى رئاسة الجامعة الشيخ ابن باز، والرئيس الشرفي من غير حضور الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمهما الله-.

أسست في وقت ابن ابراهيم، والرئيس الفعلي لها الشيخ ابن باز، وتم الافتتاح، ورئيسها الشيخ ابن باز منذ عام ١٣٨١هـ، حتى انتقل منها ١٣٩٥ هـ، واستقطب لها عدة علماء من شتى البلاد، ولم يقتصر أبداً على علماء نجد، ولا الحنابلة، ولا معارفه وطلابه، بل كان الشيخ ابن زاحم، والشيخ ابن باز يكتب لهم الملك سعود -رحم الله الجميع-، والملك سعود يحب الشناقطة جداً، يقول: إذا رأيتم أحد علماء الشناقطة جاء ابحثوا عنهم في المدينة، إذا جاء فأكرموه، وأجلسوه، واجعلوه يدرس. هذا في زمن الملك سعود، وهذه الحمد لله وصية عدد من الأمراء، وطريقة العلماء.

والشيخ ابن إبراهيم كان يعرف بالإكرام البالغ للعلماء، والشيخ ابن باز كذلك، الشيخ بن باز ربما جالسه بعضكم وقت وجود العلماء.

مثال واحد للشيخ ابن باز: زاره الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ، الداعية العالم المصري، زاره في مجلسه، وكان الشيخ محمد الغزالي مشغول مع بعض المسئولين بعد لقاء الشيخ، فحضر الشيخ ابن باز، واستقبل الشيخ محمد الغزالي عند السيارة، مشى معه إلى المجلس، وأجلسه. وبعد نهاية الجلسة كان الحضور المرافقون مع الشيخ محمد الغزالي يتعجلونه بشيء ما، حتى يخف عن المجلس ثم يدركون موعدهم الآخر، فلما ذهب، ووصل لموعده قالوا: أين يا شيخ، تأخرت على

الموعد؟ قال: كنت في عالم ثاني، كنت مع صحابيٍّ لم يرَ الرسول ﷺ، هذا كلام الشيخ محمد الغزالي عن الشيخ ابن باز، فإكرام الشيخ للعلماء، الشيخ ابن إبراهيم، والشيخ ابن زاحم، والشيخ ابن صالح، وعدد من أهل العلم عامٌّ، ليس خاصاً بهذه البلد؛ لأنه للأسف يوجد دعوات سيئة فيها شيء من العصبية والمناطقية، والإقليمية والمذهبية، أن العلماء عملهم واهتمامهم خاص فقط بتلاميذهم ممن تتلمذ عليهم، ومن أتى إليهم، ومن كان من بلده أو قبيلته أو من أهل نجد، كل هذا ليس بصحيح.

وعدد كبير من أهل العلم درَّسوا فيها، وبعضهم بلا شهادات جامعية، لكن لشهرته وعلمه، كان الشيخ ابن باز يطلب من الشيخ ابن إبراهيم، ثم من الملك سعود الموافقة على فلان وفلان، ثم يدرسون بلا شهادات جامعية من العلماء الكبار.

تأسس المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية عند أول تأسيسها من الشيخ ابن باز برئاسته، وأعضاء المجلس: الشيخ أبو الأعلى المودودي من علماء باكستان، والشيخ أبو الحسن الندوي الحسني، والشيخ حسنين مخلوف مفتي الأزهر. فمن كل بلد أخذوا عالماً فأكثر، من علماء إندونيسيا، ومن باكستان، ومصر، والشام، كلهم في المجلس التابع لتأسيس الجامعة الإسلامية.

ثم أسسوا الكليات والمعاهد التابعة في أوقات متسارعة: كلية الشريعة وأصول الدين، ثم كلية القرآن. ولها قصة.

***

باب
مواقف في الجامعة الإسلامية

كلية القرآن، في لقاء من اللقاءات مع الشيخ عبد العزيز القارئ حفظه الله، رتب مع أحد الطلاب، طلاب القراءات أن يقرأ بقراءة ليست بقراءة حفص، فأثناء القراءة ردَّ الشيخ ابن باز على الطالب ظناً منه أنه أخطأ، طالب ولا يدري أنه متقن للقراءة بغير قراءة حفص، فلما انتهوا من اللقاء، قال الشيخ عبد العزيز القارئ للشيخ ابن باز: لو أننا فتحنا يا شيخ كلية القرآن؛ لأجل نشر هذه القراءات، فسعى لها الشيخ، وفتحت كلية القرآن، وكلية اللغة والدراسات العليا، وكلية الحديث والقراءات، هذه كلها في زمن الشيخ ابن باز رحمه الله في تأسيس الكلية.

من المواقف التي مرت بالشيخ، لما أرادوا إقرار المنهج للطلاب في مادة آداب البحث والمناظرة، وهي في الجدل المنطقي، وتنفع في أصول الفقه. كان قد تحمس للمناظرات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب (أضواء البيان)، وهو مجدد أصول الفقه رحمه الله في هذا العصر؛ لشهرته ولعلمه، ولانتشار أمره في المسجد النبوي وغيره، فطلب من الشيخ أن يقرروا تدريس هذه المادة؛ لأنها مهمة جداً لطلاب علم (أصول الفقه)، وليواجهوا الناس وعندهم مناظرات وردود. فقال الشيخ ابن باز: لو أني عرفت ما هو هذا العلم منك يا شيخ، فقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: أنا آتي إليك في بيتك يا شيخ.

ثم يأتي الشيخ محمد الأمين الشنقيطي إلى بيت الشيخ ابن باز رئيس الجامعة ليشرح له نبذه عن هذا العلم، فقال الشيخ ابن باز: لا، بل العلم يؤتى إليه. أنا آتيك إلى بيتك.

فأتى إلى بيته، وأخذ عنه هذا العلم، فأقر هذا، لكن لا أدري هل المادة ما زالت موجودة أم لا ؟

***

باب
العصر الذهبي

العصر الذهبي الذي لا ينسى، كما يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق أحد علماء الكويت؛ ذلك أنه من أوائل الدفعات التي تخرجت من الجامعة الإسلامية.

فيقول: ما أظن مر بي، ولا بالجامعة الإسلامية عصر زاهٍ مثل ذلك الوقت في تأسيس الجامعة؛ لأن الجامعة فيها الشيخ ابن باز، والشيخ الألباني، والشيخ محمد أمين المصري، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتقي الدين الهلالي، ومن أتى من العلماء يستضاف، وكانت تقام ندوة أسبوعية يقيمها الشيخ ابن باز لعلماء المدينة، كمثل هذا المجلس المبارك إن شاء الله، يستضيف الشيخ مشايخ، ثم كل منهم يتكلم بموضوع، ثم يعقب الشيخ على ما يقوله الضيف.

ألقى مرة الشيخ الألباني تعريفاً بعلم الحديث في مجلس يضم أيضاً عدداً من العلماء من غير التخصص في الحديث يتكلم عن تخصصه، حتى ظن الحضور أنه لن يتكلم أحد بعد الألباني لضبطه لهذا الفن، وهذا العلم. فقام الشيخ ابن باز وتحدث عن الملاحظات على الشيخ كما قالها أو رتبها كما وردت في المحاضرة ذهنياً، وذكر بعض الملاحظات الدقيقة العلمية، فشهد جميع الحضور من المتخصصين، والشيخ الألباني أن الشيخ ابن باز متمكن في هذا الفن، علم الحديث.

ويقول بعض العلماء: لو أن الشيخ ابن باز تفرغ لعلم الحديث لفاق الألباني.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي إذا قال عن كلمة في اللغة العربية أو بيت: (لا أعرفه)، فلا تبحث عنه؛ لحافظته. والأحاديث التي يحفظها كثيرة بأسانيدها، وهو يعجب كما قال ابنه الشيخ عبدالله بن محمد وفقه الله وحفظه، يقول: أعجب جداً من حفظ الشيخ ابن باز. ويقول: كنت أبحث عن حديث لم أجده في السنة، فلما قابلت الشيخ ابن باز سألته، فقال: هذا في سنن أبي داود، وأخبره أين موضع الحديث، في أي باب.

وبعض الأحاديث تذكر للشيخ ابن باز، فيذكر رحمه الله أن هذا الحديث مذكور في حاشية سنن

النسائي، قالوا: يا شيخ متى قرئ عليك هذا الكتاب؟
قال: قرئ علي في أول الطبعات، طبعة بولاق، والطبعات الأميرية والمصرية القديمة كان لها بعض الحواشي، لما كان قاضياً في الخرج. فكان بين القراءة وبين السؤال عنه قرابة الخمسين سنة، فهذا حتى نعرف شيئاً من أخبار هؤلاء العلماء.

ورتب الشيخ محاضرة أسبوعية، وانتدب بعض العلماء وطلبة العلم للتدريس خارج البلاد في الإجازات، فالمشايخ ينتهون من التدريس في الجامعة، وينتدبهم مباشرة لشتى البلاد.

ولذا، نرى التأثير البالغ في شخصية الشيخ ابن باز، وإدارته، كما يقوله عنه الشيخ العبودي، نائبه في الجامعة، رئيس رابطة العالم الإسلامي لفترات، وقابل الكثير، وخالطهم.

فقوله هذا عن علم. قال: إداري ناجح، يخالط الطلاب، ويأتي إلى مسكنهم، وأي طالب مستجد يستضيفه ويحثه على طلب العلم، ويقول: إذا نقصك مال أعطيك .كل طالب. كما قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في بعض مذكراته يتعجب من هذا الرجل، أي: الشيخ بن باز رحمه الله، و هو من أسباب نجاح الجامعة الإسلامية في انطلاقتها.

ومصداق هذا أنه لما أراد الشيخ الانطلاق بعد الوداع للجامعة الإسلامية وطلابها، فكان حفل بكاء لما أراد أن يودع الطلاب؛ لأنه دخل في قلب كل طالب، والمشايخ والعلماء، والزائرين، وكل من مر بالمدينة ينظر إلى هذا المعلم العجيب الجامعة الإسلامية.

كان الشيخ الألباني يقول: ما حرصت على الخروج من بلاد الشام و الطلاب والدعوة التي قامت في بلاد الشام قرية قرية، ما حرصت على الانتقال للمدينة، إلا لأجل وجود الشيخ ابن باز رحمه الله. فرحمهم الله جميعاً.

ولذا، فإن الشيخ الألباني أوقف مكتبته كاملة على الجامعة الإسلامية وفاءً لها، وحُباً فيها.

***

باب
أخبار العلماء في المدينة المنورة

الشيخ سليمان بن حمدان

من قضاة المدينة المنورة، يُذكر له قصة كانت مع قصيدة البوصيري (البردة) [١]، والتي كانت معلقة داخل الحجرة النبوية. فالشيخ بما أنه قاضي المدينة، ولا تفتح الحجرة؛ لأن الشيخ عبد الله بن سليمان بن حميد، وهو أحد القضاة من القصيم، كان في الجنوب، وكان مع العبودي في رحلته، يقول: طلب من الشيخ عبد الله بن محمد بن زاحم أن يفتح لهم الحجرة، قال: لا، لا تفتح إلا للملوك، فدخل الشيخ سليمان بن حمدان الحجرة، ووجد (البردة) في بعض جدار الحجرة مما وضع قديماً، والأبيات التي فيها إشكالات، بل فيها قدح في العقيدة، وهي دعاء النبي ﷺ حيث قال صاحب المنظومة يخاطب النبي ﷺ :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حصول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا و ضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

نعوذ بالله، يعني بذلك: أن من جوده ﷺ الدنيا والآخرة. فالشيخ سليمان بن حمدان حكها رحمه الله.

(١) : (البردة) أشهر القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نظمها البوصيري محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي ، ولد سنة ٦٠٨هـ ، وتوفي سنة ٦٩٦ هـ .
وسببها أنه أصيب بمرضٍ عُضالٍ، لم ينفع معه العلاج، وأنه كان يُكثر مِن الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى رآه في المنام ذاتَ ليلةٍ، وغطَّاه ببردته الشريفة، وأنه لَمَّا قام البوصيري مِن نومه: قام، وليس به مرضٌ، فأنشأ قصيدته، والله أعلم بحقيقة ذلك. وتشتمل على أبيات فيها من الشركيات ما دعى كثير من أهل العلم للرد عليها، وعلى المشتغلين بها، منهم: الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، وسليمان بن عبدالله آل الشيخ،وسليمان بن حمدان، وعبدالعزيز بن باز، ومحمد ناصر الدين الألباني –رحمهم الله– .

الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن زاحم

عم الشيخ عبد الله بن محمد بن زاحم، كان من قضاة الرياض، وهو الذي جاء بتلميذه الشيخ عبدالعزيز بن صالح مرافقاً له وقاضياً، ورشَّحه للإمامة في المسجد النبوي، سعى في زمن الملك عبد العزيز مباشرة ١٣٧٤هـ، فكتب للحكومة أن يزال بعض الزخارف الموجودة في المسجد النبوي، فتمت الأمور واستمرت، ثم وجدوا معارضات، فتركوا الوضع، حتى لا يسبب تشويشاً.

وأمر الملك عبد العزيز بإزالة الأضرحة والأبنية على البقيع، هذا كان في عام ١٣٤٤هـ ، وهذه من الجهود التي في المدينة من علمائها، أو من مسؤوليها.

عبد الله بن سليمان بن بليهد

كان قد أرسل الملك عبد العزيز لأهل المدينة الشيخ عبد الله بن سليمان بن بليهد، وهو أحد القضاة من الرياض، وكان قاضياً في حائل، ثم كان يتنقل بين مكة والمدينة، وهو من كبار القضاة، فأرسله لعلماء المدينة، فناقشهم في قضية القبور، ولله الحمد بالاتفاق كما يذكر المؤرخون ممن ذكر هذه المواقف من أهل المدينة وغيرهم أن الشيخ ألفا هاشم – واسمه محمد هاشم الفوتي–، والشيخ عمر بري، وعدد من أهل العلم، والشيخ محمد بن علي بن تركي، وجميع أهل هذه المذاهب الأربعة الفقهية المعتبرة، وهؤلاء العلماء، والمحدثون كلهم اتفقوا على إزالتها، ولم يتحرك إلا الرافضة من العراق وإيران، وشوشوا على هؤلاء العلماء، لكن خرج بيان من جميع علماء المدينة، وهو موجود في بعض الكتب، بيان فيه جميع علماء المدينة بالاتفاق أتوا بالآيات والأحاديث عن عدم تعظيم القبور، ولا عبادتها، ولا الطواف بها، كما هو الموجود في السنة النبوية المطهرة. فأزيلت ولله الحمد، وهذه فائدة وجود العلماء في هذه الأمور.

إحسان إلهي ظهير

داعية سلفي تخرج من الجامعة الإسلامية، وكان الأول على دفعته، ثم عاد لباكستان، درس في كلية الحقوق والسياسة في البنجاب، ثم حصل على الماجستير في الشريعة واللغة العربية والفارسية والكردية، مؤلفاته كثيرة قاربت المائتي كتاب. وهي ليست بحوث جامعية، إنما بحوث خاصة به، لم ينتفع بها في ترقية جامعية، أو منصب، أو شيء. منها: كتاب (البهائية) راجع لتأليفه مائتين وثمانية وستين كتاباً. في حين أن مراجع كتابه (الإسماعيلية) ثلاثمائة واثنان وستون كتاباً، ومراجع كتاب (الشيعة) مائتين وتسع خمسون كتاباً. وهذا لانشغاله رحمه الله واهتمامه بالدعوة، ولمناظراته مع الشيعة والإسماعيلية ومع حصول المخاطر والأخطار له.

وإن كان الشيخ ليس من أهل البلاد، لكنه درَسَ في الجامعة الإسلامية، هندي الأصل، وكان إذا مر بالبقيع، أو دخله قال: اللهم هنا، اللهم هنا.

فكان في مؤتمر لأهل السنة في باكستان، فحدث تفجير في المؤتمر، وجرح الشيخ جرحاً شديداً، وأسعف للمملكة بطلب من الشيخ ابن باز، فمات في الطائرة، أو حين وصوله للمملكة. فَصُلِّيَ عليه في الجامع الكبير في الرياض، ودفن بالبقيع. (اللهم هنا)، صدق الله، فصدقه الله.

الشيخ إبراهيم العياشي

ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٩هـ في عائلة متوسطة الحال. عُيّن مشرفاً على مزاره وزارة المالية بالخرج، ثم مديراً لإحدى المدارس فيها، لكن حنينه إلى موطنه الأول اضطره إلى العودة إلى المدينة المنورة. وعيّن في المدينة المنورة مديراً للمدرسة الفيصلية . وبدأ خلالها باحثاً تاريخياً نشطاً يعرفه جميع سُكان المدينة المنورة وأهلها ويرونه في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ماشياً على قدميه حامِلاً أوراقه ليُدون كل ما تراه عيناه وما يعثر عليه من آثار المدينة المنورة وهذا ما لاحظه

مدير تعليم المدينة المنورة آنذاك الأستاذ: عبدالعزيز الربيع فرشحه ليكون خبيراً للآثار إلا أنه لم يقتنع بتلك الوظيفة ولم تحُد من عزيمته وأبحاثه وتأملاته فقد كان هدفه رحمه الله تحديد طيبة الطيبة بالأدلة والبراهين وإثباتها.

كما كان من أهدافه أيضاً تحديد الحرم النبوي الشريف ومواقع غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من معالم المدينة التاريخية.

ثم توسعت دائرة أبحاثه عندما أمنت له إدارة التعليم بالمدينة المنورة مُمثلة بمديرها الأستاذ الربيع رحمه الله سيارة خاصة لتأمين لتنقلاته.

وخلال التسعينات الهجرية بدأ العياشي بالظهور تلفزيونياً وأيضاً من خلال مُحاضراته في نادي المدينة المنورة مُتحدثاً عن آثار المدينة المنورة ومواقعها المُختلفة وضرورة الحِفاظ عليها.

ومن مؤلفات الشيخ إبراهيم العياشي: (غزوة بدر)، (الهجرة النبوية الشريفة)، (المدينة بين الماضي والحاضر)، (الحُجرة النبوية الشريفة)، (غزوة تبوك)، (غزوة الخندق)، (مبضع الجـرَّاح).

يقول الأستاذ: أحمد بن أمين مُرشد عن العياشي في كتابه (طيبة وذكريات الأحبة): (لهذا الرجل فضل كبير على البحث التاريخي للمدينة المنورة وموقعها وحدودها. وفي الثمانينات كنت أشاهد العياشي -رحمه الله- تحمله رجلاه بين المدينة ومنطقة عُروة أو بين المدينة ومنطقة قباء أو غرب جبل سِلع يتحرى حدود الخندق. لقد ضحَّى العياشي بوقته وماله في سبيل إثبات المعالم التاريخية حتى أنني عرفت أن مُسودات مؤلفاته كانت مُخبأة في إحدى مقاهي آبار علي داخل كرتون وُجد هناك بعد وفاته رحمه الله.! فذاك المقهى كان مجلسه لمُراجعة أوراقه رحمه الله).

ولعل الكثيرين يعرفون جهود العياشي ويثنون عليه ويدعون له بالرحمة والمغفرة فكتابه المدينة بين الماضي والحاضر يُشعرك بالجُهد والمشقة ودقة المعلومات عن كل أثر تاريخي.

المؤرخ أديب، مهتم بآثار وتاريخ المدينة، رسم المدينة وما فيها من غزوات وبيوتات للأنصار والمهاجرين ، والمواقف في السيرة النبوية بناءً على السِّيرة، ثم أخرجها. وقد تتلمذ عليه الشيخ

عبد العزيز القارئ حفظه الله، والشيخ عبد العزيز كنز من كنوز التاريخ والأدب والعلم، لو كان فيه نشاط، نسأل الله أن يحسن لنا وله الختام.

ويذكر أنيس منصور في كتابه (اللعب غريزة منظمة) معناه: (أن العياشي اشتغل عشرين عاماً يحدد فيها أماكن (الحجرات) أي البيوت الصغيرة التي كانت تسكنها زوجات النبي ﷺ، موضوع دقيق وصعب، ولكنه بالصبر والإيمان والتفرغ التام استطاع أن يحقق إنجازاً علمياً مهماً. وأن خلافاً نشب بينه وبين زوجته جعلها تلقي بالبحث في النار. على إثرها أصيب العياشي بالشلل). توفي العياشي –رحمه الله– سنة ١٤٠٠هـ

الشيخ محمد هاشم الفوتي

هو محمد هاشم بن محمد الفوتي المالكي المدني المشهور بـ (ألفا هاشم).

ولد ببلدة (حلوار) من بلاد فلاته في الصحراء الكبرى بإفريقيا، نشأ شغوفاً بالعلم، بارعاً في الحفظ، وعني به والده وأنفق على تعليمه بسخاء، فتفرغ للدراسة على علماء بلاده. وعندما غزا الفرنسيون بلاده هاجر إلى الحجاز عام ١٣٢٢هـ، ودَرَّس في الحرم المكي إلى عام ١٣٢٦هـ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة وأقام فيها، حتى أصبح أحد علماء المسجد النبوي. وكان عالماً في الفقه وأصوله والحديث والبلاغة والتفسير وغيرها من العلوم، وكانت له ذاكرة عجيبة، ويروى أنه إذا استفتي في أمر قال لأحد طلابه: افتح الكتاب في صفحة كذا، وانظر سطر كذا وكذا تجد الإجابة، فإذا هي كما قال !.

وكان الملك عبد العزيز يثق به ويأخذ بفتواه ويقدمها على فتاوي الآخرين، وقد عينه عضواً في مجلس الشورى، درس على يديه أعداد كبيرة من طلاب العلم الذين جاؤوا إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم، وصار بعضهم علماء مشهورين، منهم: الشيخ حسن المشاط، والشيخ سعيد بن

صديق الفتوي، والشيخ عبد الرحمن بن يوسف الإفريقي، وهم من علماء المسجد الحرام، والشيخ حسين باسلامة المكي، والأستاذ محمد حسين زيدان، وغيرهم كثير.

وهو من العلماء الكبار في المسجد النبوي، ممن أيد العلماء في إزالة الأضرحة على البقيع عام ١٣٤٤هـ ، درس الشيخ في المسجد النبوي، عُرف بقوة حفظه وذاكرته، يذكر الجزء والصفحة لأي سائل، توفي ١٣٤٩هـ ، وفي يوم وفاته جاءه اثنان من طلابه من ينبع فسألاه عن مسألة، فقال لأحد الحضور عنده: افتح الكتاب الفلاني، الجزء والصفحة، تجد الجواب، فلما فتح لهم وقرأوا، وجدوا الجواب؛ وقرأ عليهم لأن الشيخ ليس به نشاط رحمه الله فقرأ عليهم الخادم أو التلميذ ، فلما وضع الكتاب و خرجا لحق بهما فقال: أن الشيخ قد مات. وهذا يذكرنا بموقف الإمام أبو حنيفة لما جاءه بعض تلاميذه يزورونه في سكرات الموت رحمه الله، فالإمام أبو حنيفة قال لتلميذه أبو يوسف: ما الأفضل، أن يرمي الحاج الجمرة راكباً أو ماشيًا ؟

قال: راكباً، قال: خطأ، ثم قال التلميذ: ماشياً، قال: خطأ. قال: أما بالنسبة لجمرة العقبة فيرميها راكباً، وأما الجمرة الصغرى والوسطى فماشياً، هذا كلام الإمام أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف، فلما خرج سمع الصياح بالدار أن الشيخ قد مات رحمه الله.

هم الرجال وعجز أن يقال لمن ... لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

الشيخ حسن الشاعر

الشيخ حسن بن إبراهيم الشاعر، والد وزير الإعلام الأسبق علي بن حسن الشاعر، وهو من المعمرين؛ ولد بمصر سنة ١٢٩٠هـ ، ومات ١٤٠٠هـ ، فعاش عشر سنوات بعد المائة، وهو متمتع بصحته وذاكرته، وهو من المقرئين الكبار، بل شيخ القراء في المسجد النبوي، عضو رابطة علماء المدينة، تلقى القراءات السبع، ثم العشر، ثم الأربعة عشر. ولما قارب الأربعين من عمره

قدم المدينة مع أولاده قاصداً الهجرة. وتصدر الحرم النبوي لتعليم التجويد والقراءات السبع على كل من يقصده من طلبة العلم المجاورين بالمدينة ومن الزوار والحجاج.

وقد سافر إلى بخارى بطلب من أميرها لصلاة التراويح في جامعها الكبير وصلى التراويح في شهر رمضان.

ولما جاء الشيخ ابن صالح قاضياً في المدينة، ثم رشح للإمامة كأن بعض الناس قالوا للشيخ: لو قرأت على أحد العلماء القراءات وأجازك بالقراءة، فقرأ على الشيخ حسن الشاعر رحمه الله.

ويروى عن الشيخ عبدالعزيز بن عبد الفتاح القاري حفظه الله تعالى أن الشيخ حسن الشاعر صلى إماماً نيابة عن بعض الأئمة، وذلك في عدة فروض في صلوات جهرية وسرية [1].

الشيخ عبد الله هاشم اليماني

الشيخ عبدالله اليماني محقق للكتب من أهل المدينة، والمهتمون بتحقيق الكتب الحديثية يجدون اسمه في هذه الكتب، تعلم على يد جده مذهب أبي حنيفة، وعمل في التجارة والتحقيق، فحقق التلخيص الحبير لابن حجر، وتعجيل المنفعة لابن حجر، والدراية لابن حجر، وحقق سنن الدارمي، وحقق المنتقى لابن الجارود، وهذه الكتب عمد عند أهل الحديث.

(١) : ذكر ذلك الشيخ عبدالله العلاف في مقالة ترجم فيها للشيخ حسن الشاعر –رحمه الله– حيث قال: أخبرني شيخنا عبدالعزيز بن عبد الفتاح القاري حفظه الله تعالى أن الشيخ حسن الشاعر صلى إماماً نيابة عن بعض الأئمة، وذلك في عدة فروض في صلوات جهرية وسرية كما ذكر ذلك الأخ المحامي سلطان بن محمد بن أحمد بن فائز الغامدي، وقد توارد بذلك الخبر من بعض كبار السن.

الشيخ عبد الفتاح المرصفي

أحد القراء من علماء مصر، عضو اللجنة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، توفي رحمه الله عام ١٤٠٩ هـ.

أتاه أحد الطلاب من الإمارات، فقال: يا شيخ، لا يوجد في الإمارات شخص عنده القراءات يجيز، فهل تأذن لي يا شيخ أن أقرأ عليك ؟

فكان عدد الطلاب كبير، وازدحموا على الشيخ، فاستأذن الطلاب، قالوا: لا بأس، يدخل بيننا، وله فسحة من الوقت، فيقرأ. وأهل الإجازات يعرفون كم تأخذ الإجازة على الطالب في الضبط والإتقان والقراءة، مع الأبيات المشترطة حفظاً قبل ذلك أو في أثنائها، فقرأ على الشيخ الختمة، حتى بلغ قول الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]، وقد استضافه الشيخ جزاه الله خيراً ليقرأ، لكن تأخر ولم يقرأ، و لم يمكنه أن يختم بعد ذلك؛ فالشيخ رحمه الله لما قرأ عليه تلميذه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ مات أثناء قراءة الطالب عليه.

الشيخ محمد المختار الشنقيطي

والد العالم الموجود الآن محمد ب محمد المختار الشنقيطي، ولا يقل شهرة وعلماً عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، لكن الشهرة للشيخ الأمين. تقدم ذكره في علما الحرمين.

كان مدرساً في الجامعة الإسلامية عند مقدمه. ولما كان يطلب العلم في موريتانيا قطع ألف كيلو متر مشياً على قدميه لطلب العلم، وأول وصوله للمدينة ذهب للحج ماشياً.

جاء الشيخ لهذه البلاد وهو عالم ، لكنه بدأ يلازم دروس المشايخ يحضر عندهم، وكان فترة من الفترات في الرياض، وحضر عند الشيخ محمد بن إبراهيم، ثم حصّل الإجازات في علم

الحديث، ثم درس في المسجد النبوي آخر عمره، بعد كل فرض درس أو فن من الفنون. وهو موسوعة في كل.

من برنامجه اليومي: أنه يقوم قبل الفجر بساعتين ساعة قيام، وإذا أذن الأذان الأول يقرأ فقط في تفسير القرطبي وتفسير ابن جرير، ثم إذا أذن أذان الفجر الثاني نزل إلى المسجد النبوي ثم درس.

وفي آخر عمره أصيب بحساسية في الجلد، فمنعه الأطباء من الخروج في الشمس بأي حال، فكان يتألم و يتأثر إذا سمع النداء، ويقول: كيف ينادى للصلاة في مسجد النبي ﷺ، ولا أحضر! فكان لا يخرج إلا في الليل، أما في رمضان فمع شدة الحساسية على جلده ما كان يترك الصلاة أبداً في المسجد النبوي. وفي رمضان برنامج آخر.

كان يذهب كل يوم مرتين لمزرعته، وكان قد بذل المال الكثير لحفر بئر في مزرعته، فكانت المؤسسة التي بدأت بالحفر قد جاء مسؤوليها عند الشيخ، فقالوا: يا شيخ، أنت عالم، ومؤمن بالقضاء والقدر، لما حفرنا لم نجد ماء أبداً. فالله يعوض عليك في المال.

قال: والله لو ذهب جميع مالي وجميع مزرعتي وأبنائي فإني راض عن الله.

الشيخ عبدالعزيز بن صالح

تولى الإمامة خمسين سنة في المسجد النبوي، مع التدريس والقضاء في المحكمة، ثم الانتقال لرئاسة المحكمة. وتقدم في علماء الحرمين.

الشيخ ولد عام ١٣٢٩هـ وتوفى ١٤١٥هـ ، نشأ الشيخ يتيماً، قد رباه أخوه عثمان، وتتلمذ على عدد من علماء الرياض، وعلماء المجمعة، ثم انتقل من المجمعة إلى الرياض قاضياً فيها، ثم اختاره الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب بن زاحم، شيخه، أن يكون مرافقاً له للمدينة، يتتلمذ عليه، و رشحه للقضاء، وقرأ الشيخ ابن صالح على الشيخ حسن الشاعر، وعين إماماً للمسجد

النبوي عام ١٣٦٧هـ، وكان مساعداً للشيخ صالح الزغيبي -رحمه الله-، والشيخ صالح كان حريصًا على إمامة المسجد النبوي، وكان لا يغيب، فاستمر إماماً أكثر من عشرين سنة، ولا يعرف عنه الغياب أبداً، واستمر مدة طويلة هو الإمام الوحيد.

كان قد خرج مرة للبس حذائه يريد صلاة الفجر، فكانت في حذائه عقرب لدغته، فتحامل على نفسه فذهب، وصلى بالناس وبعد الصلاة أخبر من معه فأسعفوه.

كما أرادوا أن يختبروه في الحرص على الإمامة، فاستضافه أحد وجهاء المدينة، ربما أحد الأمراء، فتعمد تأخير الغداء إلى قرب العصر، يقول: حتى نشوف كيف تصرف الشيخ!

والآن هو إمام المسجد النبوي، والمكان بعيد. فقال للمرافقين معه، أو المهتمين بأمر الغداء، اتركوا الغداء قرب الأذان، لو أراد الشيخ أن يتغدى ويمشي ممكن يذهبون به، لكن الشيخ استأذن منهم كأنه يريد قضاء الحاجة، فخرج و ترك حذائه عندهم، و ذهب مشياً أو أقرب إلى الركض، ذهب إلى المسجد النبوي فرآه الناس وقت الإقامة في المحراب. هذا من حرص الشيخ صالح الزغيبي -رحمه الله-، فلما تقدمت به السن رشح الشيخ ابن صالح -رحمه الله- للإمامة.

كان الشيخ ابن صالح -رحمه الله- محبوباً لدى الخاصة و العام ؛ لإحسانه وتواضعه، وخدمته للناس. وقد انتدبه الملك فيصل لعدة بلاد في أفريقيا وغيرها للخطابة والإمامة، فذهب وأثر بهم تأثيراً ليس بالهين.

قال تلميذه القاضي الشيخ حمد الحربي، وقد كان قاضياً معه عدة سنوات، وسكرتيراً خاصاً له سبع سنوات، يقول: كان يعطيني الشيخ أموالاً بمئات الألوف، ويصر عليَّ أنها خاصة بالأيتام، ألا تخبر أحداً.

لم يصلِّ، أو لم يرضَ بأن يأخذ الراتب على الإمامة فالمسئول عن الرئاسة أو شئون المسجد النبوي خاطب المالية، فقالوا: نزيد الشيخ ثلاثة آلاف للإمام ما تكفيه، نزيد للشيخ إلى سبعة آلاف. قال: لا هذه ولا تلك، لا ثلاثة، ولا سبعة، أنا أصلي لله. فاستمر الشيخ طيلة حياته يصلي في المسجد النبوي بلا مقابل. وكذلك إشرافه على الدروس.

أما تلاوته، فكانت محل ثناء عند عدد من أهل العلم، كالشيخ عطية سالم، والشيخ عبد العزيز

قارئ، والشيخ عبد الفتاح القاضي، وكان الشيخ عبد الفتاح القاضي يتمنى أن يصلي خلفه.

مرة كان الشيخ عبد الفتاح قارئ، والد الشيخ عبد العزيز، قد رجع من المسجد النبوي، فقال: يا شيخ عبد الفتاح، يقصد عبد الفتاح القاري، يقول عبد الفتاح القاضي، وكلاهما من علماء القراءات، يقول: لو أنك صليت معنا الفجر اليوم، كأن هذا الرجل يقرأ من الجنة سورة الرحمن، كان الشيخ عبد الفتاح القاضي مريض، فلما أقيمت صلاة الفجر، فتح النافذة، وكان في قلبه يتمنى أن يقرأ الشيخ سورة الرحمن فقرأها، وهو كثيراً ما يقرأها الشيخ في صلاة الفجر فجر العيد.

فالشيخ عبد الفتاح القاضي وقف عند النافذة، ويستمع لتلاوة الشيخ حتى بدأ يبكى فسقط على الأرض فجاء أولاده نبهوه، خافوا علي الشيخ أنه قد أصيب بشيء، قال: صدق الشيخ عبد الفتاح، أنه كأنه يقرأ من الجنة. وهذه قالها الشيخ عبد العزيز القارئ في كلام عنه رحمه الله.

قال عنه الشيخ علي الطنطاوي، والشيخ علي الطنطاوي يقول: أنا أحيي من يعذرني، لعدم دعوته يقصد للمجالس، ما يحب الرسميات. هو حرس بيته ، دائماً في البيت، ويقرأ يومياً، يقرأ مائة صفحة، كما يقول عن نفسه : طيلة ستين سنة ، يقول: ولكم أن تحسبوا كم اقرأ، وأحياناً يمر به يوم يقرأ ثلاثمائة صفحة. هذا علي الطنطاوي يتكلم عن نفسه، ولا أي شخصية تعجبه، هو لا ينقد الآخرين، لكن الذين يستجيب لهم لدعوتهم قلة.

محمد نصيف، وجيه من وجهاء جدة، عالم وجيه. دعا ة الملك سعود، و لما جاء في وفد مع مشايخ الشام للحج، وجاء عند الشيخ ابن صالح في مجلسه، فقال: إن علي الطنطاوي يقول عن ابن صالح: هو حاكم لم يتوج. وأهل المدينة يعرفون هذا الأمر عن الشيخ رحمه الله، بل يقولون: هو مدير الدوائر الحكومية، مدير جميع المدراء، فهو يتابع كل شيء في المدينة، وإذا أمر بالشيء، لا يناقضه أمير المدينة، ولا الحكومة.

وما طلب الشيخ، أو ما ذكر الشيخ رحمه الله فيقبل، ومنها توليته لبعض الأئمة، بدون رجوع للديوان، ولا للرئاسة، ولا شيء من ذلك، فهو الديوان، وهو الرئاسة.

الشيخ محمد أيوب لما ثقل الشيخ ابن صالح رحمه الله وضعف عن الإمامة رشح الشيخ محمد

أيوب للإمامة، وكان قد رشح الشيخ محمد أيوب للإمامة في قباء الشيخ عبد العزيز القارئ كما هو معروف. فهو حاكم لم يتوج. و الشيخ أيضاً هو الذي رشح الشيخ عبد الباري الثبيتي.

يستقبل الناس يومياً في منزله العصر و المغرب ، و بعد العشاء يتعشون معه كل يوم. ثم إن جلسة العصر قد ألغاها الشيخ لما كثرت مشاغله .

وقت الختمة، يحرص الناس على شهودها للخشوع، والصدق والتأثير، ثم انقطع سنوات عن الإمامة، ثم عاد فصلي بالناس آخر ليلة من وتر ١٤١٣هـ، فتأثر الناس، وكثر بكائهم، لما تذكروا من تلك الأيام، كما قال البرزالي رحمه الله، لما كان يجلس بجانب ابن تيمية، يقول: فما أطيب تلك الأيام ليتها أنها كانت طالت. فتذكر الناس ذلك الصوت، وذلك الخشوع منه رحمه الله.

***

فصل

من أخبار التجار الصالحين

تمهيد

في الحقيقة، لا توجد كتب فيما أعلم لا في القديم ولا الحديث تجمع أخبار التجار الصالحين، وإن كانت متفرقة، فمنهم من يذكر من كرم إبراهيم عليه السلام، وكفى به مثالاً. وكذلك سليمان عليه السلام، والنبي ﷺ، وكذلك كرم أبي بكر، وعمر، والزبير بن العوام، وعدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، لكن في أمور متفرقة، فلم أجد كتاباً جمع هذه المسائل.

المال عصب الحياة، به يطاع الله عز وجل، ويجتنب الإنسان معصيته.

ويحسُن ذكر بعض التوجيهات والآداب، والمواقف والقصص، أذكرها مفرقة غير مرتبة، حتى لا يمل القارئ فأذكر خبراً، وقصة، وتوجيهاً، وأدباً، وتحذيراً، ومحطة.

***

باب
نداء للتجار

أخي التاجر، ربما تصدقت كثيراً، لكن هل جربت الصدقة بنية الشفاء ؟

إن كنت مريضاً، فلا تنس الصدقة، مع مسحك لدمعة يتيم، أو على رأسه، أو تتبرع لوقف خيري، أو صدقة جارية، أو إدخال السرور على مسلم، أو على مريض فقير محتاج، أو أن تتكفل بعلاج أحدٍ لا يجد ما يستر به عورته.

جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك -رحمه الله-، وهو إمام في زمانه كما قيل:

إذا سار عبد الله بن المبارك ليلة   فقد سار منها نجمها وهلالها

إذا ذكر العلماء في كل بلـــدة   فهم نجـم فيها و أنت هلالها

فقال الرجل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، أني قد أُصبت بمرض بركبتي، وبحثت عن العلاج، فلم أجد. قال له: احفر بئراً للمسلمين تجد الشفاء. فأتاه بعد مدة من التعب والمرض، فلما حفر بئراً، وسقى المسلمون منه، شفاه الله.

وإليك كلام قيم لابن القيم -رحمه الله-، فهو كلام يستغرب لو صدر من غير ابن القيم، لكن لاحظ ماذا يقول.

قال: (فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجر أو من ظالم بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه) [١].

وفي موضع: (المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره)[٢].

---

(١) : الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم (١/ ٣١) .

(٢) : المصدر السابق (١/ ٣٢) .

بمعنى: أنها وإن كانت صدقة قليلة، فإنها تدفع البلاء، ولو كانت من فاجر أو من ظالم، بل من كافر. وهذا وجه الاستغراب.

وقوله: أن المتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح صدره، عدّها من أسباب انشراح الصدر في (زاد المعاد). فإن من أسباب انشراح الصدر كثرة الصدقات.

والصدقة من أفضل الأعمال، كما صح فيما رواه البيهقي عن النبي ﷺ:« إن من أفضل أعمالكم الصدقة»[1]. والصدقة تقي من البلايا والكروب، جاء ذلك في عدة أحاديث حسنة، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الصدقة تقي ميتة السوء »[2]، ويؤيد هذا أنه إذا حصل الكسوف، فما المشروع لنا ؟

من المشروعات في العبادات: الصلاة، الاستغفار، التوبة، العتق، والصدقات. فدل على أن الصدقة تقي مصارع السوء، وتزيل غضب الرب ﷻ. وجاء في حديث اخر :« داووا مرضاكم بالصدقة »[3]، وإن كان عدد من أهل العلم يضعفه، لكن جرب فوجد نافعاً.

وممن ذكر ذلك من المحدثين: أبا عبد الله الحاكم، ذكر أنه أصابه بعض الندوب على وجهه، وبعض الحبوب، فتألم منها وتضايق من وجودها في وجهه سنة كاملة، يذهب للصالحين يدعون له، وللأطباء، ولم يجد علاجاً. فأشار إليه أحد الأخيار مع أنه إمام من المحدثين، فأشار عليه بإشارة لم تخطر على باله، فقال: لو وضعت سقاية عند باب بيتك. فلما وضع السقاية، وشرب الناس منها، شافاه الله.

حتى الظالم، يدفع الله عنه العقوبة بالصدقات، وليس هذا إقراراً بأن يظلم الإنسان الناس ويأخذ حقوقهم ثم يتصدق. كما ذكر لأبي حنيفة عن رجل قال: أسرق عشرة دراهم، وأتصدق بدرهم، فيكون لي عشر حسنات، وأخسر تسعة. هذا لا يكون، وليس بصحيح، ليس هذا إقراراً للظالم،

---

(١) : لم أجده.

(٢) : رواه الترمذي (٦٦٤)، بلفظ : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء ». وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) : حسنه الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- في " صحيح الجامع " (٣٣٥٨) . وحكم عليه بالضعف الشديد في " السلسلة الضعيفة " ٧ : ٣٤٩٢ . وقال البيهقي: إنما يعرف هذا المتن عن الحسن البصري عن النبي ﷺ مرسلاً .

لكن كما قال إبراهيم النخعي، وهو من أئمة التابعين: إن الله تعالى يدفع عن الظالم بالصدقات. وقال: يروون، ويرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم.

وعند الترمذي عن النبي ﷺ أنه نادى التجار، فقال: « يا معشر التجار، إن الشيطان والإثم يحضران البيع، فشوبوا بيعكم بالصدقة »(١).

والصدقة تبارك المال، وتزيد في الرزق، وتشرح النفس، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: « يا ابن أدم أنفق ، أُنفق عليك ».

ويقول الملك كل صباح للمنفق: (اللهم اعطِ منفقاً خلفاً، واعطِ ممسكاً تلفاً) (٢).

وقال الحسن البصري رحمه الله: (من أيقن بالخلف جاد بالعطية) (٣).

يقصد: أن من تيقن أن الله سيخلفه، يجود بماله. والجود بالنفس أقصى غاية الجود، فإذا كان البعض لا يقدم ماله، وإن قل، فالصحابة ﷺ قدموا دماءهم وأموالهم لله ﷻ.

ولما تاب الله على كعب بن مالك ﷺ قال: (يا رسول الله إن من تمام توبة الله علي أن أنخلع من جميع مالي أخرجه صدقة لله ولرسوله. فقال ﷺ: « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك »، فقال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر) (٤).

فلا أطلب من التاجر أن يخرج جميع ماله بعد ما يتوب من بعض التجارات المحرمة، فيترك المال المحرم كاملاً والمال المباح، لا أطلب منه ذلك. وإن كان بعض الناس لو كان يرضي الله نحر نفوسهم لفعلوه، إذا تاب توبة صادقة لا يهتم بكل ما يأتيه بعد التوبة، لكن أخرج كثيراً من المال؛ لأن الصدقة تطفئ غضب الرب.

---

(١) : رواه الترمذي (١٢٠٨)، وقال: حسن صحيح. وجاء بألفاظ مشابهة في السنن.

(٢) : جاء قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري (١٤٤٢)

(٣) : البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٩٨)

(٤) : رواه البخاري (٢٦٠٦)، ومسلم (٢٧٦٩)

مع أبي عثمان المازني

وهو من علماء اللغة و النحو في زمن الدولة العباسية، عالم من علماء النحو، فقير الحال. جاءه رجل ذات يوم من أهل الذمة، فطلب منه أن يتعلم عنده كتاب سيبويه في النحو، واسم الكتاب: (الكتاب)، فامتنع من التعليم، وقال هذا الرجل الطالب للعلم: أعطيك مائة دينار حتى تعلمني. قال: أبداً .

فجاءه بعض الوسطاء، وقالوا: أنت فقير، والضرورات تبيح المحظورات، فقال: لا أمكن رجلاً من أهل الذمة يتعلم كتاب الله ﷻ، وفي كتاب سيبويه ثلاثمائة آية. الذي اضطره لرفض تعليم ذلك الرجل تعظيمه للقرآن والآيات .

وبعد مدة جلس الخليفة الواثق العباسي مع عدد من الندماء، والأدباء، و الشعراء، وعلماء النحو فتباحثوا في مسألة نحوية، فلم يجدوا جواباً إلا عند أبي عثمان المازني. فلما أجابهم بهذا الجواب، وأخبرهم بجواب مسألتهم، قال الواثق له: قبل أن تخرج من بيتك، ماذا قلت لأهلك أو لابنتك؟ لأنه يعرفه أنه فقير. فقال المازني: قلت لابنتي: ثقي بالله، ومن عند الخليفة بالنجاح. فقال الخليفة: الثقة والتوكل على الله، وعلي النجاح.

فأعطاه ألف دينار، حيث ترك لله عز وجل مائة دينار، فعوضه الله ألف دينار. فالذي يتعامل مع الله لا يخسر، ولا يضيع، ولا يندم. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠] .

***

باب
وصايا عامة

اطمئن يا أخي الكريم، فإنه لن تموت نفس إلا واستكملت رزقها وأجلها. فما أنفقت من المال فهو مخلوف عليك، إن في الدنيا، أو في الآخرة، وما دفعته من المال فهو رزق ساقه الله لمن دفع له، ولو بذلت جميع ما في جيبك، فإن الله تبارك تعالى لن يميتك حتى يعطيك جميع الرزق

أنفق و لا تخش إقلالا فقد قُسمت بين الخلائق آجــالٌ و أرزاق

للأسف، أن تقييم الأشخاص بين الناس يكون حسب المال، و كما قيل:

يمشي الفقير وكل شيء ضده و الناس تغلق دونه أبوابها[1]

و قالوا[2] :

إذا زاد فقر المرء ، قلّ محبه وعاداه من أضحى له في الملا أهلا

وإن زاد معه المال مال لحبه جميع أعاديه ، و قالوا له : أهلا

وكما قال أبو الفتح البستي :

حياك من لا ترجو تحيته لولا الدراهم ما حياك إنسان

فبالمال تستطيع أن تكسب الأصدقاء، وتكسب الأعداء، فكم من التجار من يعاديه أولاده، يتمنون موته، وهلاكه؛ حتى يرثوه. وكم من التجار من كسب قلوب الناس بالمال، فلو ذهب جميع أولاده، لوجد عدداً من الناس في مقام الأولاد. وبالمال تستطيع أن تكسب الأصدقاء، وتؤثر في الآخرين، كأن تدعوا للإسلام.

---

(١) : ينسب للشافعي رحمه الله

(٢) : لابن الرومي

ولذا، جاء في الإسلام من أنواع الزكاة : إعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة.

إن التزام التاجر، وصاحب البضاعة بإغلاق المحلات، والذهاب للمسجد لهو علامة خير في فعله ذلك، وانتصار على نفسه، وعلى الشيطان. وفي فعله هذا دعوة إلى الإسلام.

وقد أسلم شاب أمريكي موظف في مدينة الدمام في مكتب الجاليات في السوق، لهذا السبب.
يقول: الذي شدني للإسلام أني أشاهد من يترك الأموال بين يديه ويخرج جميع الزبائن؛ لأجل أن يغلق المحل، ويذهب ليصلي ثم يرجع. فهذا الذي دعاه للإسلام.

وكذلك أسلم موظف هندوسي في شركة بسبب حسن تعامل رئيسه. وهذا الرئيس بين فترة وأخرى يقيم مسابقات للموظفين، مسابقات ثقافية عامة، لا ترتبط بالإسلام ولا بغيره، إنما معلومات عامة ثقافية، فتفاجأ هذا الموظف الهندوسي في بلادنا، أنه أكثر من مرة يأخذ الجائزة، جائزة الفائز الأول. فأسلم لهذا السبب.
فيقول: من إنصاف هذا الرئيس المسلم، أنه يعطيني هذه الجائزة، ولم يستبعد إجابتي، فأسلم بحسن التعامل من رئيسه.

وقد اختلف أهل العلم أيهما أفضل: الفقير الصابر، أم الغني الشاكر؟
فبعض أهل العلم قد رجح الأول، ومنهم من رجح الثاني. وشيخ الإسلام قال: أفضلهما أتقاهما لله.
لكن قال الشاعر:

من شرف الفقر ومن	على الغنى إن صح منك
أنك تعصي كي تنال	و لست تعصي لكي تفتقر

لا أحد يعصي ليكون فقيراً، لكن يعصي الإنسان ويرتكب المحرمات، والخيانة والغش؛ لأجل أن يغتني.

ومن أفضل سداد الدين وإن قل، السداد عن الوالدين، أو أحدهما. الإمام التابعي محمد بن سيرين كان عليه دين، فيقول: من أسباب وقوعي في الدين، أني سخرت من شخص، حصلت له مصيبة في ماله، فأتاه الدين بعد مدة، فقال له ابنه: أقضي دينك يا أبتي. قال: بشرط الوفاء. أي: أوفيك المال فيما بعد. فقال الابن: نعم. فوافق، وقضى عنه ابنه، و دعا له بخير، فقضى عنه ثلاثين ألف درهم. فلما مات ابنه عبد الله بن محمد بن سيرين، حتى رزق ثلاثمائة ألف درهم، وعند الله العوض.

فكم من الأجر في قضاء دين مسلم، فكيف إذا كان المدين والده، وكيف إذا كان المدين الوالد من أئمة التابعين، محمد بن سيرين رحمه الله.

يبقى السخاء والبذل صفةٌ طيبةٌ مدحَ اللهُ ﷻ بها الصحابة، وأكثر الناس يتناقلون كرم حاتم الطائي، ويروق لهم الكلام حول حاتم وبعض ما قيل عنه، ربما يكون له قصة أو قصتان محكية عنه، ويتناقلونها، ربما تعصباً، أو محبة. قد يكون في الواقع عنده شيء كثير من ذلك، ولكن الزيادات في الجاهلية كثيرة.

ولا يذكر بين الناس كرم إبراهيم عليه السلام، وكرم أبي بكر رضي الله عنه، فقد أخرج جميع ماله لله، وكرم عمر رضي الله عنه الذي أخرج نصف ماله لله، وكرم الأنصار رضي الله عنهم، كما أخبر الله ﷻ عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. من يستطيع أن يقسم نصف ماله، نصف زوجاته، نصف تجارته، نصف دوره، ويعطيها أخاه من المهاجرين؟ لكن لكثرة الأنصار وكرمهم؛ تغيب هذه المعاني عند كثير من الناس.

فهو مجتمع كريم في الأعم الأغلب، بخلاف قصة حاتم والعديد من قصصه، فالصحابة ﭫ يكفيهم مدح الله ﻷ لهم، وقال الله تعالى عن صفات أهل الجنة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، يعني: وهم يحبونه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨].

والأسير بإجماع العلماء لا يكون إلا كافراً. فلا يُعقل أنهم يطعمون الأسير المسلم بين يدي الكفار، ويرسلون المال إليه، ذلك أنهم لا يستطيعون، فهو أسير لدى الكفار، لكن الآية تُخبر أنهم يطعمون الطعام للأسير الكافر بين المسلمين.

فمن الدروس المستفادة: أن الدنيا كانت في أيدي الصحابة ﭫ، أما نحن: فالدنيا في قلوبنا. ولما تعارض عندهم مراد الله ومراد النفس ومحبة البقاء في البلد، قدموا ما كان لله. قال ابن القيم في (الميمية) في ذكر الجنة و الشوق للصحابة وذكر حال الغرباء:

وَقدْ فارَقوا الأوطانَ والأهلَ رغبةً   ولم يُثنِهِمْ لذَّاتُهُمْ و التَّنَعُّمُ

فالصحابة ﭫ كانت الدنيا بأيديهم، وحب الله في قلوبهم، فتركوا الدنيا لله. وبيننا وبين الصحابة شبر، ذلك أنهم يبحثون عن ما يصلح قلوبهم، ونحن نبحث عما يغذي بطوننا.

أيها المحتاج، لا تبذل ماء وجهك إلا عند ذي مروءة، وإذا قُصدت يوماً لحاجة فاقصد لمعرفة بفضلك. كما قيل :

ولابُدَّ من شَكْوَى إلى ذي مُروءَةٍ   يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتوَجَّع

يا أيها التاجر، يا أيها الغني، اعلم أنك مسكين ضعيف فقير محتاج إلى ربك، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥] . لا تغتر بمالك، ولا بصحتك، ولا بشبابك، فقد يفتقر الغني في لحظة. وكما كان بعض الناس يُطرق بابه لجمع الزكاة منه، ثم بعد حين وإذ به يأخذ الزكاة من الناس.

و التعفف صفة مدح، قال الشاعر:

لا تسألن بُنيَّ آدم حاجةً   و سل الذي أبوابه لا تُحجبُ

اللهُ يغضبُ إن تركتَ سؤاله   و بُنَيَّ آدم حينَ يُسألُ يغضبُ

بل لو أن أحدنا طرق كل يومٍ الباب على أقاربه وجيرانه، فقال: أعطوني كفّاً من تراب، وهذا مقدار قليل من التراب، لملَّوا منه. كما قيل:

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا   إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

أخي المسلم، لو تأملت في حال التجار من اليهود والنصارى وبعض أهل البدع في نشر باطلهم، لرأيت عجباً، ولا نقول إلا: اللهم إنا نعوذ بك من جلد الفاجر وعجز الثقة. يبذلون الأموال الكثيرة، قنوات فضائية لنشر الباطل وسب أصحاب النبي ﷺ من امرأة واحدة تتكفل بجميع التكاليف لهذه القناة. بينما تجد أن بعض الأعمال الخيرية في بلادنا يُبحث لها عن التجار، ومن أهل الخير من يريد إقامة هذه المشاريع، ويحتاج بعض الدعم من التجار، فلا يجد إلا عدداً لا يسدُّ هذا النقص.

ولا يكفي اولئك الداعمين للشر إقامة القنوات أو دعمها فقط، بل يطرقون جميع أنواع الدعم في نشر باطلهم من يهود و نصارى وبعض أهل البدع من أهل الإسلام، لكن عزاؤنا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

ولنا أن نتساءل: هل بين الفقه والفقر تزاوج؟

ذكر ابن خلدون في تاريخه: أن أكثر أهل العلم من الفقراء؛ لأن العالم وطالب العلم مشغول بالتحصيل العلمي، بزيادة إيمانه، وبالارتحال لأهل العلم وينشغل عن التجارة. ولا يجتمع تاجر وعالم، إلا لو طلب العلم وحصل العلم، ثم فيما بعد حصل على مال وفير، أو إرث. فبين الفقه والفقر ارتباط كما قال بعضهم:

قلت للفقر: أين أنت مقيم؟   قال : في عمائم الفقهاء

إن بيني و بينهم لإخـــاء   و عزيز علي فقد الإخاء

وكما قال بعضهم :

إن الفقير هو الفقيه، وإنما (راء) الفقير تجمعت أطرافها

فالفقيه: هو الفقير، والفقير فقيه. وفي مقارنة بين المال والعلم الشرعي نجد أن: المال أنت تحرسه، والعلم هو الذي يحرسك.

فضل العلم أنه يدخل معك إلى قبرك، ويستمر نفعه. بينما أن المال قد لا يدخل إلا إذا كان وقفاً، وكم يستمر الوقف؟ إلا وقف عثمان بن عفان ﷺ، فمن ذهب للمدينة وسأل أهل الخبرة يجد عمارة كبيرة قرب الحرم، وهي من وقف عثمان ﷺ، من بركة ماله.

فمهما طال بالوقف الزمن سينقطع، بخلاف العلم، فإذا علمت أحداً، ثم تعلم منه الناس، ثم تخرج عليه الطلاب، فلك الأجر إلى يوم القيامة.

المال يفني والعلم يبقى، تدفع المال لتحصل على العلم. فإذا جاء العلم حصل المال. والمال خادم والعلم مخدوم. فلا تظن أن المال سبب للسعادة، فكم من غني افتقر، وكم من غني ما نفعه ماله، بل صار ماله وبالاً عليه، وأبعده الله بسبب ماله، بسبب معاصيه، أو ربما يعاقب بخسارة، أو بمرض، فيذهب بجميع ماله.

***

باب
أخبار التجار

صالح السلمان[1]

من تجار بريدة في القصيم، بيته مفتوح كل يوم للناس في الغداء والعشاء لا يفرق بين الأيام، لا في عزاء، ولا في عيد. وما زال أولاده على هذه الطريقة، والرجل توفي قريباً.

في احدى المرات، جاء أحد عماله إليه وقد وضع السفرة في الحرم المكي، سفرة طويلة يجمع لها الفقراء وعموم الناس، فجاء إليه أحد العمال ممن كان قد عمل عنده. فبكى ذلك العامل عنده بكاء مُرّاً، فسأله عن السبب. قال: كنت أشتغل عندك، واختلست بعض الأموال، وسرقت، وخفت يدي على بعض الأموال، فأنا بين يديك تائب إلى الله. وكان ذلك في العشر الأواخر من رمضان، والرجل قائمٌ يبكي أمامه. فقال: عفوت عنك لوجه الله، لا أريد منك شيئاً.

فما كلٌّ يستطيع هذا الأمر، كون الإنسان يقدر ثم يعفو يصعب، على أن هذا الرجل قال له: اختلست منك أموالاً كثيرة، ولم يسأله. فقال له: عفوت عنك لوجه الله، وأفطر معه ثم ذهب.

وفي مرة أخرى، كان يسير بسيارته، فرأى أطفال أحد الفقراء قد ركبوا صندوق السيارة، سيارة قديمة فدعى والدهم، فحضر ودخل عنده في المكتب، وأعطاه قيمة سيارة جديدة. هذا مما حُفظ عنه، وإلا فله مواقف كثيرة.

وعندما هممت بالقراءة عنه وجمع أخباره، وكأني به أقرب ما يكون للقارئ والمستمع أقرب لأخبار وقصص الشيخ عبد العزيز بن باز رحمة الله عليهم؛ لما عنده من البذل العجيب والكثير.

---

(١) : في جمع هذه المادة وهذه أخذتها من أولاده، وجمعت قصاصات من الصحف مما جمعوها هم فيما كتب عنه من كتابات أهل العلم يعنى كأنك تقرأ عن واحد من العلماء لكثرة ما جمعوا من الكلام عنه في الصحف، من مواقف وقصص

جاء مرة إلى بيته قبيل الإفطار فرأى حادثاً عند البيت، فسأل صاحبي السيارتين. فكل منهم بدأ يتكلم عن الاخر: هذا الذي أخطأ، وهذا الذي أخطأ. فأدخلهما إلى البيت عنده، وأفطرا عنده وتعشيا. ثم أعطى كل واحد خمسة آلاف ريال للصلح بينهما، وهو لا يعرفهم.

كان له مزرعة كبيرة مليئة بالأشجار، و النخيل، والإبل، مفتوحة للناس طيلة أيام السنة، لأهل الصيد، والبر، وفي الشتاء والصيف، وللمسافرين، كلٌّ يدخل لهذه المزرعة ويعدُّ نفسه من أهلها.

اقترح عليه أحد العمال، فقال: لو وضعنا بعض (الخيش) على التمر حتى لا تأكله العصافير، فتتلفه قبل وقت النضج. فأجابه: دعها، والرازق الله. وفي تلك السنة كما يقول أبنائه ومن حوله: كانت من أكثر السنوات، فتصدق، وأهدى، وأدخل أضعاف أضعافه إلى السوق، فباعه برخص، وهو يتعمّد البيع برخص.

واشترى هذه المزرعة أحد كبار التجار منه، والناس معتادون على ذلك الرجل الكريم صالح السلمان، معتادون على كرمه و فتحه لمزرعته كل وقت لكل قادم، سواء أكانوا من العوائل أو من الشباب، وكل من مر بها يدخل. فاشتراها هذا التاجر من صالح السلمان، والناس معتادون على التاجر الأول الكريم، فأخذوا يطرقون بابه؛ يريدون الدخول، وما كان من التاجر الجديد إلا أن أغلق عليهم الأبواب، فكثروا عليه، وما احتمل هذا التاجر، فذهب لصالح السلمان وطلب الإقالة منه، فقال: كل ما انتفعت به من الإبل، وما أكلته من النخيل والثمار لك، و رُدَّ ما شئت من المال.

من عادة هذا الرجل: أن يذهب كل يوم فجراً مع أحد التجار من أصحابه لبيوت الفقراء، يوزعون بعض الصدقات. يضع الصدقات عند الباب بيده، وعمره قد قارب الثمانين، يضعها عند الباب، ثم يطرق ويذهب، ولا يعلم به أحداً. وربما يشاهده بعض الناس.

هذا الرجل يسابق المؤذن في المسجد، ولو تأخر المؤذن قليلاً أذن قبله .

في ظهر يوم وفاته جاءه أحد موظفي الإمارة، فقال: أني أخطأت بحق الأمير، أو تسرعت في شيء في موقف، فقلت كلمة، أريد الشفاعة، في ظهر يوم وفاته وقد توفي بعد وضوئه لصلاة

المغرب، فذهب معه للإمارة للشفاعة، وقد أثنى عليه أمير القصيم لحسن أخلاقه وشفاعته في ذلك اليوم مع أنه مريض، وهو لا يعرف ذاك الموظف.

وبعد وفاته، جاء لأولاده أكثر من مائتي امرأة، كلهن يردن عطايا من أبيهم، فكنَّ معتادات في كل سنة يأخذن من عطاياه.

جاءه أحد الشباب مرةً يطلب منه ورقة. قال هذا الشاب: إني لست ذا نسب، وليس عندي أقارب. ولو ذهبت لآل فلان لأتزوج منهم طالباً ابنتهم ما قبلوني، ولن يقبلوا. وأريد منك ورقة أنك تعرفني، وأني من معارفك .

فقال له: إذا أردت أن تذهب لهم في يوم من الأيام فأخبرني. فلما حدد الموعد، وجاءه، ذهب معه بنفسه، وحضر الخطبة، بل قال: جئت أخطب لابني فلان، وما أردتم من المهر فهو علي. وهو لا يعرف ذلك الشاب.

السيارات التابعة لشركته وعماله جعلها وقفاً لجميع الحلقات والمراكز والأنشطة والحج الخيري. هذه السيارات كانت تابعة لعماله، وفي أوقات جلوس العمال في سكنهم يحرك هذه السيارات، ولا تقف، ذلك في مواسم العشر الأواخر، وفي الحج، يجعلها وقفاً لله، لمن أراد أن يذهب عليها، وليس عليه إلا أن يقدم طلباً مع تزكية من أحد المشايخ فقط، ويذهب بالسيارة.

أحد أبنائه يخبرني: لما كنا في الرياض قبل قرابة الأربعين سنة، في صغري، كان يأتينا ضيوف باستمرار، فيقول: ليس عندنا خدم. وهم الآن قد فتح الله عليهم، وعندهم خدم وسائقين، فيقول في صغري أشاهد الشباب ومن حولي يلعبون ويفرحون، وأنا مشغول بمساعدة أمي في المطبخ وغسيل الأواني. فقلت لأبي: لو غيرنا، يعنى لو استخففت من بعض الضيوف. فقال: يا ولدي، اليد العليا خير من اليد السفلى.

يقول: بعد هذه الكلمة، وقد كانت كلمة خرجت من القلب، من قلب كريم يعي ما يقول. فيقول: بعدها، والله ما تضايقت من أي شخص بعدها من ذلك اليوم إلى زيارتي له قبل سنتين. فرحمة الله عليه .

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

همسة

من المشاريع والمقترحات للتجار للنفع العام

تزويج الشباب:

عدد من التجار يتبادر لذهنه مباشرة بناء مسجد، وأكرم به من مشروع، بناء المسجد، وتفطير الصائمين في رمضان، مبردات المياه عند باب المسجد، لكن هناك ما يلزم أن يسأل عنه التاجرُ أهلَ العلم بحثاً عن أبواب الخير؛ لأنه قد يتراءى له شيءٌ مناسب في نظره، لكن يخفى عليه أشياء.

شراء المساكن للأرامل والمطلقات:

ليرغب بهن الأزواج، وقد كان يفعل ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمة الله عليه لما كان قاضياً في الخرج، وهو دون الثلاثين من عمره، عندما تعين قاضياً في الخرج، فكانت هذه فكرته، أن أي امرأة مطلقة، أو أرملة، يشتري لها مسكناً بتمويل من التجار، ومما يبذله من ماله، حتى يرغب بها الخطاب، كذلك وضع الأوقاف المتنوعة وتعديل بعض الأوقاف وبعض الوصايا.

***

صالح الراجحي

أحد المشايخ يخبرني أنه شارك في ندوة في إذاعة القرآن حول ما يتعلق بأهمية الوقف، فضله، وأحكامه. فيقول: بعد نهاية الحلقة جاءنا قرابة الألف اتصال للإذاعة في تعديل وصايا، وأوقاف من عدد من التجار، فيقول: فيما أعلم أنه لا يُعرف عبر التاريخ رجلاً يدفع من ماله فيحج على حسابه عشرة آلاف شخص سنوياً.

أتمنى أن يُعرف في التاريخ أفراد قاموا بذلك. عشرة آلاف حاج يحج سنوياً على نفقة صالح الراجحي، الذي يمتلك أكبر مزرعة نخيل في العالم، وقد دخلت موسوعة (جينيس)، فجعلها وقفاً للتوزيع في الحرم المكي.

اعتنى وأنفق على طباعة الكتب وتوزيعها على طلاب العلم، والمساجد، والمحتاجين من طلاب العلم. وتباع هذه الكتب بسعر مخفض في متناول الناس.

أضف إلى ذلك بناء المساجد، سداد ديون السجناء، تزويج الشباب، حتى صارت أعماله الخيرية كبيرة، وكثيرة متنوعة، فله في كل باب من أبواب الخير سهم، وله أكبر وقف في التاريخ فيما أعلم، فوقفه يُقدَّر بقرابة المليار ريال -رحمة الله عليه-.

وهو رجلٌ مرتب، محافظ على وقته، يدير أعماله بنفسه، متواضع، ورغم ذلك فإنه لا يأنف أن يبين في سيرته: كنت حمالاً في سوق الخضار، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي، لكنه يقول: هذا من فضل ربي.

ومن ميز هذا الرجل: أنه ليس له دعم لقنوات الفساد، ولا لمراقص، ولا للدجل، بل كل مشاريعه تعود على النفع للبلاد ، ويصدقُ فيه :

لعمرك ما الرزية فقد مال　　ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد شهم　　يموت لموته خلق كثير

***

سليمان الراجحي

سليمان الراجحي، التاجر المعروف، صاحب الجامع المشهور (جامع الراجحي) في الرياض والقصيم، وحفر الباطن، وفي عدد من المدن.

يُذكر أن له أستاذٌ اسمه (علي شاكر) شامي أو مصري، درّسه في المراحل المتقدمة في حياته، فحبب إليه العلم، والدروس، والحفظ. أعطاه يوماً ريالاً واحداً (فقط)، فكان له أبلغ الأثر في نفس هذا الرجل الوفي.

هم الرجال وعيب أن يقال لمن　　لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

فمنذ عام ١٣٩٣هـ والشيخ سليمان الراجحي يضحي عن أستاذه، ويتصدق، ويحج عنه، وبنى عنه مساجد كثيرة، بل كتب في وصيته لأولاده أن يستمروا على وقف الأستاذ (علي شاكر)، ويقول: لازلت إلى اليوم أعلم أني لم أوفّه حقه. هذه الرجولة وهذه المروءة، فهو لم ينس ريالاً كان سبباً لتثبيته في طلب العلم.

**

جمعة الماجد

من الشخصيات الاقتصادية المرموقة: الشيخ جمعة الماجد. من تجار دولة الإمارات.
هذا الرجل أنشأ كلية للدراسات الإسلامية، فكان هو الذي يدفع الأموال والمكافآت للطلاب؛ حتى يتعلموا العلوم الشرعية؛ فيتولوا التدريس والخطابة في الإمارات.

وهو صاحب مركز جمعه لجمع التراث الإسلامي وترميم المخطوطات وجمعها والمحافظة على الكتب. نال هذا الرجل جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام. وله بيت يضم خمسة آلاف يتيم و فقير، كلهم ينفق عليهم.

**

الحاجة زبيدة من بلاد المغرب

من الشخصيات التي لا نعرفها، لكن يخبرني زوج ابنتها، فيقول: الحاجة زبيدة من ذوات الأموال في بلاد المغرب، بيتها كبير جداً، فجعلت هذا البيت وقفاً لمرضى السرطان في فترة النقاهة، يتعالجون، ويأكلون، ويشربون، وتغدق عليهم الأموال، كل ذلك على نفقتها. وجزء من البيت المذكور خصصته لتعليم الفتيات والشباب القرآن الكريم .
تذهب هذه المرأة كل أسبوع لدار العجزة ، وتعطيهم الفواكه، والمواد الغذائية، والأموال .
تعتكف كل سنة في الحرم المكي، فتأتي معها بالأموال الكثيرة للصدقات، وتجاور حتى نهاية الست من شوال، وتقضي أغلب وقتها في الحرم في التعبد، وتقول: أخشى أني أشاهد حراماً في شهر رمضان. ويصدُقُّ فيها قول الشاعر :

فلو كان النساء كمن ذكرنا　　　لفضلت النساء على الرجال

باب
أخبار متفرقة لعدد من التجار

تاجر أعرفه توفي -رحمه الله-، أخبرني ابنه: أنه يضحي كل عام عن إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، ويضحي هذا الرجل أيضاً عن عدد من أهل العلم.

وكان هذا التاجر يغضب إذا نقل له في مجلسه أي خبر مزعج أو مؤذي عن طالب علم، يقول: هم نور البلد، هم مشايخنا.

وهذا الرجل متدين، ومن أهل الخير، بل يصنف من المشايخ في تجارته، وحُسن أخلاقه، وعبادته، وقد حصل له انكسار أكثر من مرة في تجارته.

كان باراً بأمه، ينقلها معه أين حلّ، ذهب للرياض فأخذها معه، والكويت فأخذها، ثم عاد للرياض، ثم القصيم. و عميت اخر عمرها، وكان أول ما يأتي إليها يقبل رأسها ويدها، ويرفع قدمها ويقبل باطن قدمها.

يقول ابنه: وكان قد تزوج زوجتين، ومعه أولاده، وأمام زوجاته وأولاده كان يقبل قدم أمه.

فيخبرني ابنه يقول: الله أعلم أن تجارته والبركة في ماله أنه بقضاء أشياء كثيرة من حاجات طلاب العلم والفقراء في منطقته، رغم الخسائر التي مرت عليه، وأكثر خسارة عانى منها: انكسار في سوق الإبل، وفي الغنم، وفي السيارات، وفي المساهمات، لكن انتهت. ويقول: الله أعلم أن بركة ماله لبره بأمه.

وبعض التجار أقام ملتقى أو منتدى يلتقي فيه العلماء وطلاب العلم، والمثقفون، والأدباء الإسلاميون، ومن نحى نحوهم، ويكون هذا الملتقى لاستضافة المشايخ. وهذه من الأعمال الخيرية التي صدرت من خلالها كتب ومحاضرات نافعة.

وهذا أحد التجار، يقيم إفطاراً جماعياً كل سنة في صالة أفراح كبيرة لطلاب وطالبت دور الرعاية الاجتماعية من الأيتام واللقطاء، وقد شاركت معهم سنة، فرأيته يستقبلهم كأنهم أولاده، ويدعو عدداً من المشايخ والوجهاء والتجار. كأنه حفل كامل، حفل إفطار، يحرص فيه أن يفرق التجار والمشايخ وطلاب العلم وأصحابه، يفرقهم على جلسات هؤلاء الأيتام والصغار، فيجلس كل شخص مع عدد من الأيتام، يفطر معهم، ويمازحهم. نسأل الله أن يبارك له في ماله .

وإليك خبر التاجر سعيد بن لوتاه من كبار السن، من تجار الإمارات: يمتلك (بنك دبي الإسلامي). وقد وفّر المساكن المخفضة في زمن الغلاء، وانشأ مكتب تربية وتعليم إسلامي يخرّج الطلاب دون العشرين مؤهلين للتدريس الجامعي. وهذا من حرصه على نشر الدعوة والخير.

وأخبرني بعض التجار أنه ذهب إليه بشأن مشروع خيري، يقول: سلمت عليه بعد الصلاة. فقال: انتظر قليلاً، حتى أنهي الأذكار، فانتهى من الأذكار. فلما أردت أن أقوم إليه وأسلم عليه، قام وصلَّى ركعتين وأطال في الصلاة.

فيقول: أخبرته بما عندي من مشروع يتعلق بمسابقة قرآنية في رمضان. فأعطاه ما أراد. وهذا الرجل مهما طلب منه الناس، كل من يدخل عليه في مكتبه يخرج بشيء منه، ولو بخمسمائة ريال، أيّاً كان الداخل عليه.

تعرض لحادث قبل مدة، ومن شاهد السيارة ظن أنه قد مات، لكن الله ﷻ أنجاه. ولعله بدعوات الفقراء والمحتاجين.

دُعي هذا الرجل لنيل جائزة البر في منطقته، وعند تكريمه سأله القائمون عن هذا الحفل أن يتكلم عن أعماله، فقال: ما عملت من أعمال هذا الأمر بيني بين ربي، أما ما ظهر لكم فإن أردتم أن تتكلموا عنه، فتكلموا.

ومن أخبار التجار، تاجر يدفع الأموال الكثيرة لإخراج السجناء، ممن عليه ديون بحق، لا المتلاعبين بأموال الناس. فيخبرني وكيلٌ من وكلائه في الأعمال الخيرية، يقول: يدفع لبعضهم ثلاثمائة ألف ريال دفعة واحدة، إذا تأكد أنه أصيب بضرر أو جائحة. وإذا كان الدين على امرأة، أو أرملة، أو مطلقة، لا يتردد أبداً في دفع المال، مهما بلغ. و يتكفل سنوياً بتكاليف ثمانمائة حاج.

وتاجر من كبار السن، محافظ على الصلاة. وأخباره أنقلها عن زوج ابنته، فهو من يروي عنه، وهو وكيله في المال والأعمال الخيرية، فيخبرني عن بعض أخباره وهو رجلٌ كبير بالسن، وما زال موجوداً، محافظ على الصلاة، لا يجد رجلاً محتاجاً من عائلته إلا أعطاه المال.

أحد أبناء عمه كان قد شارك بتجارة مع عدد من الأشخاص فخسر ثمانية ملايين ريال، فدخل في حصة ابن عمه، وسدد الديون التي عليه، واشترى الشركة كاملة، وجعله رئيس الشركة، وسلمه المال، وأعطاه الصلاحيات الكاملة، وخصص له راتباً شهرياً حتى انتهض وسدد ما عليه.

من أعماله: الحج السنوي لجميع أفراد عائلته من الرجال و النساء، ولا يمكن أن يوجد أحدٌ من أقاربه، إلا وقد حج على حسابه، ولو كانوا أغنياء. فيختار لهم أحسن الحملات، بل في سنة من السنوات بحثوا عن أحد منهم يريد الحج فلم يجدوا أحداً من أقاربه. وهذه البركة، لأن بعض الناس يكرم الأبعد، ولا يعرف، ولا ينتبه لأقاربه، ولا لأولادهم.

ومن أعماله: برنامج تجاري، لتشغيل بعض شباب أقاربه، يعملون لديه في شركاته، ويعطيهم من الأموال، ويربيهم، ويشتد عليهم أحياناً؛ لتخريجهم تجاراً أقوياء، ولم يكن لينقطع عن ذلك طيلة تجارته، فإذا انتهض الشاب، ووصل إلى مرحلة الزواج، استأجر، أو اشترى له بيتاً. هذه غرائب لمن سمعها، كأنه خيالات، لكن يوجد من هذه الشخصيات.

فإذا انتهضت حال الشاب من أقاربه أعطاه بيتاً إما بالتمليك، أو إجارة، ثم زوجه. وهذا الرجل قد خسر قبل عشرين سنة قرابة الخمسين مليون ريال، ولم يتأثر، أو يتغير على أقاربه، استمر في خيراته، واستقباله الناس، وتعامله معهم، ولم يذعن، أو يضعف، ولم يستكن لهذه المصيبة.

وأخبره أحد الأكابر، فقال: إن الملك فهد رحمه الله يقول: لو أن فلاناً زارنا وسلم علينا، وطلب سداد الديون، لسددت عنه جميع ديونه. فقال : لا، إنما أتوكل على الله، والغني هو الله عز وجل.

وكان يقول: إن بعد الظلام نوراً، أو مصباحاً. يردد هذا الكلام كثيراً، ذلك في وقت وقوع الكارثة عليه، فما هي إلا خمس سنوات، حتى عاد كما كان.

يدفع الزكاة ومثلها معها؛ خشية من وقوع شبهة في ماله، مع أن تجارته كلها نقية. استغنى بالله عز وجل، فأغناه الله عن الخلق.

توفي تاجر من زملاء هذا التاجر. فاختصم أولاد التاجر المتوفى، وهما من زوجتين. اختصموا على التركات والميراث والشركات. فدخل بينهم بصلح، وأعطى أبناء الزوجة الأولى كل ما يريدون لله، وفي الله، ولم يأخذ منهم مقابل. وأعطى أبناء الزوجة الثانية كذلك، حتى صلحت أحوالهم، ثم تركهم. وهذا الرجل بحق ، يصدقُ فيه قول الشاعر :

هُم الرِّجالُ وغَبْنٌ أن يُقال لِمَن ... لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصْفِهِم رَجُلُ

ومن الأخبار ما ذكره الشيخ محمد المختار الشنقيطي عن والده -رحمة الله عليه-، وإن لم يكن من التجار، أنما كان له مزرعة، فهذه مناسبة ذكره.

فيقول ابنه: لا يأتي نصف الشهر إلا وقد اقترض ديوناً للصدقات؛ لأنه وجيه، ويأتي إليه الناس لتفريج الكروب.

ويذكر مرة: أنه أتى بعامل لحفر بئر في المزرعة، وكلف هذا الحفر مائة ألف ريال، ولم يجد الماء. فجاء العامل أو المسئول عن الحفر فبدأ يمهد لوالد الشيخ محمد، يكلمه عن الصبر على المصائب، يمهد له أنه ما خرج الماء، فقال: لا تزيد الكلام، والله لو ذهبت جميع أموالي إني راض عن الله، وأني محب لله، فيكفينا هذا الرضا عن الله عز وجل.

ويقول الشيخ محمد: وكان يوصيني كثيراً أن أتصدق بتمر هذه المزرعة، ولا يبقي فيها إلا ما يبيعه لإصلاح المزرعة، ولا يبقي شيئاً. أما باقي التمر، فللصدقات.

***

باب
تنبيهات

احذر أيها التاجر من تأخير الزكاة فإنها فريضة الله، وليس لك منة على الله، فالمنة من الله عليك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤].

واحذر من المماطلة في الديون، أو عدم السداد؛ فإنه يغفر للشهيد في سبيل الله كل شيء، إلا الدين.

واحذر من تأخير الصلاة، أو اللهو في الدنيا؛ فإن الله ﷻ يقول: ﴿ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون:٩]، وقال مادحاً أهل النور في سورة النور: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور:٣٧] .

أخي الكريم، احذر من تأخير رواتب عمالك، فالضعيف المسكين العامل جاء إليك لهذه البلاد أو لبلدك في أي بلد كنت، جاء على شرط، والمسلمون على شروطهم. فالضعيف المسكين ينفق هذا المال على أم ضعيفة تنتظره، أو على أولاد محتاجين لعطفه، لكن رضوا بالبعد عنه بإرساله هذا المال، ولا تنسَ قول النبي ﷺ: « أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »[1].

يا أيها التاجر، احذر من التكبر والعجب، والكبر والغرور، قال الراجز:

واجتنب الغيبةَ إن الغيبةْ منها النجاة سهلةٌ قريبةْ

والكِبْرَ إن الكِبْر كان سببا لطرد إبليس إذْ إبليس أَبى

فما الذي أهلك قارون سوى التكبر، حكى الله خبره في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦]، والذي طرد إبليس من رحمة الله هو الكبر.

وإياك أن تفسد بنات المسلمين وشبابهم بتجارة محرمة، من خلال بضائع، أو ملابس، و نحوها. واحذر أن تفرق بين أبنائك، كما كان أحدهم يعطى ويكرم ابنه؛ لأنه من أبناء الزوجة الجديدة، بينما يمنع الأول؛ لأنه من أبناء الأولى. وكما حدث لأحدهم، كان يعطيه؛ لأنه قريب، ويخدمه، في حين أن الآخر لا يعطيه، بل يمنعه ويقمعه؛ لأنه من ابن الزوجة المسكينة الأولى، وهذا النوع من أنواع التفرقة سبب في القطيعة، فلا تسبب القطيعة بين أولادك.

يا أيها التاجر، إياك والبخل، وأي داء أدوأ من البخل!

(البخيل فقير لا يؤجر)[2] كما قال بن القيم رحمه الله ، بمعنى: أن الإنسان لو كان فقيراً، لاحتسب الأجر. يؤجر إذا احتسب الأجر عند الله وصبر، لكن إذا كان غنياً وبخيلاً، مقتّراً على

---

(١): رواه ابن ماجه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. و صححه الألباني.

(٢) : الفوائد لابن القيم (١/ ٥٠)

نفسه، كما يقال في الأمثال عند العرب في التعبير عن الشيء القليل: (لا يخرج الشيء، إلا كما يخرج در الأرنب)، أو (كما يشرب الضب الماء)، أو (إذا اجتمع التمساح أو الحوت و الضب)، فهذه من الأمثلة التي تصدق على البخيل.

وبعضهم لا يخرج ريالاً، إلا وروحه تخرج معه، وتتابعه. نسأل الله العافية. فالبخل مرض، وبعض الناس يزين له سوء عمله، يظن أنه من باب حبك الأمور وضبطها، وربطها وتربية أولاده، وتربية من معه، وهو في الواقع بخيل، لكن لو كان الإنسان يريد أن يبذل في رياء و سمعة و مظاهر، وتحت الأضواء وتغطيات القنوات، ويقابل بشكر سمو الأمير وشكره الشيخ فلان، وشكر العلماء، لبذل لأجل ذلك الأموال. وفي الواقع في بيته شديد، ولا يخرج النفقة على أولاده.

و يحلف أحد المشايخ بالله أنه يعطي من الزكاة لبعض أولاد أحد أكابر التجار في بلده. فإذا كان هذا حاله، مسكين يركب سيارة لا تليق بمثله من باب البخل، ليس زهداً. فلو بذل لجميع الناس الصدقات، ويعامل الناس بأريحية وكرم، وهو يقتر على نفسه فقط، نقول أنه زاهدٌ و الحالة هذه، لكنه حقيقةً ليس بزاهد، إنما هو البخل. فالبخيل فقير لا يؤجر، بغيض لأهله، بغيض للناس، يتمنون فراقه، يفرحون بموته، يتمنون مرضه، ويتمنون متى يكتب الوصية. فأكرم الناس بمالك وكلامك وحالك، وتمثّل قول الشاعر(١):

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

لا تمنع أولادك من حقوقهم ونفقتهم، فيرجون وفاتك، وينتظرون فراقك ليرثوا مالك.

ولا تُحمّل موظفيك ما لا يطيقون، ولا تكلفهم ما يعجزهم.

واحذر أن تأتي بعمالة غير مسلمة، فإن فعلت ، فاستغل وجودهم واربط عمالك بمكاتب الدعوة، وأحضر لهم الدعاة. فو الله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم.

---

(١) : من قصيدة للمتنبي بعنوان: (لا خيل عندك تهديها ولا مال).

احذر بيع الدخان، والمجلات الفاسدة المفسدة، والكتب الساقطة، والروايات المضلة؛ فهي من أخبث التجارات، ولا تنظر إلى من هلك كيف هلك، ولكن انظر إلى من نجا كيف نجا ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾ [الأعراف:٩٦]، فالعبرة بالبركة، لا بكثرة المال.

واحذر أن تنشّئ أولادك على الترف والنعيم والتنعم والرخاوة، أو تجلب لهم ما يضعف دينهم، أو يفسد أخلاقهم. فأنت المسئول عنهم، ولن ينفعك إلا ولد صالح يدعو لك، ولا بارك الله بعد العرض في المال.

احذر أن تأذن لأبنائك بالسفر للمحرمات بحجة أنهم من آل فلان، أبناء التاجر فلان، ما يقول الناس عنا لو علموا أنّا نقضي إجازتنا في مكة والمدينة؟ فهذه نفسية بعض الناس. وجُلّ اهتمامهم: ماذا يقول الناس عنا لو كان زواجنا في قصر أفراح تكلفته عشرين ألفاً؟ لابد أن يكون في فندق بمائة ألف، وهكذا. فبعضهم يكلف نفسه آصاراً وأغلالاً ما أمر الله بها، ولو أمر الله بالزواج. فهذه التكاليف لو أمر الله بها لبحثوا عن فتاوى شاذة، وبحثوا عن من يرخص لهم من أهل العلم. فلله الحمد أن ديننا ليس فيه تكلف .

إياك أن تكون داعماً لقنوات سيئة، أو راعياً رسمياً لبرنامج فيه إفساد لبلدك وأبناء مجتمعك

فلا تدفع بكفك غير شيء   يسرك في القيامة أن تراه

ولا تجعل بينك و بين الفقير والمسكين والأرملة والضعيف، وحتى طالب العلم والشيخ، والجمعيات الخيرية، لا تجعل بينهم وبينك حواجز من الموظفين. فقد ينقطع عنك الكثير من الخير بسببك؛ لأنك وضعت حاجباً شديداً.

أيها التاجر، إذا جاءك صاحب الحاجة، فأشعره أنك أنت صاحب الحاجة، وله الفضل مجيئه إليك، ولا تشعره بنقص حاله. وهذا من التواضع. فلا تمُن بمالك على المشايخ، ولا الجمعيات، فاحمد ربك، المنة لله، ثم لهؤلاء المشايخ والجمعيات الخيرية؛ أنهم مكنوا هذه الجمعية من استقبال مالك، فإن لم يأخذوا هذا المال، فمن يتولى توزيع هذه الصدقات؟

ومن المسائل الفقهية التي يشير إليها بعض أهل العلم ولا يعلم عنها كثير من التجار : أن التاجر إذا كان عنده مال لتوزيعه كزكاة مثلاً، فيجب عليه أن يفرغ شخصاً من عماله، أو من الجمعيات الخيرية غير العاملين عليها. وتفريغه لأحد عماله أو من الجمعيات الخيرية، ويعطيهم مكافئات لاستقبال الزكاة وحسابها وتفريقها؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فليس له منة أبداً، فالمنة لله، ثم للجمعيات الخيرية.

روي عن النبي ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفات، والهلكات»[1]، وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: (مَنْ مَشَى بِحَقِّ أَخِيهِ إِلَيْهِ لِيَقْضِيَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ صَدَقَةٌ. وَمِنْهَا إِنْظَارُ الْمُعْسِرِ)[2] . وذلك حتى لو لم يتم الأمر، وكذلك لو شفعت شفاعة طيبة بوجاهتك. وعن جاهه ماذا عمل به؟

لو ردت هذه الشفاعة، فما علي أن أسعى، وليس علي إدراك النجاح. وإذا كان الله قد غفر لبغي من بني إسرائيل أن سقت كلباً، فكيف بمسلم سقى مسلماً على عطش؟ أو كساه على عري؟ أو شفع له عند وجيه فسدد له جميع ديونه؟.

***

(١) : رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٠٨٦). و صححه الألباني (١٩٠٨).

(٢) : جامع العلوم و الحكم (٢/ ٩٠).

باب
فضيلة و بركة الصدقة

من نفع الصدقة، أن أحد الأشخاص مرض وهو صغير، وكان والده يحبه حباً شديداً، ويدعو له في قيام الليل ويبكي ويتأثر له. فزاره يوماً ما أحد العلماء، وقال له : لو تصدقت .

يقول الرجل: خرجت بصدقة معي، فخرجت بنصف ما عندي في البيت، وأحداث هذه القصة هذه قبل أكثر من خمسين سنة تقريباً، ولم يكونوا يملكون إلا القليل، لكن كما يقال: سبق درهم مائة ألف درهم.

فأخرج نصف ما في البيت، وهو فقير، يقول: وزعته، وعدت للبيت، وكان الولد لا يمشي، يعاني من إعاقة أو مرض مفاجئ، يقول: لما طرقت الباب فإذا بالولد هو الذي يفتح لي بفضل الله عز وجل ورحمته.

وذكر الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله قصة له في (الذكريات)، تحدث عن نفيه، وقد عاش مأساة مدةَ رمضان كاملاً وعيد الفطر، بعيداً عن زوجته وأولاده، ترك الشام وذهب لإندونيسيا. وفيها قصة تتعلق بالصدقة.

وفي (الذكريات) للطنطاوي عن أحد شيوخ الشام: أنه كان كثير الصدقات، ولربما قابل الفقير في شدة البرد فيخلع ردائه وما عليه من ثياب الشتاء فيعطيه للفقير. وهذه القصة تبين كثرة صدقاته، يقول:

ومرة في عصر أحد أيام رمضان، جلس ينتظر الإفطار، وبدأت زوجته تعد الأكلات و تجمع له عددا منها ، و في أثناء جمعها و وضعها للطعام طرق عليه فقير، فاستغل غفلة من زوجته و تصدق بجميع الإفطار عليه، وذهب بالإفطار ذلك الفقير إلى بيته. ثم دخلت زوجته، وقالت:

والله ما أبقى معك، والحياة ما تنفع معك، وبدأت تؤنبه، وتتكلم عليه، وهو ساكت، فما مرت عليه نصف ساعة، كما يقول الشيخ، حتى طرق عليه في بيته من بعض الخدم، من خدم أحد الكبراء، مُقبلاً بأنواع من الطعام والحلويات، ويسألهم: أهذا بيت الشيخ فلان؟ قال: نعم. قال الخادم: تفضل، هذه هدية لك. قال الشيخ: أيش السبب؟ قال: أن ذاك الرجل الكبير، أو الرجل الوجيه عزم عدداً من الأشخاص فتأخروا عليه، وغضب منهم، وقال: والله لا يأكله إلا الشيخ فلان. وهذا من غير علم بهذه الصدقة، فالله عز وجل أعطا ه، و ما عند الله خير وأبقى.

***

باب
أخبار متفرقة

هذا تاجر يوزع في نهاية اليوم كل ما بقي من محله (الخضار و الفواكه)، كل ما بقي في نهاية اليوم، أي: الساعة العاشرة والنصف، أو الحادية عشرة، لا يغلق المحل إلا وقد أخلاه بالتوزيع، فيقف عند محله عدداً من الفقراء.

**

رُئي تاجر مصري من المحسنين أهل الخير قرب المسجد النبوي يوزع الصدقات، فمن باب الفضول سأله أحدهم، اقترب منه، وقد استلطفه ولمس منه التواضع، فسأله عن سر توزيعه

للصدقات الكثيرة قرب الحرم، فقال: ولله الحمد، سنوياً آتي بزكاتي و صدقاتي، أوزعها على فقراء حرم المدينة، وأحياناً في مكة. ويكمل فيقول: لا أعود، حتى يضاعف الله عز و جل تجارتي.

**

وقف شابٌ عند جهاز الصراف لأخذ راتبه البالغ خمسة آلاف ريال. فرأى أرملة عند الصراف واقفة شكت له الحال والضعف، فتحرك الإيمان في قلبه، وأعطاها كل ما يملك، جميع راتبه.

وبعد يومين، جلس مع بعض التجار في مكتب عقار، وكانوا يتبايعون، ومن ميزة بعض تجار العقار أنهم إذا اجتمعوا وزارهم أحد وتبايعوا بحضرته، فإنهم يتقاسمون مع الجلوس سعي تلك الصفقة، وهذا من المروءة وحسن الأخلاق، وله أصل في الشرع ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى﴾ [النساء:٨] ، فهذا من عادة العقاريين.

فكان ذلك الشاب جالساً معهم، مجرد زيارة، لا يريد منهم شيء، لا جزاءً ولا شكوراً، فتمت لهم بيعة طيبة، وكان من نصيبه عشرين ألف ريال. بعد ذلك اليوم الذي حدثت فيه تلك القصة بيومين.

**

تاجر من تجار الكويت يخبرني أحد المشايخ عنه: أن هذا التاجر متواضع عابد يكثر من صيام النوافل، عنده تجارات في أحد الموانئ في الهند، فجاءه اتصال مرة يسألونه عن ماله؟ يقولون: كيف حصل حريق لمن حولك من المتاجر أو من البضائع الموجودة حول بضائعك، وبضائعك لم يأتها شيء؟ فقال: أنا ولله الحمد مسلم أولاً، وأزكي، وأعبد الله ﷻ ، فهذا الذي حفظ مالي.

وكما ذكروا في بعض الحرائق في المملكة عن بعض الأسواق الشعبية القديمة احترق عدد منها، وبقيت بعض الدكاكين لمن كان يزكي لم تُصب بشيء.

أحد التجار يصرف ماله للصدقات، فيصرفه إلى فئة ريالات، وخمسات، وعشرات، ويذهب بنفسه بسيارته، ويقف عند عمال البلدية في ظهر وعصر رمضان، في شدة الحر يوزع عليهم بيده، وهذا التاجر لا يؤخر رواتب عماله، حتى لو كان خارج البلد، فلابد أن تُصرف بأسرع وقت.

**

فكرة طيبة يقوم بها أحد التجار، وأعرفه، وقد بُني بسببه عدد من المساجد، الطريقة كما يأتي :
يأتي لحي ليس فيه مسجد وليس عندهم أرض لمسجد يأتي لهم بالغرف المتنقلة، فيجعلها في ذلك الحي بالمكيفات، الصوتيات، العامل، المؤذن، الإمام، وكل شيء، فيجمع لهم كل شيء، فيضع لهم هذا التاجر ذلك المسجد متكاملاً، فإذا اجتمعوا و تعارفوا، يرسل لهم من يخبرهم أننا سنأخذ هذا ننقله إلى مسجد آخر أو إلى حي آخر يحتاجونه.
فإما أن تسارعوا باستخراج هذه الأرض والجمع لها والبحث عن أحد التجار للبناء، وإلا أخذناها منكم، فيسارعون ويرتبون شئونهم، ثم إذا رآهم قد بدئوا واقعياً بترتيب المسجد واستخراج التصريح له يترك المسجد عندهم، حتى ينتهوا من المسجد، فبنيت مساجد كثيرة بهذه الطريقة.

فلا تحتقر ما تقدمه من الخير، وإن قليلاً، فالقليل عندك يعدُّ كثيراً في نظر المحتاجين. والمال وإن قلّ خير من الحرمان. فكون الفقير يأتيه ريال أو درهم، أو دينار، أو جنيه خير من الحرمان بلا شك.

***

فصل

أخبار العلماء

تمهيد

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. القائل لنبيه: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] .

فهذه باقة من أخبار علمائنا، أخبارٌ متفرقة لعلماء معاصرين، سأتطرق في هذا الفصل عن ما يتعلق بالعلماء مع الكتب، والسجن، والأذى، والقتل، والإخراج من البلد، وحسن الخلق، والحفظ، أو حفظ الوقت، أو عن قراءة الكتب.

***

باب
العلماء و الكتب

أحوال العلماء مع الكتب كثيرة، فيما يتعلق بالقراءة و الإهداء، ونحو ذلك. وقد اشتهر بين أهل العلم و الفضل إهداء الكتب، من أولئك:

الشريف السيد الحسني الشيخ نعمان الألوسي العراقي

والمولود في بيت علم وسط بيئة جهلٍ، فالبيئة المحيطة بهم في العراق بيئة خرافات وجهل، وتصوف، ولكن بيت الألوسي كان بيت علماء. وكانت لهم القيادة والريادة العلمية في بغداد، وبين الشافعية، وكذلك بين أوساط أهل السنة. فلما حج نعمان الألوسي، مرّ في طريقه وهو ذاهبٌ إلى الحج مرّ بمصر لمتابعة تفسير والده التفسير المشهور (روح المعاني). ففي ذهابه لمصر اطّلع على كتاب (فتح البيان)، وهو تفسيرٌ للشيخ صديق حسن خان، من علماء الحديث في الهند.

اطلع عليه، فتمنّى أن تكون له من هذا التفسير نسخة. فلما حج سألَ أهل مكة عن صديق حسن خان، وهل هو موجود، وسألهم عن كتابه، ومؤلفاته؛ ذلك أنه أحبه وتمنّى لقياه.

فدلّه الناس على الشيخ أحمد بن عيسى، من علماء نجد، من أهل أُشيقر ، وقد كان ذهب للتجارة في مكة، فاهتمّ بالتجارة مع تعليم العلم. فالتقى نعمان الألوسي بأحمد بن عيسى النجدي، الذي يسمونه الوهابي. فلما التقى به وجد حسن الخلق والتعامل، فأهداه هذا الكتاب هدية، فما وصل نعمان الألوسي إلى العراق، حتى أرسل الأشواق والمحبة لأحمد بن عيسى. واهتم بالكتاب وقرأه، فكان هذا من أسباب تحوله عن التصوف إلى مذهب أهل السنة و الجماعة.

ثم ألف الألوسي كتاب (محاكمة الأحمدين)، يحاكم فيه بين أحمد بن حجر الهيتمي الصوفي، وشيخ الاسلام ابن تيمية. ذلك لأن أحمد بن حجر لا يجد فرصةً في الفتاوى إلا وينقد فيها ابن تيمية. فكان ذلك سبباً في تأليف كتاب (محاكمة الأحمدي).

وكان ابن أخيه، الشيخ محمود شكري الألوسي، أحد العلماء أيضاً في العراق، أقام واستمر بها، وكان قد نشأ على التصوف إلى أن جاوز الثلاثين، ثم إنه دخل مرةً مكتبة عمه نعمان الألوسي، فرأى كتب ابن تيمية وابن القيم مما أهداه الشيخ أحمد بن عيسى النجدي، واحتفظ بها الشيخ نعمان، فهامَ بها وأحبها، فنجَّاهُ الله من التصوف.

وكان محمود الألوسي يتعامل بالتقية، كما يقول تلميذهُ محمد بهجة الأثري، وهو من علماء السلفية في العراق، فيقول: كان يستخدم التقية مع قومه، فلو أظهر لهم أنه ترك التصوف لرموه عن قوسٍ واحدة.

فمن صور التنازل لهم: أن شرح منظومة لأبي الهدى الصيادي الرفاعي في الحث على التصوف، وهو لا يؤمن بقضية المصافحة المشهورة عند الرفاعية، فشرح تلك القصيدة المعروفة عند الرفاعية، لكن بعد مدة لما اشتهر أمره و اشتد عُوده وتقدّم في السن عارضَ قومه وترك كل التصوف.

**

الشيخ محمد حامد الفقي

أحد أبرز علماء السلفية في مصر. لما تخرج الشيخ –رحمه الله– من الأزهر، ذهب من القاهرة إلى قريته ليقيموا له حفلاً لتخرّجه.

وفي طريقه لقريته إما في الذهاب أو الإياب، مرّ بأحد الفلاحين، وكان ذلك الفلاح عنده شيء من طلب العلم، وهو أقرب إلى العامية، سلفي المعتقد، وقد تعمد أن يستقبل هذا الشاب المتخرج، وأن يكرمه، ففعل و وَضع أمامهُ بعض الكتب، من ضمنها كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية غزو المعطلة والجهمية) لابن القيم. فأخذ الشيخ الفقي الكتاب يتصفحه، ولسان حاله يقول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

بعد أن تعمد الفلاح التأخر، جاء إلى محمد حامد الفقي، فقال: أنت يا ابني درست وتعلمت، وتعرف علم أوروبا، ولا عرفت التوحيد.

فقال محمد حامد الفقي: ما هو التوحيد ؟

قال الفلاح: التوحيد هو مذهب السلف. فبدأ يشرح له ما هو مذهب السلف، فارتاح لهذا الكلام، ودلّه على دار الكتب المصرية، وأن يبحث عن ركن كتب السلف، كتب ابن القيم و ابن تيمية ، وأخبره أنه سيجدها قد علاها الغبار. فقال له: انفضها، و حرك هذه الكتب، وانشرها بين الناس.

فصارت هذه الزيارة مباركة، وهذه القصة أخبرَ بها الشيخُ محمد حامد الفقي الشيخَ حماد الأنصاري رحمه الله، حيث كان قد تتلمذ عليه، وكان إذا زار مكة للتدريس زاره الشيخ حماد الأنصاري، فكان سؤاله له أن حدثنا عن تحولك من التصوف إلى مذهب السلفية.

**

الشيخ أبو بكر خوقير الكتبي المكي

سبق التطرق لشيء من اخباره. كان ممن نشر الكتب، توفى عام تسع وأربعين وثلاثمائةٍ وألف. من علماء الحنفية المكيين من الصوفية، وكان يسافر إلى الهند لجلب الكتب السلفية إلى مكة بعد أن هداه الله، بعد محنته مع الشريف.

وقد أُوذي وامتحن، وسجن قريباً من السنتين في مكة بسبب شريف مكة. فقد ادَّعَوا أن الشيخ يخطط لقلب الحكم، وأنه أتى بمذهبٍ جديد، وأنه وهابي، فما كان من شريف مكة إلا أن أودعهُ السجن. ثم أُخرج، ثم أُدخل السجن مرة أخرى لسبع سنوات.

وكان قد زاره بعض وجهاء مكة ممن رثى لحاله، فوجد أظافره قد طالت، وشعره قد طال، وثيابه رثة ، ولا يُعطى ما يريد، و لا يُمكّن من أن يتنظف تضييقاً عليه. ومات ابنه الذي سُجن معه فتأذى لذلك.

وفي ذات مرة، حين أصبح، أخبر الناس برؤيا قد رآها، ومفادها: أن أشخاصاً قد لبسوا ثياباً بيضاً قد هجموا على مكة وأخرجوا المساجين، فأخبر من معه بذلك.
وما أن انتهى ذلك اليوم، حتى أُخرجوا من السجن. وإذ بالملك عبد العزيز قد غزا مكة، وأن البعض من جُند الملك عبد العزيز قد استولوا على مكة، ثم أخرجوا السجناء، وبالذّات الشيخ أبو بكر خوقير -رحمه الله-. وقد ألّف كتاب (السجن والمسجونون)، حول تلك الحادثة وأحوالها.

**

الشيخ محمد الهدية

أحد علماء السلفية في السودان، ومن مؤسسي جماعة أنصار السنة المحمدية في السودان.
وفي سبب تسميته (الهدية) لطيفة، فيقول: كان قد ولد لأبي، فكلما ولد واحد مات، ثم مات، ثم مات، فلما بقيت وطال بي العمر، أسموني محمداً، ولكن لما طال بي العمر لقبوني (الهدية)، واستمر اسمي (محمد الهدية)، وهو عباسيٌ.

كان الشيخ محمد الهديّة على الطريقة العزمية الصوفية، فلما حج قابل الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، فأهداه كتاب التوحيد مع بعض الكتب. وقد رجع من الحج وهو أشعري صوفي على مذهبه و عقيدته، لم يتغير، لكن تأثر بسبب هذه الكتب، وباستقبال إمام الحرم عبد الظاهر أبو السمح قبل أن يشتهر أمر الشيخ الهدية ويعرفه الناس.

ولما رجع إلى السودان، التقى ببعض مشايخ أنصار السنة وحضر معهم، ثم تأثر بالحضور معهم بسبب اللقاء الأول، وبسبب كتاب التوحيد.

وكتاب التوحيد له قصص مع العلماء، من ذلك:
حكى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قصةً لها صلة بكتاب التوحيد، ذلك أن بعض المشايخ أو الدعاة من مشايخ نجد قد ذهب إلى الهند فرأى منهم تنقص دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدعاء عليه، وعلى دعوته.

وقد حصل أيضاً للشيخ عبد الله القرعاوي -رحمه الله- شيء من ذلك عندما كان يحضر عند أحد الشيوخ في الهند. فيقول: لا يختم الدرس إلا بالدعاء على محمد بن عبد الوهاب، وعلى دعوته، ويقول: اسأل الله أن لا يظهرها إلى يوم الدين.

والشيخ عبد الله القرعاوي رجل حكيم -رحمه الله-، عجيب جداً بدعوته وحكمته. فعمد إلى كتاب التوحيد، فأزال الصفحة الأولى، والاسم، ثم وضع الكتاب لذلك الشيخ الهندي عند مكان جلوسه.

وبعد الدرس، بدأ الشيخ يتصفح ويقرأ، وارتاح للكتاب، وشبّهه بكتاب البخاري. فقال: ما هذا الكتاب ؟

قال القرعاوي: هذا كتاب التوحيد، يقولون إنه لمحمد عبد الوهاب. فقال: كما دعوت كثيراً على محمد بن عبد الوهاب في الدروس، وفي المسجد، سأستمر أدعو له، إنه مصلحٌ قد ظلمناه. وهذه من حكمة بعض أهل العلم.

كذلك ما كان يفعل الشيخ تقي الدين الهلالي المغربي الحسني -رحمه الله-، كان يطبع بعض الكتب في بلاد المغرب، وفي البلاد التي يقدم عليها، فكان يطبع بعض الكتب، ويزيل اسم محمد بن عبد الوهاب، ويسميه: محمد بن سليمان الدِّرعي؛ ذلك لأنه من الدرعية، والدرعي اسم لبعض القبائل أو لبعض العلماء والمثقفين في المغرب، فيروج بينهم الاسم، ولا يُستغرب. ولم يكذب الشيخ، فقد نسبه إلى بلده. وبهذا كانت تنتشر كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتشاراً كبيراً في المغرب.

وأهدى الشيخ عبد الظاهر أبو السمح كتاب ابن تيمية (التوسل والوسيلة) إلى محمد بن عبد الرزاق حمزة ، فاهتدى من التصوف؛ لأن مسألة التوسل من أعظم الخلافات بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة والصوفية، وهي من أعقد المسائل بين الشيعة و الصوفية من جهة ، و أهل السنة من جهة أخرى.

كذلك من أسباب هداية الشيخ عبد الظاهر أبو السمح حثّ الشيخ محمد أمين الشنقيطي، غير المفسر المعروف، حثَّ عبد الظاهر أبو السمح على العكوف على كتب ابن تيمية و ابن القيم .

وعدد كبير من أهل العلم تتغير قناعاته بمجرد قراءة كتب ابن تيمية و ابن القيم . و كان الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- إذا طُلب منه التأليف ، يقول : تكفي كتب السلف، وتكفي كتب ابن تيمية و ابن القيم .

ولو تأملت في الذين اهتدوا من التشيع أو التصوف بعد ابن تيمية و ابن القيم فإنك تجد أن منهم من وُفِّق لأن يكون عالماً مجتهداً مبرزاً في العلم ، مشهوراً بين أهل العلم لابد أن يكون له نصيبٌ من كتب ابن تيمية و ابن القيم . و اقرأ تراجم العلماء إن شئت ، فإنها منجمٌ غريبٌ عجيبٌ، ذهبٌ خالص .

***

باب
أثر المقالات الإسلامية العلمية

كتب الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة (المنار) مقالاً عن أهمية علم الحديث، والتحذير من الكذب عن رسول الله ﷺ . فاطّلعَ عليه الألباني في شبابه ، فأحب علم الحديث واتّجه إليه. ثم نسخ بيده كتاب (المغني عن حمل الأسفار)، للحافظ العراقي، في تخريج الحديث . ثم بدأ يعمل على منواله ، حتى صار عالماً. والشيخ الألباني له شيوخ ، ليس كما يظن البعض أنه تعلم بنفسه .

**

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط -رحمه الله-: لما اقتنى كتاب (الوابل الصيب) لابن القيم أيام شبابه وشَى به بعض زملائه عند أحد شيوخه، وكان من الصوفية وقتئذٍ ، فما كان من حمق شيخه كما هو حال بعض الصوفية إلا أن طرده من الحلقة، على الرغم من أن ابن القيم محبوب عند الصوفية، لكن لأنه من تلاميذ ابن تيمية. فقال له شيخه: تعرف أن ابن القيم تلميذٌ لابن تيمية، ونحن الصوفية لا نحب ابن تيمية، فطرده.

وكان طرده خيرة له ، فصار سبباً لعكوفه على كتب ابن تيمية و ابن القيم .

وفي أيام شبابه كان على المذهب الحنفي، فيقول: كنت أيام الشباب أصلي مع بعض الحنفية، وأجهر بالتأمين خلف الإمام، وما انتهيت من الصلاة حتى قالوا: وهابي، إرهابي، كافر. فيقول: فما اهتممت بهم وتركتهم .

واستمر في طلب العلم ، فنتج عن ذلك تركه للتعصب المذهبي ، و أقبل على كتب السنة .

***

باب
توزيع الكتب

لما زار بلاد الشام سلطان مراكش، وهو أحد سلاطين المغرب، سارع الناس من طلبة علم، ومثقفين، و وجهاء للسلام عليه؛ لأجل حظوة مالية أو هبة مادية، و لم يتحرك أي همٍ أو رغبة للشيخ جمال الدين القاسمي -رحمه الله- في ذلك، لكنه علم أن سلطان مراكش كان ممن يطبع ويهتم بالكتب.

فزار السلطان، لا يريد زيارته لأجل مكانته أو مادته، إنما قال له: أنا أتيتك لأنني سمعت أنك طبعت كتاب (الإصابة) لابن حجر، وطبعت بعض الكتب، وبعض العلماء في الشام يريدون ما طبعته من كتب.

فأعجب به سلطان مراكش، وقال: هذا يختلف عن البقية الذين جاءوا للحظوات و المال. فقال له السلطان: اكتب ما شئت من الأسماء. فكتب له ثلاثين اسماً من العلماء. فما وصل إلى المغرب حتى أرسلها لهم ، ثم وزعها على طلبة العلم و العلماء.

***

باب
الصبر على الأذى

بعض الجهلة حرّقوا كتب الشيخ عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي السلفي؛ لأنه سلفي حنبلي وهابي في نظرهم، مع أنه من علماء بلاد الشام، و دوما بالتحديد، والتي كان فيها حنابلة، وما زالت إلى وقتٍ قريب مراجعاً للحنابلة، مع وجود التصوف عند بعض علمائها.
فتعرض لهذا الأذى لما كان يخرج عن التصوف، فألّبوا الناس عليه وأحرقوا كتبه. ولم يكن معه أحدٌ يناصره، ولا من يدافع عنه؛ لأنه سلفي حنبلي، لكنه شكا إلى الله ظلم هؤلاء.

يقول الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- : لما كنت صغيراً تكلم عني بعض الزملاء أني وقفت على حلقة الشيخ عبد القادر بن بدران ، و أنني أعجبت بكلامه . فأخبروا بعض شيوخي من الصوفية ، فضربوني فلكة.

ومثل هذه الأخبار تُبيّن مدى الحصار الذي ضُرب على الشيخ عبد القادر بن بدران. فما كان منه والشيخ جمال الدين القاسمي إلا الاتصال والمراسلة وحث بعضهم على الصبر.
فإن المجتمع كان يتواصى على الشدة على العلماء، ثم يوصي بعض الآباء أبناءهم بالتمسك بالتصوف ، منهم والد علي الطنطاوي الذي أوصى ابنه بالتمسك بالتصوف و الخرافات ، لكن الله سلّمه ، فرزقه الله بالشيخ محمد بهجت البيطار السلفي .

وما حدث مع الشيخ جمال الدين القاسمي السلفي رحمه الله أعجب. فقد أحضره علماء المذاهب في بلاد الشام و استتابوه ، وكتبوا عليه محضرَ توبة: أن لا يفتي لا بصحيح البخاري ولا يخرج عن المذاهب الأربعة، والأعجب أن هؤلاء كانوا علماء، فرحم الله العلم.

وكان بين الألوسي والقاسمي محبة، وكان من أهم اهتماماتهما التوصية بكتب ابن تيمية، يفرحان إذا طبعت بالهند أو بمصر. ولا يُستغرب ذلك لأن ذلك كان قبل جمع الفتاوى التي متعنا الله بها في هذا الزمان. كما كانوا يتواصون على كتب ابن القيم، ثم إذا وصلت إليهما أو إلى أحدهما نسخة، فإنه يرسل نسخة إلى الآخر.

ومن طريف ما يذكر في ما يتعلق بالوهابية: أن المثقفٌ السوري النصراني فارس الخوري كان يتردد على الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، وعلى الشيخ محمد بهجت البيطار السلفي، فبدأ الناس يطلقون عليه أنه وهابي.

ومن الطرائف ما يذكر أبو الحسن الندوي الهندي عن أحد التجار البوذيين الهندوس في الهند: أنه كان تاجراً مؤثراً، ومعلوم أن بين التجار منافسات. فما استطاع أحد التجار أن يكسر تجارة هذا الرجل، حتى ادّعى أن التاجر (الهندوسي) الفلاني وهابي، فأعرض الناس عن ذلك التاجر، بل بدأ المسلمون لا يشترون منه، حتى قام هذا البوذي في المسجد أمامهم وقال: إني تركت الوهابية، وإني على دين البوذية. ففرحوا به وعاملوه، و انظر إلى البدع و التسلط والظلم و ذهاب العقول . كذلك أوقف الصوفية الشيخ الألباني -رحمه الله- وهو يتنقل بدراجته الهوائية، وهو عالم ومحقق. فأوقفوه بين بعض القرى في الشام وقاموا بضربه؛ لأنه أشغلهم بعلمه وعقيدته التي يدعو لها.

ولذلك كانت طريقة الألباني أن يُستضاف بيت عدد من طلابه ومن أهل العلم . وشدة الشيخ وحدته ناشئة عن تربيته في الأصل، فقد نشأ على المذهب الحنفي في بيئةٍ متعصبة . ولما منّ الله عليه باتباع مذهب السلف طرده أبوه، وخيرّه والده بين التعصب للحنفية أو الطرد من البيت، فقال له: إما أن توافق، أو تفارق . فقال: لا، أختار مذهب السلفية وأفارق. فخرج من البيت .

***

باب
الافتراءات، وأحكام القتل

حُكم على الشيخ أبي الأعلى المودودي -رحمه الله- بالإعدام ؛ لأنه كان من دعاة الانفصال بين الهند وباكستان ، وذلك لتسلّط الهندوس على المسلمين .

ويعود السبب في دعوة الشيخ وبعض علماء الهند والباكستان إلى الانفصال إلى أن الهند كانت قوية، وعانى المسلمون من تسلط الهندوس. أما إذا استقلت الباكستان فسيكون لها قوة، وللمسلمين من باب أولى قوة.

فهذا ما كان يشغل فكر أبي الأعلى المودودي وغيره من أهل العلم، على الرغم من أن الشيخ هندي الأصل، لكن السلطات الهندية حكمت عليه بالإعدام.

ضج أهل باكستان لحكم الإعدام، وناصروا الشيخ المودودي حتى أسقطوا هذا الحكم من الناحية القانونية. ثم أصدر الشيخ فتوى بتكفير القاديانية، وفرقة القاديانية ترأسها أحمد غلام القادياني، والذي هو ربيبة البريطانيين، ثم ادعى النبوة فيما بعد، فأتوا به إلى الهند، وصار له مذهب، بل دين يتبع. فحكم بكفرهم الشيخ أبو الأعلى المودودي.

فبيّن في رسالته كفر القاديانية، وأنها صنيعة الاستعمار. و سُجن لأجل ذلك ثلاث مرات .

**

الشيخ عبد الحميد بن باديس، من علماء الجزائر، ومن مناهضي الاستعمار. كان قد فسر القرآن في الجامع الكبير في الجزائر في العاصمة، فلما انتهى من التفسير وقد شحنهم إيمانياً، دينياً، وعلمياً دعا الناس للخروج بالسلاح ضد الفرنسيين.

والشيخ كان من الصوفية، فلما ترك التصوف أرسلوا شخصاً بالتنسيق مع المحتل لاغتيال الشيخ، لكنه أخطأ، أو ارتبك، فقبض عليه تلاميذ الشيخ فعفا عنه.

**

الشيخ عبد الله القرعاوي، داعية الجنوب ، تعرض في جازان لثلاث حالات اغتيال . أما الثالثة فكاد أن يُقتل، لولا أن زوجة الرجل الذي تعرّض له كانت امرأة صالحة، فقالت لزوجها: كيف تقتل الشيخ، وهو أعطاك الدين ؟

وكان الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- يقول للشيخ عبد الله القرعاوي: احمل الجنبية يا شيخ معك، خذ معك سلاحاً، فأنت في بلد تسافر الليالي والأيام من جبل إلى جبل، ومن قرية إلى قرية، ولا تحمل معك جنبية، ولو اعترضك أحدٌ لقتلك.

فقال الشيخ: لا ينبغي لطالب العلم أن يحمل السلاح، وأنا متوكلٌ على الله. فأنجاه الله من كثير من محاولات الاغتيال .

**

الشيخ عبدالرحمن السعدي، وشى به بعض الحساد في بلدته في مسألة معروفة و مشهورة هي مسألة (يأجوج ومأجوج). والشيخ كان يرى أن خلاصة بحثه أوصلته إلى أنهم هم أهل الصين . فالوشاة أرسلوا للملك عبد العزيز: أن الشيخ أتى بكلامٍ لم يأت به أحد، وربما يعلم به الصينيون فيهاجموننا.

فاستُدعي الشيخ إلى مجلس الشيخ محمد بن إبراهيم، وجمع له العلماء، وقابل الشيخ ابن السعدي و أكرمه. ثم قال: نُقل عنكم يا شيخ كذا وكذا. فبيّن الشيخ رأيه، فعرف المشايخ رأي الشيخ السعدي. فقالوا مع الشيخ ابن ابراهيم: لكن لا نريد أن تذكر مثل هذا الأمر. وانتهى المجلس، ولم يعاقب الشيخ بشيء.

وكان الملك عبد العزيز قاصداً القصيم في موكبه، فكان من ضمن الركاب الشيخ السعدي في الموكب. وأُسقط في أيدي الحُسّاد، وتسامع الناس بهؤلاء الحساد، وعلم بهم آباؤهم، و وبخوهم كيف تقولون هذا الكلام عن الشيخ، وكيف تهينون الشيخ .

والشيخ له حظوة عند الشيوخ، يريدون بالشيوخ: الملك عبد العزيز وابن ابراهيم، فذهب الشيخ يشفع لهم عند آبائهم، و يقول : قد عفوت عنهم اتركوهم.

•والشيخ ابن عثيمين في أيام شبابه ، في سن الأربعين ، ظلم بمسألة من مسائل العقيدة فهمت عنه فهماً خاطئاً ، فظلم الشيخ، و كتب فيه، ثم قالوا : يا شيخ بعض هؤلاء الذين تكلموا عليك ألا ترد عليهم ؟ قال: إذا كان الشيخ طالب علم ، و يريد نصرة مذهب السلف و ردّ علي ، و خطأني ، أو تكلم عني ، فأنا قد عفوت عنه .

***

باب
الشد من أزر العالم

يذكر الشيخ محمد لطفي الصباغ -رحمه الله- أن الشيخ الألباني -رحمه الله- كان فيه شدةٌ وحدّة، وهذه طبيعته، مع أنه طريفٌ لطيف، كثير التبسم والدعابة، وهذا ظاهر في محاضراته ومجالسه التي فيها حوارٌ ونقاش، حتى أن بعض الأعداء قالوا: ليس في محاضرات الشيخ ولا جلساته، ولا فتاواه أي علم، ما فيها إلا ضحك.

فيذكر الصباغ أن شيوخ السلفية في زمن الشيخ الألباني، وهو في الأربعين من عمره، كان شيوخه من السلفية يوصونه بالثبات و التحمل و الصبر. هذا كلام الشيخ محمد لطفي الصباغ، ومن شيوخه الذين كانوا يشجعونه: الشيخ محمد بهجت البيطار ، وعبد الفتاح الإمام، وحامد

التقي، وتوفيق البزرة. وكان هؤلاء من سلفية الشام ممن كان لهم حظوة في بلاد الشام، لكن ما استطاعوا أن يُظهروا ما أظهره الشيخ.

**

رحل الشيخ سعد بن حمد بن عتيق لطلب علم الحديث إلى بلاد الهند بإيعازٍ من والده -رحمهما الله-. فكانت هذه الرحلة سبباً في التواصل بين الشيخ حمد، والشيخ صديق حسن خان. فكان بينهما مراسلات. وكان الشيخ حمد يثني على الشيخ صديق حسن في مؤلفاته، و علمه، و براعته في التفسير، والذي اهتدى بسببه الألوسي، و يشكر له بذله المال في العلم و نشر الكتب.

***

باب
مناظرات العلماء

الشيخ الألباني -رحمه الله- أخباره في المناظرات، والمناقشات العلمية قد تستوعب عدداً من المجلدات. فقد واجه الأحباش، والصوفية بطوائفهم، والمشعوذين، ومدعي علم الغيب، وكان له ظهور عليهم في مناظرتهم.

من أسرع المناظرات التي كان طرفاً فيها، وانتهت سريعاً بفضل الله، ما كان مع أحد مُدّعي الغيب. فقد دعي الشيخ لمناظرة مع أحد مدّعي علم الغيب، من المُتكهِّنين، فلما أراد أن يبدأ الكاهن، قال الشيخ: إني أريد أن أقول لك شيئاً في نفسي. فقال له: قل ما تريد. قال الشيخ: أنت الآن تدّعي علم الغيب، ولا تعرف ما في نفسي. فبطلت المناظرة بحمد الله، وانتهت.

وكان الألباني رحمه الله ذكيّاً، ألمعيّاً، لمّاحاً، يمد الحبل للشخص ليفرح وينتفش، ثم ينقض عليه. ومن ذلك بعض المناظرات مع بعض الشباب المتأثرين بالفكر التنويري، و الأفكار، والرد على بعض متبعي رأي الأحباش.

ومن المناظرات أيضاً: أنه سمع أن أحد الصوفية الرفاعية يطعن نفسه بالشيش ولا يتأذّى. فذهب الشيخ، مدفع التوحيد -رحمه الله-، وقال له: لا أريد سكيناً، ولا شيء، لكن عندي إبرة صغيرة، فافتح عينك حتى أدخلها فيها. فهرب ذلك الصوفي من البلد كله. وكان من طريقتهم أنهم يستعينون بالجن، وبالسحر. فأراد الشيخ أن يقرأ آية الكرسي ويدخلها في عين ذلك المشعوذ، فهرب.

***

باب
لطائف في كثرة المعارف

تعرَّف الشيخ علي الطنطاوي على الشيخ محمود الصواف الموصلي العراقي، وكان شابّاً يدرس في الأزهر، وقد درس الشيخ علي الطنطاوي سنوات في العراق، وبيروت، ودرس في مصر لما ذهب إلى خاله محب الدين الخطيب. فيقول: انتفعت بزيارة المكتبات، ودار الكتب المصرية، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ومجالس العلماء، ومجالس محب الدين الخطيب الذي كان معلماً وقتها.

ويقول الطنطاوي عن الصواف: فتعرفت على شابٍ متحمس جداً في خطبه النارية، وفي بلاغته، و كلامه ، و كان من شدة حماسه يتحمس معه الطلاب و المعلمون في الأزهر.

ويضيف الطنطاوي: لما ذهبنا إلى العراق مع الصواف، والشيخ أمجد الزهاوي، ومحمد أمين الحسني، من ضمن الزيارات للتعريف بقضية فلسطين واستنهاض الهمم لأجل فلسطين، وكانوا قد ذهبوا لأكثر من بلد، ذهبوا لشرق آسيا، وذهبوا لمصر، وبعض البلاد، فيقول: لما ذهبنا للعراق، كان الشباب يقابلوننا في كل محافظة كأننا في موكب أمير؛ لأجل محمود الصواف، فتعجبت من هذا الرجل كيف اجتمع له هذا العدد الكبير من الشباب وهو شاب. وما ذلك إلا لكثرة معارفه، ولأنه يحفظ الاسم للوهلة الأولى، ولا ينسى.

وقد درس الطنطاوي في العراق قبل التعرف بالصواف بمدة ، فيقول: ما وجدت في العراق إلا علماء كبار في السن وعوام، و ليس فيها شباب يهتمون بالدعوة، و ليس هناك صحوة في العراق، فتعجبت لهذا الرجل كيف حرك هؤلاء الشباب في سنياتٍ قليلة.

ويصف الحال الصّواف، فيقول: حتى في شدة البرد، كان البرد يلفح الوجه، ما نتحمل. وكانوا يخرجون صفوفاً لاستقبالنا في بعض القرى والمحافظات في العراق. وقد عرّفني ببعض أهل بلدي من أهل الشام عرفني عليهم. و كان الصواف إذا زار الشام زار أناساً أنا لا أعرفهم، فعرفني بهم.

وبعض الناس له حب للتعارف، اجتماعي بطبعه. فيحب التعرف بخلاف الطنطاوي، والذي يخبر عن نفسه ، فيقول عن نفسه: من أثقل ما أرى إذا دعاني شخصٌ لوليمة ، و أفرح إذا عذرني، وأستثقل الجلوس عند أحد، إلا شخصاً كأني جالسٌ مع نفسي، وهم قلة. وذكر منهم الشيخ عبدالعزيز بن صالح -رحمه الله-.

ثم يقول: ولا أكاد أوافق على دعوةٍ رسمية، إلا عندما جاء إلى لحج، وكان في الموسم دعوات رسمية زار خلالها بعض الأمراء.

***

باب
لا أدري

•كان الشيخ الألباني إذا سئل عن بعض المسائل في المواريث يقول: لا أعرف، لا أجيب فيها، ليس لي تخصصٌ فيها.

•الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله كان لا يفتي بمسائل الطلاق أبداً. و يقول: سلمني الله من القضاء ، فأسلم نفسي من الطلاق .

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي كذلك لا يفتي بالطلاق أبداً .

•يقول الشيخ حماد الأنصاري : حفظت متوناً و منظومات و ألفيات في الفقه ، لكن إذا جاءتني مسألة في الحيض كنت أحير من ضب . و هذا من تواضعه رحمه الله .

•أحد طلبة العلم يخبر، فيقول: رتبت لقاءً بين الشيخ عبد الرحمن البراك والشيخ ابن باز، فناسب أن كان لدى الشيخ عبد الرحمن بعض المسائل و النوازل المهمة ليناقشها مع الشيخ.

فيقول: لما دخلنا عند الشيخ ابن باز قال: الحمد لله، جابك الله يا شيخ عبد الرحمن، عندي بعض الإشكالات في الحيض أريد أن أسألك.

وهذا الكلام يقوله الشيخ ابن باز لأحد تلاميذه.

هم الرجال وعجزٌ أن يقال لمن   لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

وأخبار الشيخ ابن باز في هذا الباب كثيرة، منها:

•مسألة سمعتها في البرنامج الشهير (نور على الدرب) في أشرطة مسجلة قديمة، وكان السائل قد سأل مسألة عن الخلع والطلاق وفيها اشتباه. فأجاب الشيخ في الحلقة التالية من البرنامج قائلاً: أن السؤال الذي كان قد ورد إليَّ في الحلقة الماضية كان عن كذا وكذا، وإني قد أخطأت.

ويتابع الشيخ: ولما انتهيت من الحلقة سألت بعض طلبة العلم من إخواني فأجابوني، والجواب الأول خطأ والجواب الصحيح كذا وكذا ، ثم أعاده.

•وفي (نور على الدرب) امرأةً تسأل، فتقول: أنها لا ينام أولادها حتى تقص بعض القصص والحكايات والسوالف التي هي كذب، لكنها تحث على الخير وفعل الخير قبل النوم لأولادها الصغار ، هل يجوز ، أو لا يجوز ؟ فقال الشيخ : لا أدري.

•وسُئل الشيخ: هل أحكام التجويد بالتفصيل رويت عن رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا أدري .
وسؤال آخر: أيهما أفضل أجراً ، الإمامة أو الأذان ؟ قال : لا أدري .

•وسُئل عن من الإنسان يأتي يوم الجمعة والإمام يخطب، ولم يدخل المسجد بعد، يسير في المواقف ويسمع الخطبة، هل يجوز أن يتكلم أو يرد على الهاتف و يخاطب من معه ؟ قال الشيخ: لا أدري.

كذلك سئل: هل ساعة الإجابة يوم الجمعة تنتقل أو تكون ثابتة في آخر ساعة ؟ قال : الله أعلم .
وسُئل: هل صلى النبي ﷺ المغرب في حال الخوف ؟ فقال: لا أستحضر شيئاً .
•وسأله سائل عن صفة خاتم رسول الله ﷺ كُتب عليه: (محمدٌ رسولُ الله) ، فسُئل : أيُّ الأسماء أول محمد ، أو رسول ، أو الله لفظ الجلالة ؟
ومعلوم عند العلماء أنه لفظ الجلالة ، كما قال ابن رجب و غيره ، فقال الشيخ : لا أعلم .
و سئل هل بيعة العقبة أفضل من بدر أم لا ؟ فقال : الله أعلم.

•وفي درس الحرم سنة ١٤٠٢ هـ ، سُئل : هل الأنثى المولودة يحلق رأسها و يتصدق بوزنه ذهباً، أو فضة ؟ فقال الشيخ : ما عندي علم ، سأسأل إخواني من طلبة العلم ، و أجيب غداً إن شاء الله .

•في آخر رمضان للشيخ بن عثيمين -رحمه الله-، قال في الدرس عن زكاة الفطر: أنها كيلو ونصف. وهماً منه؛ لشدة مرضه، فقد كانوا يبعدون الأكسجين عنه ويدرّس، والأجهزة الطبية على جسده .

وفي الدرس التالي، من الغد، قال: لقد ذكرت أن مقدار الزكاة كيلو ونصف، و وهمت، وهي كيلوين و نصف .

وخطب ذات مرةٍ خطبة عن فضائل الفاتحة، وقال عن الفاتحة في أثناء الخطبة: أنها تُقرأ بعد الصلاة، و عند النوم. وبعد الصلاة، جاءه أحد الطلاب، وقال: يا شيخ، تقصد آية الكرسي أو الفاتحة ؟ فقال: نعم، أخطأت. فقام الشيخ ، و أخبر الناس أنه قد أخطأ ، و تراجع عن ما قال.

***

باب
حسن الخلق

حسن الخلق سببٌ للتأثير في الناس، فكثير من الناس أخلاقهم حسنة، ومن أمثلهم وأجودهم في حسن الخلق:

•الشيخ عبد الرحمن السعدي، كان قد أثر في تلاميذه القرعاوي، وابن عقيل. فهو مشهور بحسن الخلق، ومعاملة الجميع، بل و يعامل كل شخص على طريقته، حتى الأطفال. من ذلك: أن إحدى بناته قالت له: لماذا لا تزورنا في بيتنا، حيث كانت تلعب مع بعض بنات الجيران داخل بيتهم، فدعت الشيخ على قهوة في فناء البيت. فقال: إن شاء الله آتيكم.
ولما جاء الشيخ استأذن عليهم، كأن ابنته والبنات اللاتي معها نساءٌ كبيرات، أأدخل عليكم ؟ قالوا: أدخل، أدخل يا شيخ. فجلس معهم وشرب القهوة.

•كذلك من أصحاب الخلق الحسن الشيخ أحمد بن عيسى التاجر النجدي الذي تقدم ذكره. تاجرٌ عالم، لكن ذهب إلى مكة للتجارة، فبدأ معاملة الناس بالحسنى والصدق في التجارة فجاء أحد التجار يسمى عبد القادر التلمساني من تجار مصر، قيل المغرب وقيل مصر، من الصوفية، ممن يدعم كتب الصوفية، فتعرف على هذا التاجر أحمد بن عيسى، يأتي له بالأقمشة من مصر، بعض الأرزاق، كل ما جاء كل سنة إلى الحج يعطيه الشيخ المال كاملًا، مال السنة الماضية، يعطيه البضاعة للسنة القادمة، ويعطيه المال من مبيعات السنة الماضية، فقال انا بايعت الناس ولم أجد أكثر منك أمانةً، ماذا تكون أنت؟، فبدأ يعرفه بنفسه وبدعوته حتى هداه الله.
وبهداية عبد القادر التلمساني اهتدى وجيه جدة الشيخ محمد نصيف. فاهتدى عبد القادر التلمساني بأخلاق أحمد بن عيسى، ثم اهتدى بسببه محمد نصيف وجيه جدة، و الذي كان الملك

عبد العزيز إذا أراد أن يجمع أهل الحجاز لا يجمعهم إلا في بيت محمد نصيف. كل ذلك بسبب أخلاق الشيخ أحمد بن عيسى رحمه الله وتأثيره في عبد القادر التلمساني التاجر المصري، ثم تأثيره بالشيخ محمد نصيف الوجيه الأديب، لأنه صاحب مؤلفات أيضًا.

***

باب
العلماء و النفع العام للناس

من العلماء من يبيعون ويشترون في الدكاكين، وهذا ليس عيباً. فالشيخ الألباني كان يعمل بالساعات، وكان قبل ذلك نجاراً في بداية أمره مع والده، لكن مهنة النجارة تشغله عن طلب العلم، فتركها، ثم اشتغل بالساعات.

يقول: ولا أشتغل إلا بمقدار ما أكفي نفسي وأهلي. ويقول: العمل بالساعات علمني الدقة في الحديث. وللشيخ اختراعات، فقد صنع مصعداً في بيته لما ثقل لتعدد الأدوار في البيت، وكان عنده زوجات في البيت.

**

الشيخ القرعاوي لما ذهب إلى جيزان لم يجد طريقاً للدخول على أهل جيزان إلا أن يفتح دكاناً للتجارة، فكان الدكان للبيع والشراء والدعوة وشرح الكتب، ولا أحد يمنعه أبداً، مع حسن خلقه. فكان من طريقته في الدعوة افتتاح الدكان.

**

كذلك الشيخ فهد العبيد، من الصالحين، والعلماء، لكن يظهر عليه الزهد و العبادة أكثر من التعليم، من شيوخ بريدة، كان له محل ساعات، ويفتح الدكان للدعوة وطلب العلم، وقراءة بعض كتب أئمة الدعوة مع شرحها.

**

ومن صور الحرص على نفع الناس، ما كان بين الشيخ محمد بن عثيمين، وأحد الشباب من الكويت. فقد حضر شابٌ من الكويت خطبة للشيخ ابن عثيمين عن أحكام الصيام، وذلك قبل انتشار التسجيل في بدايات شهرة الشيخ. فقال: يا شيخ ، ليتها مسجلة. فقال: حسناً، تعال معي إلى البيت. فذهب به الشيخ إلى البيت، وألقى الخطبة قائماً، وسجل له، وأعطاه الشريط. فمن يتحمل ذلك ؟

***

باب
من مواقف العلماء مع الصوفية ومقاومة الاستعمار

الشيخ محمد جميل زينو، أحد علماء الشام، وكان من ضمن الصوفية، ثم هداه الله، وجاء لمكة ودرَس في دار الحديث، وله مؤلفات .

وفي أيام شبابه كان يقرأ من كتاب رياض الصالحين حديث ابن عباس رضي الله عنه: إذا سألت فاسأل الله.

ثم رجع لكلام النووي في شرح الحديث وتقرير الإمام النووي مذهب السلف حول سؤال الله ﷻ، فقرر عدم سؤال المقبورين ولا غيرهم. ففرح محمد جميل زينو بكلام النووي.

فقال لشيخه: يا شيخ، هذا كلام النووي، ما رأيك ؟ لأنهم يقررون سؤال غير الله، والحديث عن غلاة الصوفية، فقد يوجد صوفي عنده نوع من التصوف في العبادات، ولا أدعي أن هذا الأمر عند كل الصوفية.

فيقول: لما ذكرت له كلام النووي، و بدأت أناقشه فيه. قال: أنت وهابي. وأن لا أعرف ما هو وهابي، فبيئتي صوفية، لكن بدأت أبحث عنها، حتى سمعت عن مجلسٍ للوهابية مساء كل خميس، يشرحون التفسير والفقه والحديث في بيت أحدهم، وكان الطلبة قد جلسوا في المجلس، ولما جاء الشيخ لم يقم له أحد، فأثر بي أكثر. وبدأ يقارن بين أعمال الصوفية عندما يقدم الشيخ يسلم عليه الطلاب فيُقدم يده للتقبيل.

أما هذا الشيخ لم يقم له أحد، و بدأ يذكر العلم في التفسير، والعلم في الحديث، والعلم في الفقه، و تقرير السنة و الأحاديث. يقول: فأعجبني، و دخل قلبي.

**

•كذلك الشيخ محمد بهجت البيطار، من علماء الشام السلفية ، و كان قد أتى به الملك عبد العزيز وأقام في الطائف ، و افتتح دار التوحيد في الطائف ، و كان الشيخ محمد بهجت البيطار من مؤسسي مناهج التعليم في المملكة .

كان والد الشيخ محمد بهجت البيطار من غلاة الصوفية ، والصوفية في تلك البيئة بسبب الغلو يحذرون من السلفية والوهابية، حتى أن أحد الصوفية المهتدين من العراق، وله وثائقي اسمه (الصوفية أفيون الشعوب)، فيقول: من أسباب هدايتي أن الصوفية تتناقل أنك إذا صليت مع أحد الخطباء من السلفية في العراق تلاحظه لا يصلي على الرسول في الخطبة، فيصدق العوام المساكين ذلك.

يقول: فكان معي خنجر، وقلت: إذا ما صلى على الرسول أطعنه أمام الناس. يقول: فلما خطب، قال بعبارة عامية متذكراً من الخطبة: قال هذا الخطيب: اللهم صل على محمد، ولن ندخل الجنة إلا من طريقة.

يقول الرجل: بعدها تأثرت، فصار سلفياً، و ترك التصوف.

**

•كذلك الشيخ علي الطنطاوي، فقد كان والده يحذره من السلفية، لكن الشيخ وفقه الله للتتلمذ على الشيخ جمال الدين القاسمي، وبدر الدين الحسني، محدث الشام، والشيخ محمد رشيد رضا. فأنجاه الله عز وجل من التصوف.

لكن هدايته أن كان والده من الصوفية، ويحثه على عدم ترك الصوفية والذهاب للسلفية، فكان يجالس الشيخ بهجت البيطار كثيرًا، يقول فأتعبته، جلست معه سبعة عشر يومًا أو قريبًا من ذلك في جلساتٍ طويلة متتابعة، وكان الشيخ يتحملني ويجيب على شيء أنا وأخي سعيد، أخو الطنطاوي الأصغر منه، فيقول كنت أذهب أنا وأخي سعيد، لكن الطنطاوي هو الذي يناقش، فأزال ما في قلبه من التصوف.

**

•الشيخ محمد الحامد ، من علماء حماة ، حنفي تتنازعه مدرستان: صوفية وسلفية، وكان يحاول الجمع بين الطريقتين، عفا الله عنه، ولكن له إصلاحات طيبة في بلاد الشام، وهو من المهتمين بمقاومة الاستعمار الفرنسي، و هذه من محاسنه.

**

•الشيخ طاهر الجزائري، من المؤلفين، ومن أصحاب الكتب والمكتبات، وممن يوصي بقراءة كتب ابن تيمية.

**

•الشيخ بدر الدين الحسني ، من مقاومي الاستعمار، وكذلك الشيخ ابن باديس كما سبق.

**

•الشيخ رحمة الله الهندي ، صاحب كتاب (الدين الخالص)، والذي بسبب هذا الكتاب اهتدى أحمد ديدات وصار داعية.

فالشيخ رحمة الله الهندي كان مقاوماً للإنجليز في الهند، فحكموا عليه بالإعدام، فخرج الشيخ من الهند بملابس فلاح إلى اليمن، ثم الحجاز، ثم صار مدرساً في الحرم، ثم سافر إلى تركيا زمن الدولة العثمانية، ثم رجع إلى مكة، فأنشأ (المدرسة الصولتية) المشهورة بين طلبة العلم في مكة. والإنجليز لا يحكمون بإعدام شخصٍ وهو عالم، إلا لأنه أذاقهم الأمرّين. وإلا فلا يمكن أن يتجرؤوا على قتل عالم إلا بسببٍ قوي.

**

•الشيخ نذير حسين، مدار أسانيد الحديث هذا العصر، محدث الهند. كان يفتي بمقاومة الإنجليز، فأخرجوا عنه الإشاعات أنه قد خرج من دين الإسلام، وأنه يجيز نكاح المحارم، فشاع هذا الأمر بين العوام، ظنّاً منهم أن هذا الأمر ينطلي عليهم، و لله الحمد والمنة ، فإنه كما قال الشاعر :

في كل وادٍ بنو سعد فلله أوسٌ قادمون وخزرج

فما باء علمهم إلا بالخسران، وبعض العوام في غيرتهم أشد من طلبة العلم على المشايخ في الدفاع عنهم، وحبهم. فما زاد الشيخ بعد الإشاعة الكاذبة إلا أن استمر بالتعليم والتحديث والفتاوى ضدهم، ووجوب مقاتلتهم، حتى سجنوه سنة، ثم أخرجوه من السجن خوفاً من الناس. واستمر رحمه الله في جهاده و فتاويه، حتى مات في زمن وجود الإنجليز.

***

باب
العلماء والقرآن

هم الرجال المصابيح الذين هم	كأنـهم من نـجوم حية صُنعوا
أخلاقهم نورهم من أي ناحية	أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا
هذا الثناء الذي ما صاغه كلم	وها هو المجد عند الباب يزدحم
مناقبٌ كنجوم الليل ظاهرةٌ	قد زانها الدين والأخلاق والشيم

•الشيخ حمد بن فارس رحمه الله ، من علماء الرياض، ممن تتلمذ عليه عددٌ كبيرٌ من أهل العلم، كان يجلس في مصلاه بعد صلاة الفجر يوم الجمعة لا يتحرك من جلسته ، يبدأ بالقرآن و يختم قبل صعود الخطيب المنبر.

**

•الشيخ عبد الفتاح قارئ ، من علماء القراءات في المسجد النبوي ، وتخرج عليه أيضًا عدد من العلماء والطلاب ، ووالد الشيخ عبد العزيز قارئ ، إمام مسجد قباء ، ورئيس لجنة تصحيح المصحف في المدينة .

فيذكر الشيخ عبد العزيز قارئ عن والده الشيخ عبد الفتاح قارئ أنه كان فترةً من الفترات عند أمير أبها ، الأمير السديري ، فتذاكروا في المجلس معلومة مشهورة بين أهل العلم ، هل يوجد أحدٌ يختم القرآن في ليلة ؟ قال الشيخ: نعم . فخرجوا إلى المسجد ، في رمضان ، و بدأ الناس يصلون معه فختم القرآن في ليلة، بركعات في ليلةٍ واحدة. ويقول بعض من كان معه: كنا نسمع القراءة ، ليست هذّاً، سريعة، لكنك تسمع القراءة واضحة. وانتهى قبيل الفجر.

**

•الشيخ المحدث عبد الحق الهاشمي ، كان من علماء الهند ، درّس في الحرس ، فأصيب الشيخ بفتق في بطنه ، و قرر الأطباء أن يعُمل له عملية . و قبل العملية عند التخدير ، قال الشيخ : لا تخدروني ، بل أبدأ بقراءة القرآن ، و اعملوا عملكم . فكان يقرأ القرآن ، و استمر بالقراءة لحين انتهائهم من العملية ، ثم خاطوا الفتق ، و انتهى عملهم و هو يقرأ ، بلا انقطاع.

**

•الشيخ عامر السيد عثمان ، من المقرئين المصريين المشاهير، عضو لجنة تصحيح مصحف المدينة ، توفي عام ١٤٠٨ هـ ، و كان الشيخ قد فقد حباله الصوتية آخر سبع سنوات ، فكان يقرئ الطلاب ، و استمر في إقراء الطلاب و تعليمهم . و كان لا يجيب الطلاب إلا بشهيق أو بإشارة أنك أخطأت .

في مرض وفاته كان يغمى عليه و يفيق ، فرجع له صوته الطبيعي فقرأ القرآن قراءة تامة ، و ختم المصحف كاملاً ، و مات بعد الختمة .

***

باب
التواضع، والزهد في الدنيا

•أرسل أمير القصيم للشيخ محمد بن عثيمين -رحمه الله- سيارةً جديدة، فأوقفها الشيخ عند بيته خمسة أيام، ثم أعطاها لابنه عبد الله، وقال: أرجعها للأمير، وقل له: جزاك الله خيراً، لسنا بحاجة.

وكان رحمه الله لا يأخذ مالاً على تأليف الكتب للمعهد العلمي، فُرّغ من التدريس في الجامعة؛ لأجل تأليف بعض الكتب التي دُرِّست في المعهد العلمي الآن، كمصطلح الحديث، وأصول الفقه، وكتاب العبادات من عمدة الأحكام. فيقول الشيخ عبد الله التركي: أرسلنا له مبلغاً على التأليف، فردّه وقال: لا أستحق ذلك؛ لأني فُرِّغت من التدريس في الجامعة مقابل التأليف، فلا آخذ شيئاً.

وكانت بعض القصص من الورع والزهد إذا ذُكرت للشيخ ابن باز عن محمد بن عثيمين يقول: هذه لا يستطيعها إلا الشيخ محمد. فالشيخ ابن باز يشهد لتلميذه الشيخ محمد.

وكان الشيخ ابن عثيمين لا يأخذ مالاً على المحاضرات التي يلقيها في كلية البنات؛ لأنها محاضرات خارج عمله في الجامعة أو المعهد، فكان يخرج تطوعاً من تلقاء نفسه، يلقي محاضرات رسمية في كلية البنات.

وقد طُلب منه أن يقدم بحثاً؛ لأجل الترقية في الجامعة. فقال الشيخ: لا ينبغي لطالب العلم أن يهتم بالرتب والرواتب. فلم يقدم شيئاً.

وأخبرني شيخنا الشيخ عبد الله بن صالح الفوزان فيقول: جاءني أحد القضاة من بلدة الشماسية بالقصيم، فذهبت وإياه إلى الشيخ ابن عثيمين. فقال القاضي للشيخ: الآن عندي أرض بالشماسية، أرضٌ كبيرة، فيها منازعات بين بعض الورثة، لكن من ضمن مُلاَّك الأرض آل عثيمين في عنيزة، فيا شيخ أكيد أنها لكم، إذا تريد منها نصيباً. قال: إن كانت لي فهي لكم.

**

•باع الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله فرش بيته ؛ ليشتري بعض الكتب .

❋❋

•وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله ربما احتاج لبعض الكتب، أو غيرها من ضروريات الحياة ، فكان يبيع بعض أواني البيت، و هو العلامة المشهور في بلده وسائر البلاد في زمنه . فكان يبيع بعض أواني البيت و لا يخبر أحداً ، و لا يطلب من أحدٍ شيئا ، و كان إماما للجامع في عنيزة ، و لا يأخذ مقابلاً على الإمامة . وكان مشرفاً على بعض الأوقاف الموقفة على الجامع و على طلبة العلم ، و لا يأخذ عليها مقابلاً.

❋❋

•وكان الشيخ محمد بن ابراهيم قد وكَّل الشيخ السعدي بالإشراف على المعهد العلمي، فكان الشيخ يشرف عليه، و يحضر عند المشايخ والمدرسين ، منهم: الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ مناع القطان. فكان يحضر عندهم و يكتب التقارير للشيخ ابن ابراهيم، بوظيفة مفتش، ولا يأخذ مقابل ذلك شيء من المال .

❋❋

يُخبر الشيخ عبدالله خياط – رحمه الله – عن والد زوجته الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فيقول: لم أذكر الشيخ مرةً في مجلسٍ، ولا خطابٍ، ولا كتاب أنه تكلم عن نسبه، مع أن نسبه محفوظ، ومعروف عند جماعته في مصر، ولا يذكر ذلك لأحد. وهذا بلا شك من التواضع.

❋❋

كتب مرةً الشيخ تقي الدين الهلالي المغربي أبياتاً في مدح الشيخ ابن باز، وشبّهه، وقاربه في الزهد بإبراهيم بن أدهم، وأثنى على آل باز وعلى عائلته، في مجلةٍ طبعت في الهند لأهل الحديث، ثم وُزعت نسخ كثيرة منها، فلما بلغ ذلك الشيخ كتب مقالاً يرد على هذا المديح، وعلى

الأبيات، ويذكّره بالله، وحديث: (أحثوا في وجوه المداحين التراب). وجاء في ردّه: لا أرضى بهذا المدح لي، ولا لأهلي، ولا لقبيلتي ، و إني أكره ذلك. ونشر في المجلة . وهذا ليس بتصنّع من ابن باز، فهذه طبيعته ، لا يريد المدح.

**

وهذا شاعرٌ أراد مدح الشيخ ابن عثيمين-رحمه الله-، فلما بدأ بالأبيات أدخل اسم ابن عثيمين في قصيدته. فأوقفه الشيخ، وقال: لا تربطوا العلم و الحق بالرجال، اربطوا الحق بالحق.

**

الشيخ عبد الرحمن بن قاسم كان إذا قال له أحدهم: (يا شيخ عبد الرحمن). قال له: الشيخ حضرة جنابك. يعني أنت الشيخ، ولا يريد كلمة شيخ.

**

الشيخ فهد العبيد لا يرضى بلفظة شيخ. وإذا قال له أحد: (أحسن الله إليكم يا شيخ) كذا و كذا، يريد أن يسأله. قال له: إذا تريد أن أعطيك خمسين ريالاً و تأخذُ الشيخةَ لك.

**

والشيخ الألباني لما مدحه مقدم محاضرة، وأثنى عليه، قال الشيخ: لا أجد لي كلاماً بعد هذا المدح، إلا كما قال الخليفة أبو بكر الصديق: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ثم بكى الشيخ -رحمه الله-.

فحب المديح، والعُجب بالنفس والزهوْ مما لا يليق بطالب العلم. والإنسان يُدرك حقيقة نفسه، وضعفه، وجهله، بالتّرقي في العلم. و ليتمثّل المسلم قول الشاعر :

لا تمدن إلى العلياء منك يدًا حتى تقول العلياء هات يدك

ولا تقدم نفسك للناس بمدح، ولا تقل للناس امدحوني، إن كان فيك خيرٌ و نفع للناس، فالله ﷻ سيظهر الخير على يديك، وإن لم يظهر الخير على يديك، فالحمد لله، دين الله باقٍ لم يذهب بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولا أصحابه ﭫ ، ولا العلماء، بل إن دين الله دينٌ منصور. وسيبلغ ما بلغ الليل و النهار.

والدين منصورٌ و ممتحنٌ فلا تعجب فهذه سنة الرحمن

***

باب
الحرص على الطلاب

•الشيخ عبد الرحمن السعدي حرصه شديد على طلابه، في متابعتهم، ومراسلتهم، والاهتمام بشؤونهم . ولما تتلمذ عليه شابٌ ذكي نابِهٌ، اسمه: محمد بن عثيمين ، تتلمذ عليه فترة ثم انقطع. فسأل عنه، فقالوا: إن أهل ابن عثيمين مشغولون بالزراعة. فذهب الشيخ لوالد محمد بن عثيمين، فقال: اتركه عندي، واعتبره يشتغل عندكم.

ويظهر أن الشيخ أجرى للوالد بعض المال. فما مات السعدي إلا وهذا الشاب محمد بن عثيمين كان يدرّس في المسجد، وكان عمره أربعٌ و عشرون سنة. ومن يظفر بالتدريس في زمن السعدي، إلا مثل هذا الشاب الذكي -رحمه الله-.

**

•كذلك حرص الشيخ ابن ابراهيم على طلابه ، و كان قد قسم الطلبة إلى مبتدئين ، ومتوسطين، و منتهين . و كان طلابه الذين كانوا قد بلغوا مبلغاً كبيراً في العلم يرشحهم مباشرةً ليكونوا قضاة ، ومدرسين في المعاهد ، و يديرون المعاهد العلمية و التي كانت فيما بعد جامعات معتمدة.

**

•كذلك حرص الشيخ عبد الله القرعاوي على تلميذه حافظ الحكمي. اهتم الشيخ به، وقرّبه منه، وحظي منه بالعناية والاهتمام.

**

•والشيخ صالح البليهي رحمه الله صاحب (السلسبيل) ، يخرج بطلابه كل فترة يذهبون لأي قرية أو محافظة قريبة من بلدتهم . فأحدهم يخطب الجمعة ، و الآخر يلقي كلمة بعد الصلاة ، ثم يقيّم أدائهم .

**

•يُحدث الشيخ وليد الحسين صاحب (مجلة الحكمة) عن موقف له مع الشيخ ابن عثيمين في بداية طلبه للعلم ، فيقول : ذهبت للشيخ ابن عثيمين ، و حضرت عنده الدروس ، ثم احتجت للمال ، و هممت بترك الطلب ، فأعطاني الشيخ أربعة آلاف ريال . ثم ما لبثت أن انقضى المال . واستحييت أن أكلم الشيخ، فسافرت.

ولما علم الشيخ بأمري، اتصل بأهلي، وقال: أرجعوا وليد لطلب العلم، وراتبه علي. فاستمر بالطلب عنده .

ومن ذلك أن الشيخ ابن عثيمين كان يوزع كثيراً من الكتب على الطلاب، ولا يأخذ مالاً على كتبه، لكنه يشترط على الموزع ، أو الطابع أن يرسل له نسخاً بعدد طلابه ، فيوزعها عليهم.

**

•وكان الشيخ جمال الدين القاسمي إذا وجد شاباً ذكياً من طلابه أخذ بيده ، و ذهب به لبعض العلماء و قال : درِّسوا تلميذي .

فمن يفعل مثل هذا الفعل اليوم، أن يوصي المشايخ على الطلاب، وأن يقول مثلاً للشيخ الفلاني: أريد أن تُدرِّس فلان وفلان من طلابي، أو تكتب لهم شفاعة أن فلان سيأتيك.

•لما ذهب الشيخ اسماعيل بن عتيق لطلب العلم عند الشيخ عبدالرحمن السعدي اعتذر منه الشيخ السعدي. يقول الشيخ اسماعيل: قال الشيخ: كما تشاهد، الطلاب الآن انشغلوا بالتجارة. وكان في ذلك الوقت أهل عنيزة قد سبقوا في الذهاب للتجارة إلى الهند، والشام، ومصر، وهم أهل ثقافة وعلم وتجارة.

فينقل عن الشيخ قوله: ما عندي طلاب الآن، وليس هناك دروس، وأنا منشغل بالتأليف، لكن اذهب للشيخ عبدالله بن حميد في بريدة . فذهب إلى بريدة، وكانت عامرة بالطلاب. فجلس ثلاث سنوات للتتلمذ على علمائها .

***

باب
إكرام العلماء

كان الشيخ عبد الحق الهاشمي يُجِلّ الشيخ ابن باز كثيراً، وهو أكبر من الشيخ ابن باز بقرابة العشرين سنة، فكان إذا التقى أو جلس مع الشيخ ابن باز في مجلس وأرادوا الخروج، فكلٌ منهم يقدم الآخر. فكان الشيخ عبد الحق الهاشمي يتقدم كما يقول أسوةً ببلال ﷺ، لما قال النبي ﷺ له: « سمعت دف نعليك في الجنة » [1]، تشبه ببلال في تقدمه على الرسول في الرؤيا. و إكرام العلماء بعضهم لبعض أيضا شيءٌ عجيب.

**

•إكرام الشيخ ابن باز ظاهر لعلماء أي بلد، ومشهورٌ بإكرام الناس عموماً.

من ذلك أن الشيخ محمد الغزالي بعد شهرته وانتشار كتبه، كان لبعض العلماء من بعض أطروحاته في الحديث والفقه مواقف متباينة. فزار الشيخ ابن باز في الرياض، فلما جلس مع الشيخ ابن باز ، قال أحد الحضور من الطلاب: يا شيخ، ما حكم حلق اللحية ؟ قال: اذكر الله، يريد أن يسكته، حتى لا يحرج الشيخ محمد الغزالي.

ثم قال السائل: يا شيخ، أحسن الله إليك ما حكم سماع الغناء ؟ فقال له: اذكر الله، سبح الله.

وكان الغزالي على موعد مع غير الشيخ ابن باز، لكنه لما رأى من الإكرام تأخر عن الموعد، حتى أن المرافقين له قالوا: يا شيخ الموعد. فخرج معه الشيخ ابن باز حافياً إلى سيارته، وأغلق الباب معه. فلما بلغ الغزالي موعده قال: كنت في عالم ثانٍ، مع صحابي لم ير الرسول ﷺ .

---

(١) : رواه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨).

وكان إذا ركب السيارة قال: أسمعونا صوت حبيبنا. فيشغلون دروس شرح زاد المستقنع أو بعض الدروس للشيخ ابن عثيمين عبر جهاز التسجيل. وهذا الحديث من الشيخ ابن باز عن ابن عثيمين، وهو تلميذه.

**

•في حديث دار بين الشيخ الألباني والشيخ عابد إلهي ظهير، فيقول الألباني: كان أخوك إحسان من الأذكياء، ولا أنسى أخلاقه وتأدبه معي. سافرت وإياه للدعوة في لندن، فكان يدلك قدمي احتراماً وتقديراً لي. وذلك ليس تصوفاً، إنما إكراماً.

**

•في زمن الشيخ محمد بن إبراهيم – رحمه الله – ، صلّى أحد الأئمة من الشباب التراويح إحدى عشرة ركعة.

فاستدعاه الشيخ، وقال له: كيف تصلي إحدى عشرة ركعة، والناس يصلون ثلاثاً وعشرين، على رأي أكثر أهل العلم.

قال الإمام الشاب: لكن الشيخ ابن باز يصلي أحد عشر ركعة.

فقال له: إذا صرت مثل الشيخ ابن باز، فصلِّ. وهذا من احترام الشيخ ابن ابراهيم لتلميذه ابن باز.

**

حتى مع الاختلاف، نجد الاحترام و الإكرام واضحاً جليّاً بين أهل العلم . من ذلك:

أن الشيخ الهندي عبد القادر السندي قد ألف رسالةً في الرد على الشيخ الألباني في مسألة الحجاب، حيث كان له رأي – عفا الله عنه– مخالفٌ للصواب، ويبقى له احترامه وتقديره.

فكان الشيخ عبد القادر السندي في مرض موته يقول لبعض تلاميذ الألباني: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما ألفت في الرد على الشيخ الألباني، وأخشى أن يكون ما كتبت سبباً للطعن على الشيخ من أهل البدع.

***

باب
تتبّع أحوال المسلمين ، و الشفاعة لهم، والحرص على السنة

شفاعات أهل العلم في قضايا المسلمين العامّة والخاصة كثيرة، قد تغص بها الصفحات لمن تتبّعها. والعالم إذا صدق مع الله وأخلص، فإن الله يكرمه بالنعم الكثيرة، ومن هذه النعم: الوجاهة، وقبول الخطاب عن المسئولين سواءً في بلده، أو في بلدان المسلمين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

ممن امتدّ نفعه إلى بلاد الدنيا: سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله -. حيث أنه يتحسس أحوال المسلمين ، و تصل إليه القضايا من شتّى أقطار العالم ، طلباً للشفاعة ، أو الكتابة لمسئول، أو فتوى.

من شفاعاته في أحوال المسلمين: أن شفع لشابٍ جزائري مظلوم، سُجن في فرنسا، بلغه خبره، فكتب إلى رئيس فرنسا عن حالة هذا الشاب ، فأطلق سراحه.

وفي شفاعة أخرى حين حكمت السلطات بالقتل على بعض الدعاة في إحدى البلاد الإفريقية، فشفع لهم الشيخ.

وشفع لسيد قطب أن لا يقتل، لكن جمال عبد الناصر قتله. فصلى عليه الشيخ صلاة الغائب، وفي المساجد كذلك. وكتب تحذيراً وإنكاراً لفعل جمال عبد الناصر ذلك.

**

ومن الحرص على أحوال المسلمين ما أخبر به الشيخ زهير الشاويش، صاحب المكتب الإسلامي، أخبر أن الشيخ الألباني قد أعد نفسه إعداداً جهادياً؛ لأجل الدخول إلى فلسطين، لكن مُنع من الحكومة الأردنية.

**

الشيخ ابن باز معروف بالحرص على السنة، فكان من يُقدم له النعل يقول: أُقدم له النعل اليسرى، فيرفع رجله، ولا يلبس حتى أضع اليمنى. وفي الأخذ، واللبس، و الشرب، ومشهور في الشيخ حبه للوتر، كان يرى الوتر في كل شيء، في الأكل، والشرب، واللبس.

**

وإذا ناول أحدٌ شيئاً للشيخ الألباني باليد اليسرى قال له: الله يهديك، الله يهديك. يكررها حتى ينتبه لذلك.

وأثنى الشيخ الألباني في بعض كتبه على أحد إخوانه، وأخو هذا رجلٌ صالح و داعية، لكنه ليس كالشيخ في العلم. فأثنى عليه، وتألم لوفاته في بدايات القرن الحالي حاجّاً، ويقول: كان أخي في الحج، وأخبرني من كان معه أنه كان في الحج، فتعب، فأسعفه من بجانبه، وأتوا له بعصير،

ناوله أحدهم بيساره. فقال له: عليك بالسنة. يقول: فأعطاه باليمين، وشرب العصير. ثم بعدما انتهى مات -رحمه الله-.

***

باب
الدعابة في حياة العلماء

•الشيخ محمد الأمين الشنقيطي دخل عليه وهو في الجامعة الإسلامية في القاعة أثناء المحاضرة الملك فيصل والوفد المرافق له، ومعه الطبيب رشاد فرعون. فعرف الملك فيصل، ثم سأل الشيخ الأمين الشنقيطي: من هذا ؟، قالوا: رشاد فرعون. قال: وما أمر فرعون برشيد. وأكمل المحاضرة. فأُعجب الملك فيصل بهذا الرجل، حيث أنه لم يوقف التدريس، ولم يرتعد أمام ولاة الأمر- رحمهم الله جميعا-.

**

•الشيخ محمد بن إبراهيم شيخ مهيب، يهابه العامّة، والعلماء، والأمراء. وكان الشيخ لا يضحك كثيراً، بل ضحكاته نادرة. فمن النوادر التي ضحك فيها، موقفٌ له مع الشيخ عبد الرحمن الإفريقي.

يُحدّثه الشيخ الأفريقي فيقول: يا شيخ، أنا لما كنت أيام الشباب صاد أهلي ضب فذبحته، ثم كان (يتهرك)، يقولها بلكنته العربية الضعيفة، ثم وضعته يا شيخ في القدر يطبخ فكان (يتهرك)، فقلت لأهلي: هذا إذا أكلته (سيتهرك). يعني سيخرج من بطني، فضحك الشيخ ابن إبراهيم.

***

باب
وصايا الآباء

وصايا الأب للابن تكون سبباً في بزوغ نجم علمٍ أو عالم، وقد تتلمذ عددٌ من العلماء على آبائهم، و على أمهاتهم. من ذلك:

•ذكر الشيخ عبد الله بن بسام رحمه الله أن من أسباب تأثره: والده. فيقول: والدي لم يسمح لنا أن ندرس في الكتاتيب؛ لأنها تأخذ وقتنا، ويرى أن التعليم في وقتهم كان ضعيفاً. يقول: كان يدرسنا أبي الكتابة و القراءة والقرآن ونحفظ عنده القرآن، فكلما مرينا على قصة نبي، أو شيء يتعلق بالسيرة في القرآن فسّر لنا و شرح، و ذكر القصة. فيقول: ما بلغت الثانية عشر من عمري حتى كان عندي حصيلة من قصص الأنبياء والسير والأخبار ومواقع الأنبياء وأخبار السيرة والغزوات. وكان هذا من أسباب انتفاعه واهتمامه بالتاريخ .

**

•لما أخذت فرنسا الشيخ عبد الرحمن الأفريقي وهو صغير، وكان ذكيا منذ أيام شبابه، وأخذه الفرنسيون المستعمرون لبلده ؛ للتعلم ، في بعثة داخل إفريقيا في بلدٍ آخر، ويصرف عليه كل شيء. يقول: لما فارقت أبي، ودعني و هو يبكي، وقال: يا بني، تذكّر أنك مسلم، وأنك سترجع إلينا، وهؤلاء لم يأخذوك إلا وهو يريدون أن يغيروا دينك، وسترجع إلينا. في عبارات تذكيرية تنفع لكل مبتعث، فصارت من أسباب ثباته. فيقول الشيخ: كنت إذا حصل لي بعض الأمر أتذكر كلام أبي.

ثم قال له مرة المسؤول الفرنسي: أبناء بلدك الذين أتوا معك، أو مثلك في هذه البعثة، حصل لهم تمدن وحضارة، وغيروا شكلهم، وأنت ما تغيرت، وتقرأ كتبك. يقول الشيخ: فغضبت وتركته، غضبة لله.

ثم ذهب إلى الحج، وتعرف على بعض العلماء في المدينة، و درس عند بعض الشيوخ، علوم الآلة، وعلم أصول الفقه، والحديث، والمصطلح، فلما أراد أن يرجع بعد سنتين أو ثلاث إلى بلده قابل بعض أهل بلده في مجلس، أو في المطار، فقال: تخرج من بلد رسول الله وما تعلمت التوحيد. يقول: فرجعت، وأكملت الدراسة. فبرجوعه هذا استمر حتى صار عالماً، و مدرساً في المسجد النبوي. وله كتاب عن (الرد على الطريقة التيجانية)، يرد على صوفية بلده.

***

فصل

إمام المسلمين في زمانه الشيخ عبدالعزيز بن باز

تمهيد

هنا أخبار ليست مفصلة عن حياة الشيخ، بمعنى أنها لم تستوعب جميع أخبار الشيخ، وغير مرتبة، وربما أذكر خبرًا عنه في رمضان، وعنه خبر في الحج، ثم في منزله، ثم في الطريق، ثم في السيارة، هي غير مرتبة، ولم أقصد بذلك إلا التنويع.

إن من أهم علماء هذا العصر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله– ، ولا أبالغ إن قلت أن الله ﷻ جعل له القبول في كل الأرض بين الإنس والجن، ربما تفوق شهرته لعدد من العلماء الأعلام الذين توفاهم الله ﷻ، بل من مشاهير العلماء الأقدمين؛ لأن سماحة الشيخ ابن باز أطال الله ﷻ في عمره ونشر علمه واشتهر في شبابه من حين أن نزل إلى بلدة الخرج قاضيًا وعمره سبعٌ وعشرون، وقد اشتهر بالعلم والفضل، بل من صغره. فكم في سيرته –رحمة الله عليه– وأخباره من المواقف والعبر.

بعض من رآه يقول: سارت سفينة السلف وتركت هذا الرجل. فكان كالشمس للدنيا، والعافية للناس، كما قال الإمام أحمد عن الشافعي لابن الشافعي: (إن أباك من الستة الذين أدعو لهم في

السحر، وأبوك، هذا كلام الإمام أحمد لابن الشافعي، يقول: وأبوك كان كالشمس للدنيا والعافية للناس، فليس منهما عوض)[1]، وأنا أقول: كان الشيخ ابن باز مثل ذلك .

ومن تأمل في وقفاته، وعلمه، وشجاعته –رحمه الله– تبين أن كثيرًا من الفتن وإذلال المسلمين وقهرهم، وكثرة المنكرات إنما جاءت بعد وفاته، فهو كان كالجبل، وليس الباب كالجبل الذي كان الناس يتدرَّون به، كما قال أحد كبار العلماء: كنا نعيش خلف هذا الجبل، وهو ابن باز، فلما مات لم نجد ما نتدرى به.

والشيخ عبد العزيز –رحمة الله عليه– إمامٌ في ثمان، يعني في ثمانِ خصال:
فسماحته إمامٌ في العلم، وفي العمل، وفي الزهد، والورع، وقضاء الحوائج، والصبر على الناس، والكرم، وخصالٍ كثيرة.

إن سماع مواقف هؤلاء العلماء ليربي في النفس حب الخير والإصلاح، وصدق الإمام ابن الجوزي إذ يقول: (ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر)[2] ، ومما يؤسَف له أنه قد نشأ عددٌ من الناشئة من الشباب لا يعرفون علماءهم ولا أسماءهم. وبعض الناس ربما يطلب العلم في وقتٍ يسير فيُعْجَب بعمله ويُعْجَب بنفسه فإذا مر بأخبار هؤلاء العلماء يرى أن نفسه حقيرةٌ صغيرة أمام هؤلاء الأكابر.

***

(١) : أورد هذا الخبر ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٥١٧١) عن الميموني قال: قال لي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي القاضي: قال لي أحمد بن حنبل: أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم في السحر. و جاء عند الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٨٩٣) عن عَبْد اللهِّ بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل، قال: قلت لأبي: يَا أبة أي رجل كَانَ الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له، فَقَالَ لي: يَا بني ، كَانَ الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف، أو منهما عوض.

٢ : تلبيس ابليس (١/ ١١٦).

باب
سماحة الشيخ في الخرج

الشيخ لا يريد القضاء أصلاً، إنما أُجبر من الملك عبد العزيز -رحمه الله-، ومن شيخه محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وكان ابن باز لا يستطيع رد طلبهم. فأُرسل للقضاء وعمره ثمانٍ وعشرين سنة.

لما قدم إلى بلدة الخرج، جمع الناس وأمير البلدة، فاجتمعوا إليه، ثم ألقى كلمة، قال فيها: (واللهِ، ثم والله، لم أُرْد القضاء، ولا أرغب فيه، ولا أريده، ولا بحثت عنه، لكن طاعةً لله، ولرسوله، ثم لولي الأمر، وأنا بينكم سأقضي بما سيفتح الله ﷻ علي). ثم بدأ بمسيرته القضائية، فاستمر أربعة عشر عاماً.

**

ذات مرة، استسقى الشيخ، ووعد الناس بالسقيا، فسقاهم الله ﷻ، فكتبوا للملك عبد العزيز: أن الشيخ عبد العزيز بن باز استسقى، ولم يستأذنك. فقال الملك عبد العزيز: ليتنا كنا معه، حتى يرزقنا الله مطر.

**

ومن مواقفه -رحمه الله-: أن الجراد لما أتاهم خرب المزارع في بلدتهم الخرج، وفي الدلم. فأمر الشيخ الناس جميعاً أن يخرجوا لطرده من المزارع، وخرج معهم، وكان قد عمي وعمره تسعة عشر عاماً، فخرج معهم الشيخ للمشاركة.

**

لما قدم للبلدة، كان له كرسي منصوب من الطين في السوق يجتمع له الناس يومي الاثنين والخميس، ويأتون إليه من كل جهة؛ لأجل السوق والشراء والبيع. فكانت عادة الشيخ أن يبدأ بكلمة يلقنهم درساً، ثم تبدأ الأسئلة، ويتكلم عن البيوع، والتحذير من الغش، يكون الرجال في جهة، والنساء في جهة، ثم يجلس في مجلسه وهو القاضي، ويرسل بعض الموظفين في الهيئة، ليست وظائف، وإنما بعض المحتسبين ، و لهم مكافآت من الملك، يرسلهم لمتابعة المكاييل والموازين، والتحذير من الاختلاط ، ومتابعة كل شيء.

وبنى لهم الجامع الكبير، وأعانهم عليه، ونصح البنائين أن يستعينوا بالله، ومن كان عنده بعض المواد يأتون بها عندهم.

بنى لهم المحكمة، و وسع لهم شوارع الخرج، وأنشأ بعض المدارس، وكان يخرج معهم أحياناً للبناء ويحضر ذلك.

**

وفي موقف مع رسول أحد المسئولين:

أتاه هذا المرسول، شخصٌ من قبل الحكومة، كأنه تضايق من كثرة شفاعات الشيخ، ذلك في بدايات شهرته ، فجاءه المرسول من الحكومة، أو ربما اجتهاداً منه. فمفاد الكلام الذي تكلم به مع الشيخ، أنه قال: أنت أُرسلت للقضاء ، لا تشغل نفسك بالبناء و المدارس، و متابعة أحوال الناس و الشفاعات، لا بد أن تشتغل بالقضاء فقط ، و لا تشغل نفسك بشيءٍ آخر.

ويضيف هذا المرسول، فيقول: و ما أتعبت فيه نفسك فالحكومة تكفيك، من كان عنده الحاجة يرسل للملك أو يأتيه، يقضي حاجته.

فقال لهذا الشخص: أنا قصدي عندما أعمل هذا العمل تطبيق حديث النبي ﷺ: اشفعوا تؤجروا، فإن جاء شيء من المسؤولين أو من أهل المال فالحمد لله، وإن لم يأت فالأجر حاصل، وهذه طريقتي ولن أغيرها.

ثم أضاف: القضاء ليس القضاء في شاة، أو بعير، أو بقرة، إنما القاضي عليه أن يقضي، و يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله ﷻ، و يصلح بين الناس، و يقضي في أحكام الطلاق. فذكر ما يجب على القاضي.

ثم قال: فإن جاء شيء من الحكومة، و إلا سأسير على طريقتي. فلما أُخْبِر هذا الرئيس أو المسؤول قال: إن كان هذا كلام الشيخ فأي شيء يأتي منه لا تردوه، وأنا معه لعلي أحصل على الأجر.

**

أول كتاب ألفه الشيخ هو: (الفوائد الجلية في المباحث الفرضية) في الفرائض، كتيب ألفه وهو قاضٍ في الخرج ، و له من العمر ثمان و عشرين سنة ، ثم ألف في المناسك : (التحقيق والإيضاح) وهو أيضاً في الخرج، وطُبِعَ مئات المرات بعدة لغات، وكلما قرئ على الشيخ قبل الحج أو في الحج علق عليه، إما أن يزيد أو ينقص منه، و يقول: ما أضعف الإنسان. ففي كل مرة يتبين له شيء في كتابه.

***

باب
الشيخ –رحمه الله- والزهد

الزهد ظاهر في حياة الشيخ، في لباسه، في أكله، مع أنه لو أراد الدنيا لتسابق الناس لخدمته، لكن لا يأخذ شيئاً من أحد من المسؤولين، إلا لنصرة الدين.

من مواقفه في الزهد: جاءه أحد الطلاب بقصيدة فيها مدح للشيخ، نظمها في خمسين بيت تقريباً، أصرّ على الشيخ أن يُسمعهُ القصيدة، فالشيخ امتنع، ولم يرغب في ذلك. فقال الطالب للشيخ: أن سأقول القصيدة ، إن كان بها ملاحظات فأوقفني.

فبدأ، فكلما ذكر بيتاً في مدحه ازداد تسبيحه وذكره لله، فلما وصل للبيت السابع أوقفه، وقال: تريدون نشرها في المجلة، يعني مجلة الدعوة، ذلك أن هذا الرجل كان مندوب مجلة الدعوة أو المسؤول عن بعض الأمور في مجلة الدعوة، فقال الشيخ: لا تنشروها، بل مزقها الآن مزقها، فمزقَها هذا الشخص. وأشاح الشيخ بوجهه عنه وهو يستغفر الله و يحوقل.

**

جاءه مندوب من أحد الأمراء، وقد أهداه مبلغاً كبيراً، فقبله، ثم كره ذلك، ولم يرتح ذلك اليوم أبداً، على الرغم من أنه وزع بعض هذا المال على الفقراء في مجلسه.

يقول أحد مرافقي الشيخ: فظهرت على وجه الشيخ علامات الكراهية، وتألم لقبول المال، لكنه قبله لأجل حوائج الناس، مع أنه هدية.

قال له المندوب: هدية لك يا شيخ. ففرق الشيخ بعضه، ثم دعا هذا الموظف المرسل من الأمير، فقال: أنا ما ارتحت بأخذ هذا المال، إما أن تأتي و تأخذه جميعه، والمبلغ كبير، أو تستأذن من الأمير أني أوزعه على الفقراء. فقال المندوب: الأمير يسمح لك، وزعه كما شئت. فلم يبقَ عنده منه شيء.

**

لما انتهى من بناء بيته في الطائف، وهذا البيت بخلاف بيت الشيخ في مكة المجاور للجامع، والذي لا يزال مفتوحاً في مكة، فلما انتهى من بناء بيته في الطائف، أرسل له أيضاً أحد الأمراء مبلغاً كبيراً لتعديل المنزل. فرد المال، وقال: بارك الله لك في مالك، ولا حاجة لي فيه . فدعا له و رد المال .

وكثرت على الشيخ الديون منذ مدةٍ طويلة، فراتبه لا يبقي منه شيء إلى نهاية الشهر. ثم إن أحد الأمراء سمع أن الشيخ ينوي بيع منزله في الطائف لسداد الديون. فقال الأمير: استأذنك بإخبار الملك؛ لعله يعطيك منزل. فمنعه الشيخ، ولم يأذن له أبداً، لا بأخذ مال، ولا بإخبار الملك .

وكان يأخذ من وزير المالية قسطاً من المال. كتب لوزير المالية، فقال له: أنتم تشاهدون كثرة الضيوف عندي. والشيخ يومياً لا يقصر عن ذبيحة في كل غداء و عشاء طيلة عمره، ولا يعرف أنه أكل وحده أبداً، ولا مع أهله أبداً طيلة عمره، منذ أن اشتهر في عمر السبع والعشرين.

***

باب
الشيخ، و فتاوى الطلاق

كثيرة جداً قضايا الطلاق التي أفتى فيها الشيخ -رحمة الله عليه – بعد أنه عرضت له ، بل ربما جاء وقتٌ لا يتكلم في فتاوى الطلاق إلا سماحة الشيخ ، لا أنه يمنع غيره ، لكن لأن القلوب تجتمع عليه ، و هو مشتهر بالفتاوى في الطلاق لما كان قاضيا في الخرج ، و يخالف المذهب ، و يخالف شيخه الشيخ ابن إبراهيم و ما عليه الفتوى ، ليس لأنه يحب الشهرة أو مخالفة العلماء .

وقد وجه له خطاب من الملك عبد العزيز – رحمه الله – مفاده: أنك تخالف العلماء في قضية الطلاق.

فبيَّن الشيخ موقفه، وهذا لما كان قاضياً في الخرج ، بين طريقته في فتوى الطلاق بالأدلة. فقال: أنا أتبع علماء أكابر في هذا الشأن، وعلمائي وشيوخي لهم التقدير والاحترام، ولا أرد أقوالهم.
وكان العلماء بعد ذلك يخيرون السائل بين فتاوى ابن باز، أو فتاوى المذهب. فاشتهر أمره من ذلك الوقت.

ويقول الشيخ عن نفسه: لم أندم على أي قضية طلاق، إما بإرجاع المرأة لزوجها، أو بالتفريق، بل نُقل عنه أنه قال: ما أفتيت في قضية طلاق حتى صليت ركعتين واستخرت.

***

باب
سماحة الشيخ مع الصغار

كان الصغار إذا قدموا عليه يكرمهم ويحييهم. ومما يبدأ به: إكرام الصغير قبل والده، فيفرح الرجل إذا أتى بولده عند الشيخ وسلم عليه. وكان الشيخ يسلم على الطفل ويدعو له، ويسأله الشيخ: من ربُّك؟ ما دينك؟ ماذا تحفظ من القرآن؟ أين تدرس؟ ما إعراب الله أكبر؟ وغيرها من تعامله مع الصغار.

والشيخ -رحمه الله- يستقبل الاتصالات الهاتفية، فمن عادته أحياناً يضع مكبر الهاتف إذا لم يكن عنده إلا قلة من الحضور ، أو أن يخبرهم بالسؤال بعد ما ينتهي من المتصل.

فاتصل به مرة ولدٌ صغير قال : يا شيخ عندي اقتراح .

قال : تفضل

قال : يا شيخ ، كثر الناس عليك ، وكلهم يأتيك من كل جهة ، فلو تضع مفتياً معتمداُ في كل منطقة من مناطق المملكة ؟

قال الشيخ : ما شاء الله يا ولدي ، كم عمرك ؟

قال المتصل : ثلاث عشرة سنة .

قال: اقتراحٌ ممتاز ، والله يوفقك ، اكتب لنا لهيئة كبار العلماء هذا الاقتراح ، و إن شاء الله سندرس هذا الأمر ، و نعمل به .

ثم لما انتهى الشيخ من المكالمة أمر الكاتب بكتابة هذا الاقتراح.

**

تروي ابنة الشيخ الجوهرة ، فتقول : لما كنت صغيرة اختلفت أنا و أحد إخواني في طريقة الوضوء في التقديم و التأخير. فعلم بهم سماحة الشيخ و ناداهم، قال: احضروا الكتاب .

فأحضروا الكتاب، ثم أمر البنت أن تقرأ. فلما قرأت عرفت أنها أخطأت في ترتيب الوضوء ، ثم شرح لها. وقال : فهمتي ؟ قالت : فهمت ، ثم شرح لها صفة الوضوء ، ثم قامت بعد ذلك.

وهذا يبرهن اهتمامه في التربية على النقاش والحوار، من ذلك إحضار الكتاب و قراءته ، وأيضاً شرحه لصفة الوضوء، وغير ذلك.

***

باب
احترام الشيخ للعلماء

محبة الشيخ للعلماء ، و ذكره لهم كثير ، و ثناؤه عليهم كثير جداً . و من سعة أفق الشيخ احترامه للرجال من شتى المذاهب ، و احترام علماء المذاهب ، و لم يُعهد عنه أن جرح أحداً. و إذا احتاج إلى الرد ، فإنه يرد بلا تأنيب لأحد أو جرح لأحد . ينصح بالتي هي أحسن ، باللتي هي أقوم ، لا يستخدم الكلمات الجارحة ، النابية ، أو الشديدة على أحد ، ولسهولته و لينه في الخطاب و رفقه –رحمة الله عليه– استحوذ على قلوب كثيرٍ من الناس ، بل قال عنه الشيخ يوسف القرضاوي –وفقه الله– ، كتب مرثية في الشيخ و مقالاً خرج في بعض كتبه ، و نُقِل ، قال : لا يبغض الشيخ إلا مدخولاً في دينه أو عقيدتِه ، أو ملبّساً عليه. بمعنى أنه لم يفهم أو يعرف الشيخ .

و من احترام الشيخ لآراء العلماء ، استماعه لآراء الآخرين في المجامع الفقهية . و هو رئيس مجمع الفقه الإسلامي ، و قد ترأس مجامع كثيرة و معاهد و كليات ، و المعهد العالي للقضاء ، و الجامعة الإسلامية ، و ربما تولى عدداً من المناصب في وقتٍ واحد ، و كلها يقوم بها أتم قيام ، فإذا جلس في المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي يستمع لآراء جميع العلماء ، و يستمع لآراء المتخصصين ، فإذا كان الأمر يتعلق بالطب يأتي بالأطباء ، و يسمع منهم كل ما يتكلمون به ، ثم يتكلم بعد ذلك .

و من احترامه للعلماء ، وافق أن أحد طلاب الشيخ رتب له جلسة مع الشيخ عبد الرحمن البراك –حفظه الله– ، و الشيخ عبد الرحمن البراك من تلاميذه لما كان في الخرج. فيقول : لما حضرت ، ذهبت بالشيخ البراك إلى الشيخ ابن باز للاستفادة من علمه ، و أخذ ما عند الشيخ ابن باز من

علم . فقال الشيخ ابن باز : فرصة يا شيخ عبد الرحمن ، بما أنك حضرت ، عندي بعض المسائل في الحيض أريد أن أسألك عنها . هذا مع إنه من تلاميذه . و الشيخ لا يتكلف في هذا الشيء ، من لم يرَهُ يظن أن هذه الأمور فيها تمثيل أو غرابة ، و هذا ليس بغريب على من رأى الشيخ ، و رأى تعامله و بساطته .

كما أن عدداً من الشباب ، أخبرني بعضهم أنه رأى بعض الأمراء يأكلون مع الشيخ و الفقراء على مائدته على الأرض ، هذه طريقته في مائدته ، و جمعه للناس .

كان إذا اجتمع مع هيئة كبار العلماء يتيح لهم أن يتكلموا جميعاً ، و يقول : إذا انتهيتم من المسائل العلمية و الفقهية ، و الاختلاف في الفتوى أجعل كلامي كلام نائبي ، و كلامي آخر شيء ، حتى ما يميل بعضكم لقولي ، ثم يتكلم و يرضى الجميع .

***

باب
المواقف والخواطر

أحد كبار الصالحين والقراء والرقاة، من القرى المجاورة للرياض، رجلٌ صالح يذكرُ عنه عدد من العلماء وطلاب العلم أنه ما إن يبدأ بقراءة الفاتحة على المريض حتى يهرب الجن الذي به.

رجلٌ صالح، ومن صلاحه منعهُ الشيخ ابن باز من القراءة خشيةَ تبرك الناس به، والشيخ يعلم صدقه وفضله، لكن منعه، والشيخ ربما يمنع بعض الناس وبعض المعبرين، ويمنع بعض الذين

يفتون بالطلاق، ويمنع بعض الدعاة ليس منعاً قوياً، أو تهديداً، إنما يكتب له: لو أنك يا فضيلة الشيخ لم تقُل كذا، ثم يفهم إنه لا ينبغي له أن يفتي، أو لا يتسرع في الفتيا.

فهذا الراقي بعد وفاة الشيخ ابن باز طلب منه أحد كبار العلماء أن يقرأ على امرأة من أقاربه، فقال الراقي: لا أستطيع أن أقرأ، والشيخ عبد العزيز منعني، اعطني موافقة منه في قبره، واسأله إن كان موافق على القراءة. فهذا من صور محبة الناس للشيخ و انصياع العلماء له، ويصدق فيه كما قال الفرزدق:

تَرَى النّاسَ ما سِرْنا يَسِيرُونَ خَلفَنا وَإنْ نَحنُ أوْمأنا إلى النّاسِ وَقّفُوا

**

ومحبة الشيخ لشيوخه وأقرانه والثناء عليهم والدفاع عن أهل العلم ولو اختلف معهم

بعض الناس يأتيه و يخبره عن أحوال بعض العلماء ممن عليه ملاحظات ، أو فتوى خاطئة ، أو خطأ في العقيدة . فما يزيد الشيخ على أن يقول : ادعوا لهم بالهداية ، نسأل الله أن يهديهم ، و لا يقوم من المجلس وقد تكلم فيه أبداً .

**

إذا كان في مجلس مع الشيخ عبد الله بن حميد، وهو من أقرانه أكبر منه قليلاً، لكن شهرة ابن باز أكثر، وأعلم بلا شك، والشيخ عبد الله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى، و رئيس الحرمين، فإذا كان الشيخ ابن باز و ابن حميد في مجلس يُتعبان من يباشرهما بالقهوة، كلٌّ يقدم الآخر. وإذا قدمَ إليهما شخص يسأل أحدهما، فكلٌّ يحيل على الآخر، ولا يتقدم ابن باز على ابن حميد أبداً في الإمامة تواضعاً مع أقرانه.

**

إن علمَ أن أحد المشايخ قدم إليه من المشاهير أو غيرهم ، يخرج إليه إلى الباب يستقبله ، على كثرة مشاغله . و قد يكون المجلس مكتظاً بالحضور .

**

أقيم حفل خيري مرة في (دار المهاجرين بمكة) ، و وقف عند الباب قبل الدخول هو الشيخ عبد الحق الهاشمي ، أحد العلماء المحدثين من علماء الهند سكن في مكة قديماً ، و مسنَدٌ إلى النبي ﷺ ، فالشيخ يأمره بالدخول ، و عبد الحق الهاشمي يمتنع قائلاً: يا شيخ أنت أعلم وأفضل ، ادخل. فوقفوا وقتاً عند الباب ، ثم قال عبد الحق الهاشمي : سأكون بين يديك مثل أنس أمام الرسول ﷺ ، أنس خادم الرسول ﷺ كان يمشي أمامه ، فمشى أمامه تشبيها لنفسه بأنس رضي الله عنه.

**

وفاءه لشيخه الشيخ محمد بن إبراهيم ظاهر. فالشيخ يذكر شيوخه كثيراً، ويثني عليهم، بالذات الشيخ محمد بن إبراهيم، ولا يتمالك نفسه إذا ذكر شيخه، إلا أن يبكِي. فمرةً قرأ عليه أحد الطلاب حديثاً، فأخطأ الطالب في الحديث، فقال: أعد. ومن عادته أن يعيد الطالب القراءة، حتى يتنبه لخطأه، فإن لم ينتبه، صحح له. فأعاد الطالب، وصحح له الشيخ، وقال: هذا التصحيح عرفته من شيخي محمد بن إبراهيم ، ثم تذكره و بكى –رحمه الله– .

**

قال الشيخ يوسف القرضاوي –حفظه الله– : لم أرَ مثل الشيخ ابن باز أبداً في وده، وصفائه، وأخلاقه، ولا في بره، وإكرامه لأهل العلم، وطلاب العلم من أبناء وطنه، وأبناء المسلمين عموما . فقد كان من أحاسن الناس أخلاقاً .

ويقول: لقد رأيته في مجمع الفقه الإسلامي يستمع، وينصت لجميع الآراء بكل اهتمام، ثم يأتي برأيه بعد جميع الآراء.

باب

مناصحة الشيخ للحكام

الشيخ يسير في تعامله مع ولاة الأمر أولاً بطاعة الله و رسوله، ثم طاعته لولاة الأمر، و المناصحة لهم، واللطف معهم ، وتذكيرهم. وسأذكر بعض المواقف المتفرقة التي لا تجتمع تحت نقاط. فالشيخ له مواقف كثيرة في المناصحة.

**

مرةً في مجلس، أو أحد دروس الشيخ، أحد الحضور بدأ يشتد على الشيخ في منكرات ومخالفات، كأنه يعرّض بالشيخ أنك ساقط و لا تنكر في المحاضرات و الدروس العامة بعض هذه المنكرات. فقال الشيخ: الحمد لله، نكتب مذ خمسين سنة للمسؤولين في مثل هذه الأمور. اكتبوا أنتم ، استعينوا بالله، وأنا إن شاء الله سأكتب.

**

لما ألّف القذافي (الكتاب الأخضر) معارضة للقرآن ، و بين أن القرآن محرف مباشرةً و ضمناً ، أرسل الشيخ له وفداً لمناصحته .

**

ولما كتبت امرأة إيطالية في الصحف الليبية أني التقيت برسول الصحراء، أرسل منكراً عليه: لا بد أن تنكر على هذه المرأة ، وتعلن تراجعك عن (الكتاب الأخضر) في وسائل الإعلام، وتعلن الرد على هذه المرأة أنك لست برسول.

و لما حذف أيضاً آية :﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحد ﴾ ، و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، والسبب أن القذافي يقول: المخاطب بها الرسول، ولا يلزم، فكان يقول (الله أحد) ، (يا أيها الكافرون)، هذا رأي القذافي. فأنكر عليه الشيخ بالاتصال ، ثم اقتنع القذافي في ذلك الوقت .

**

ومن المواقف أيضاً، بلغه أن الرئيس التونسي السابق ربما منع بعض الناس من الأضاحي، ومن الصيام، وفي رأيه أن هذا يضعف الناس عن الأمور التنموية في البلد، فمن صام ضعف، ومن دفع مالاً للأضاحي نفد ماله، فاتصل به الشيخ مباشرةً، وأنكر عليه .

مواقف الشيخ في الإنكار كثيرة، وميزة الشيخ في هذا الأمر أنه لا يوسط أحداً، للتأكد بنفسه، ثم يناصح المسؤول أيضاً بنفسه، باللتي هي أحسن، للتي هي أقوم.

***

باب
سماحة الشيخ وسعة الصدر وحسن الخلق

من جوانب العظمة في سيرة هذا الرجل ما أعطاه الله ﷻ من حسن الخلق، وتحمل الناس، متخلقاً بأخلاق النبوة مع العدو والصديق، والصغير والكبير، إذا حضر في المجلس يسأل جميع الحضور عن أسمائهم وأحوالهم وأهلهم، والأمطار والمشايخ التي في ديارهم إلى غير ذلك ، إلا إذا كان في المجلس معاملات كثيرة أو فتاوى كثيرة ، و لا يتأفف من إزعاج الناس له.

من سعة صدره – رحمه الله – عدم مقاطعة السائل وإن أطال في السؤال، يسمع السؤال كاملاً، ثم يجيب. فقد جاءه مرة أحد الأشخاص في الحج، بعد جهدٍ كبير في الحج ، يوم حافل بالعلم والعبادة والتعليم واستقبال الوفود، لما نام في وقتٍ متأخر من الليل جاءه هذا الرجل يريد أن يسأل الشيخ. فقالوا له: الشيخ متعب ، وطول اليوم متعب، لو صليت معنا الفجر؛ لأن الشيخ عنده درس ساعة بعد الفجر، ثم الإفطار ثم استقبال الوفود ثم صلاة الظهر، والغداء ثم صلاة العشاء ، هذه طريقته. فقالوا له: لو أنك صليت الفجر مع الشيخ و انتظرت ، فدعه ينام الآن. فقال الرجل: لا، أنا أريد الشيخ في سؤال. قال من حوله: لو انتظرت. قال : ما أريد إلا الشيخ. وهناك طلاب علم موجودون مع الشيخ، عدد من العلماء يكونون معه، يفتون في مخيمه، ويذهبون لإلقاء بعض المحاضرات. فقال: ما أريد إلا الشيخ.
فدخل إلى خيمة الشيخ ، إلى فراشه ، فأستيقظ الشيخ وجلس يسمع السائل، و لما انتهى السائل، قال له : انتهيت يا ولدي ؟
قال: نعم انتهيت ، فأجابه ، ثم عاد الشيخ للنوم .
يقول المرافقون للشيخ : كان السؤال عادي جداً ، ربما يجيب عنه أي طالب علم .

أخبرني من كان مرةً أيضاً على مائدته في الحج ، أحد السائلين ، رجلٌ جلف ، كبير في السن ، لم يتأدب بأدب العلم ، و لا يعرف كيف يسأل العلماء ، فقال للشيخ : والله ما ندري من الصادق من الكاذب فقهه من العلماء، واحد يقول حرام ، و واحد يقول حلال في أي مسألة من المسائل. فكيف يتكلم بهذا الكلام على الشيخ، وعلى مائدته ، مع شهرة الشيخ و علمه . و الشيخ لم ينهره ، و لم يقل شيء ، فقال : الحمد لله، العلماء كل له دليل ، من أفتاك بتحريم هذا الشيء له دليل ، و من أفتى بحل هذا الشيء له دليل .

**

مرةً جاءه شخص أعرابي من مكانٍ بعيد يريد السؤال عن طلاق، في بيته في الرياض، وكان هذا الرجل على عجلة من أمره، يريد سؤال الشيخ وهو ذاهب للغداء، فقال الشيخ: انتظر بعد الغداء إن شاء الله. قال له الرجل: يا شيخ ، أنتم متفرغون، لكننا مشغولون. قال الشيخ: انتظر.
قال الرجل: ما ابغى غداك. فقال الشيخ : بُصْرَك. أي : أنت أبصر بنفسك.
فالشيخ تركه حتى بعض المرافقين للشيخ قالوا: لو تأكل ؟
ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم أكل. و بعدما انتهى، سأل الشيخ وهو يغسل يديه بعد الأكل عن مسألة الطلاق. فقال الشيخ: لم تطلق زوجتك. فاعتذر من الشيخ وقبل رأسه وبكى، ثم ذهب.

**

أشد ما تجد من الشيخ من القول عندما يغضب: اللهم اهدنا ، أو اللهم اهده، أو سبح. هذا إذا غضب، أما كونه يدعوا على أحد أو يشتم أحد ؟ أبداً، لا يعرف عنه –رحمه الله-.
وقد بين الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه بلينه و رحمته تبعه الناس : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ، فالنبي ﷺ على تكامل صفاته وأخلاقه وشخصيته، من أهم ما جمع أصحابه عليه حسن الخلق، فمن باب أولى من يتبع الرسول، أو من يقتدي به.

ومن أخلاقه –رحمه الله– عدم التثريب على المخطئ، بل التأكد منه و مناصحته سرّاً، وسلامة الصدر للمخالف أيضاً.

**

مرةً جاء أحد العلماء الأكابر مشهور من علماء إحدى الدول إلى مجلس الشيخ ، و هذا العالم أفتى بفتاوى فيها ملاحظات في مسألة الغناء ، و كشف الوجه ، و مسائل من هذه الأمور ، و حول تخفيف اللحية وحلقها ، فالشيخ –رحمه الله– خرج له إلى سيارته أو استقبله في المجلس، و أول ما جلس في المجلس رحب به ، و لما انتهى ودّعه إلى السيارة و أغلق الباب له .

وكان أول ما جلس الشيخ في مجلسه بعض الشباب المتسرعين استعجل وقال للشيخ : ما حكم سماع الغناء ؟ فقال الشيخ : سبح ، سبح . و أمر بالقهوة و التمر للضيوف .
ولما سكت الشيخ أيضاً سأل سائل آخر، أو هو نفسه، قال: يا شيخ ، ما حكم حلق اللحية ؟ قال: سبح، سبح. وكانت لحية الشيخ الضيف خفيفة، أو ربما يحلق اللحية ، لكن له جهود بلا شك، وعرف الشيخ فضله، فأكرمه غاية الإكرام ، وخرج معه إلى السيارة.
أما السائل، فلم يجبه الشيخ، بل قال: انتظر، وسبح، ثم انتهى من الغداء، و ودع ذلك العالم .

**

يخبرني أحد أئمة الحرم النبوي قائلاً : سافرنا إلى إحدى بلاد شرق آسيا للدعوة في وفد رسمي بعد وفاة الشيخ ابن باز ، يقول : أن رابطة العلماء في هذه البلاد ، يعني العلماء كلهم و لله الحمد على قول واحد، وهو قول أئمة السلف في العقيدة و في الفقه و الأحكام، يقولون: كان عندنا أحد العلماء له تأثير وأثر، وعنده بعض التصوف، وله أثر على حكومته و بلدته، و على الناس، وكبير في السن.

يقولون : كلما أتينا بمسألة علمية أو عقدية في المجلس لمناقشتها ، هذا الرجل يخالفنا ، و له شأن في بلاده ، فلما أخبرنا الشيخ ابن باز ، قال : اشتروا لسانه ، و أنا مستعد ادفع له الراتب من عندي شهرياً ، فلما دفع له الشيخ الراتب وقف لسانه. وكان بعد ذلك إذا عرضت أي مسألة، ثم قالوا قول الشيخ ابن باز ومشايخ السعودية، يقول: معكم على القول. فهذه لمحة من تعامله –رحمه الله– مع العلماء.

**

مظاهر حمله لهموم الناس والحرص عليهم، و رسائل الشيخ في مناصحته للحكام و للمسؤولين و للعوام وعموم الناس كثيرة جداً ، و يستغل مواسم العبادات و الطاعات، ومواسم أحوال المسلمين سواء فيضانات ، أو حروب و قتل و تشريد ، لا بد أن يرسل تعميماً في ذلك ، و لربما أئمة المساجد الذين كانوا في زمنه يدركون كثرة تعاميم الشيخ في القنوت ، و في الحث على جمع التبرعات لإخواننا المستضعفين ، و غيرهم .

والشيخ له مندوبين في كل دول العالم تقريبا ؟ مندوبون يصرف عليهم من راتبه ، و ليس من أموال الدولة، للشيخ ألف مندوب ، كلهم يتبعون الشيخ، و يخصص من راتبه، وهو لا يلقي بالتبعية على الآخرين. فأي منكر يسمع به ، أو فعل خير ، أو بناء مسجد ، فإنه لا يقول اكتبوا للمسؤولين، أو اكتبوا لفلان و فلان أبداً. يقول لهم: اكتبوا لي ، ثم تدخل ضمن المعاملات، و تنجز في يومين، أو ثلاثة أيام، مسائل الطلاق إن تأخرت، فليس أكثر من أسبوعين، إذا تأخرت، إلا المسائل المعضلة جداً، أو أن يكون مريضاً.

**

حاله و هو مريض عجيبة، وهو مريض تكون المعاملات موجودة عند سريره، حتى في مرض موته، ونصحه بعض الأطباء بعدم التفكير كثيراُ في أحوال الناس في مرضه الأخير، فقال: هذه طريقتي، ولا أستطيع أترك هذا العمل.

و كان إذا خرج الأطباء من عنده يقول: أعطوني المعاملات ، ثم يبدأ بإنهائها.

والأعجب أن أحد المسؤولين يقول: جاءتني شفاعة من الشيخ، مؤرخة وهو على فراش الموت في السادس و العشرين من شهر محرم ١٤٢٠، والشيخ توفي يوم الخميس السابع والعشرين من الشهر ذاته.

**

يشرف الشيخ على مصاريف كثيرة للفقراء. تقول إحدى حفيداته: تلقيت اتصالاً من امرأة من كوسوفو بعد وفاة الشيخ بأيام تعزيني . فسألت هذه المرأة : من أين عرفتِ الشيخ ؟ قالت : كيف لا أعرف الشيخ، وراتبي من ماله الخاص!

و كثير جداً ، في أفريقيا ، أمريكا ، الفلبين ، و في أوروبا ، منها ما يعلم بها الناس ، ومنها لا يعلمون بها ، إنما تكون بين الشيخ و بين كاتبٍ واحد ، بل إن بعض الكُتّاب لا يدري عن الكاتب الآخر ، فعنده أكثر من كاتب و أكثر من مدير لأعماله و مكتبه .

***

باب
مزاحه و طرائفه

بعض الناس من تهيبهم من الشيخ ربما ينعقد لسانه ، مع إن الشيخ بسيط ، و من التقى به أو رآه وجد أنه يدخل القلب من أول نظرة ، و لا يحتاج إلى مقدمات أو شفاعات ، و مجلسه في العمل لا يجلس على المكتب المخصص له في الإفتاء ، إنما يجلس في كرسي مع كراسي الناس في مجلسٍ كبير ، ولا يدخل الناس واحداً واحداً ، و إنما الجميع ، فمن سبق للشيخ أخذ ما يريد .

من الناس من يهاب الشيخ، ومن هيبته قد لا يستطيع أن يتكلم، بل ينقل أحد كتاب الشيخ: جاء رجلٌ من بلاد روسيا، يقول: كان يسمع بالشيخ، ولم يره ، فلما جاء إلى مجلسه يريد أن يسلم عليه وقفت رجلاه، ولم يستطع التحرك.

يقول الكاتب : أنا الذي كنت أدفعه و أقول : سلِّم على الشيخ . فكان يتردد ، و سلم و هو يرجف . فالشيخ مهيب مع المحبة ، محبته في الهيبة –رحمة الله عليه-.

و كان له مزاح و طرائف مع مرافقيه و مع الناس ، و مع أولاده . فإذا جاءه سؤال و في السؤال طرفة ، أو كان مضحكاً ، بعد ما ينتهي السائل من الهاتف ، يقول : سألني عن كذا و كذا .

وكان إذا دخل المجلس لتسجيل برنامج (نور على الدرب) يكون معه عدد قليل ؛ ليجلو الصوت ، ولأجل أن لا تُسمع كحة أو شيء، فيكون العدد قليل. وكان الشيخ أول ما يجلس يلقي بالشماغ أو يعطيه لأحد الموظفين، أو أحد الحضور ممن دخل، يقول له: امسك الشماغ أمانة، ما هو لك .

**

غاب القارئ الرسمي الذي يقرأ عنده مرة ، فقرأ عليه أحد الطلاب ، و كان هذا الطالب ملازم للشيخ ، لكن عنده أخطاء كثيرة في القراءة ، و كلما قرأ عدّل له الشيخ ، ثم يقرأ و الشيخ يصوّب له. فقال الشيخ : ما اسمك ؟ قال : صقر . قال الشيخ : الصقر يتعلم من أول مرة ، ما يحتاج يتعلم أكثر من مرة .

**

من حسن تعامل الشيخ مع كثير من الناس ، و مع الصغار خاصة ، فعدد من طلاب العلم وفقهم الله –عز وجل– لطلب العلم و للدخول في الجامعات و مواصلة الدراسة حتى الماجستير و الدكتوراه و القضاء كان بنصيحةٍ من الشيخ و هم صغار . فكانوا يأتون إليه و هم في المرحلة الابتدائية ، و ربما المتوسطة أو الثانوية . و كان الشيخ يقول إذا سألهم : من أين أتيتم ؟ فيقولون : من الشيخ فلان . فيقول: احرص عليه و اطلب العلم ، و ادخل الجامعة . ثم وفقهم الله –عز وجل– في كثير من هذه النصائح و التوجيهات .

إذا كان ضيفاً على أحدهم ، و أكل طعاماً حاراً عند المضيّف لهم ، يقول : أَكَلَ طَعَامُكُمْ اَلْأَبْرَارَ ، يعني: أن الطعام هو الذي أكل الأبرار .

جاءه مرة أعرابي يريده في فتوى أو شفاعة . فقال له : ما اسمك ؟ قال : ذيب . قال له : و زوجك ؟ قال: ذيبة. قال له: والله عيّنوا خير عيالكم ، ذيب و ذيبة.

**

من صور التحايل من بعض الناس : جاء مرة رجل يريد الشيخ على انفراد ، و أكثر ما يتعب العلماء و الدعاة و المشايخ هذه الجلسات الخاصة ، فلا بد أن يتحمل العلماء ، فجاء الرجل ، و

جلس مع الشيخ في مجلسه العام ، فلما انتهى الشيخ من مجلس المغرب ، و صلى العشاء ، دخل عليه هذا الشخص ، و كان معه كاتب واحد فقط ، خشية أن يُؤذى الشيخ . فقال الرجل : يا شيخ ، إني رأيت رؤيا . قال له : تفضل ما هي الرؤيا ؟ قال: إني رأيت أن النبي ﷺ في المنام ، و عرضت له حاجتي ، فقال : اعرضها على ابن باز يحلها لك . فقال الشيخ : ما هي الحاجة التي عرضتها على رسول الله ﷺ في المنام ؟ قال الرجل : إني أريد الإقامة في هذه البلاد ، و لا عندي فلوس، و أريد عمل أيضاً. دبر لي عمل. فضحك الشيخ وعلم أنها لعبة و خدعة. فقال الشيخ: اكتب لي من يزكيك من العلماء و الدعاة من بلدك التي أتيت منها ، أو من المشايخ الموجودين ، و الظاهر إنك ما رأيت الرسول . فالشيخ تلطف به رغم كذب الرجل و خداعه ، و لم يرجع هذا الشخص ؛ لأنه كاذب .

**

أن كان يصلي الشيخ مرةً قيام الليل في منزله في حوش البيت ، و أتى سارق لبيته ، و لم يعلم أن هذا بيت الشيخ ، و لم يتفطن إلى أنه بيت الشيخ و فيه حرس ، فقبض عليه الحرس ، و أتوا به إلى الشيخ بعد أن انتهى . سمع الصوت ، ثم سأله : ما عندك ؟ قال الرجل: إني محتاج يا شيخ ، و والدي مريض يحتاج لعلاج ، و لم أجد مالاً ، فأبحث و أترزق . فقال الشيخ : كم حاجتك ؟ فكتب له ما يحتاج ، ثم عاد الشخص بعد أن انقطع عن الشيخ مدة ، و وفقه الله جل جلاله للهداية فأخذ يطلب العلم عند الشيخ .

۞من المواقف المتفرقة أن أحدهم رفع له طلباً أو شفاعة بأن امرأة من قريباتهم معاقة ، و أن الخطاب و الرجال لا يرغبون في الزواج منها إلا بشراء بيت ، فلو كان عندها بيت فإنه أحرى بتقدّم بعض الخطاب طمعاً في مالها ، أو في البيت . فقال الشيخ : ابحثوا لها عن بيت . فبحثوا عن بيت فلم يجدوا إلا بيتاً يناسبها بأربعمائة ألف ريال . فقال الشيخ : اشتروا لها هذا البيت ، وسُلِّمَ لها البيت، وكُتِبَ البيت باسمها، لا باسم الشيخ .

باب
بكاء الشيخ

كثيراً ما يبكي الشيخ ، و هو من أكثر العلماء بكاءً عند سماع القرآن ، عند سماع الأحاديث ، عند ذكر شدة عيش النبي ﷺ و أصحابه ، مواقف كثيرة ، و قلما يخلو مجلس أو درس من بكائه ، لكن مما يعلق بالذهن أن الشيخ لما كان مديراً للجامعة الإسلامية ، جاءه أحد الطلاب من خارج البلاد ، و الجامعة الإسلامية غالباً ما يقبلون الطلاب الوافدين من خارج المملكة ، و عندما لم يُقْبَل هذا الطالب ؛ لأن من شروط التحاق الطلاب أن لا يزيد عمره عن خمسٍ و عشرين سنة ، فجلس مع الشيخ جلسة ، فقال الشيخ : أنت رجل كبير تجاوزت الأربعين ، و لا يناسبك هذا الأمر ، و مخالف للشروط . قال الرجل : إذا سألني ربي يوم القيامة : لماذا لم تطلب العلم ؟ سأقول : الشيخ ابن باز هو الذي منعني من طلب العلم . فبكى الشيخ ، و كتب له ورقة للمسؤولين بأن يستثنوه .

ومن بركة الله تعالى التي جعلها في هذا الرجل الذي طلب العلم بعد الأربعين ، أنه أصبح داعية في بلده .

و يبكي الشيخ أيضاً إذا سمع أخبار العلماء ، أو عالماً توفي ، يثني عليه ثم يبكي –رحمه الله– ، أو إذا سمع اضطهاداً للمسلمين ، أو إذا جاءه أحد الفقراء يشكو إليه أمره ، يبكي ، و لا يستطيع تمالك نفسه .

ومرةً لحقت به امرأة عند سيارته ، و كلمت الشيخ في قضية شفاعة ، بأنها من خارج هذه البلاد ، و أنها مطلقة أو أرملة ، و ليس عندها مال ، و لا يستطيع وليها يأتي من خارج البلاد . فأتم

الشيخ لها ما تريد ، ثم لما أغلق الباب وضع رأسه على يده و بدأ يبكي . قال : مسكينة ، ليس لها أحد ، و بدأ يردد : مسكينة ، ليس لها أحد . يقولها ، وهو يبكي –رحمة الله عليه– .

***

باب
الشيخ في الحج

يحج معه كل سنة ثمانمائة حاج سنوياً ، على نفقته. ولم يترك الحج، فقد حج اثنتين وخمسين حجة، ولم يترك الحج إلا عام وفاته، ذلك عام ١٤١٩ هـ، وقبل ذلك أيضاً لم يستطع الحج عندما سقط في الدرج وكُسرت رجله، و ذلك عام ١٤٠٧ هـ .

في موسم الحج ، في مخيمه ، يُقَدّم الطعام و الماء لألف حاج من نفقته . و يكون في المخيم الضيوف. فيقول أحد المرافقين : مع أننا لا نضع إلا أكلاً يكفي لخمسمائة ، لكن الله –عز وجل– يبارك فيه ، و يفيض الأكل و يكثر ، ثم يوزع على باقي الفقراء الذين في الشوارع . و هذا الأكل لخمسمائة ، و بركة الشيخ معروفة ، بل بعضهم إذا ذهب إلى الرياض من الشباب من طلبة العلم يتواعدون إذا افترقوا بأن الموعد مجلس الشيخ ، أو صحن الشيخ ، و هذا معروف بين الشباب ، بل عموم الناس . و الله –عز وجل– يبارك في طعامه .

**

لا يرضى أن يخص في الحج بأي موكب ، تأتيه العروض من الملك و الأمراء أن يكون له موكب لوحده ؛ ليرمي و يرجع لمخيمه ، فلا يرضى بذلك ، بل يمشي مع الناس ، و يرمي ليلاً ، هو و الشيخ ابن عثيمين يرمون في الليل .

**

يتسابق الفقراء والمحتاجون للقرب منه مثل الأطفال الذين يتسابقون على أبيهم الذي جاء من سفر، وهكذا أكثر الفقراء والمساكين عند الشيخ، بل كان الشيخ في السنة من التي لم يحج فيها في الرياض، وذهب العاملون معه والكتّاب و المخيم كاملاً إلى الحج، فتألم تلك السنة، وكان يبكي على تركه للحج، وأنه لم يقابل الناس، فأتى شخصٌ من أفريقيا إلى مخيم الشيخ يريد أن يدخل عليه، فقالوا: الشيخ في الرياض، ولم يحج. قال: لا بد أن أدخل. قالوا له: ما حاجتك، فنوصلها للشيخ بالاتصال ؟ قال: أنا مسكين، و سمعت أن الشيخ أبو المساكين، لا بد أن أدخل. فقالوا: الشيخ في الرياض، ماذا تريد ؟ فأخذوا معاملته، وأخبروا بذلك الشيخ.

**

فالشيخ –رحمه الله– درسَ و تعلَّمَ و علَّمَ . جالس العلماء ، و انتفعَ بهم . طلب العلم ، وحفظ ، و لازم الشيوخ ، و قرأ كثيراً من الكتب .

إذا سئل عن أفضل الكتب و أحسن الكتب ، يقول : شرح النووي على مسلم ، قرأته ستين مرة ، بل كثيراً من الكتب قرئت عليه أكثر من مرة في السيارة ، و الشيخ إذا قُرِئ عليه الكتاب ، فهو حافظ متيقظ منتبه ، و يعرف الطبعات .

في آخر حياته صارت دروسه يوم الخميس فقط ، لثلاث ساعات متواصلة ، و هو متربع على الكرسي لا يشرب ماءاً ، و لا يلتفت ، و لا يقطع الدرس، ولا يتوقف أبدا. ثلاث ساعات مستمرة مع انتباهٍ كامل إلى أن بلغ التسعين، ولا يُعرَف عن الشيخ أنه وهم لنسيانٍ، أو لخرف أبداً ، فالله –عز وجل– بارك له في حافظته إلى وفاته.

يُقْرَأ عليه أكثر من عشرة كتب يوم الخميس، وكل كتاب تقريباً يستغرق ربع ساعة، إلى ثلث ساعة. وفي المجلس عدد من العلماء وطلاب العلم، فيقرأ على الشيخ، وينتبه لكل جزئية، كل نقطة، وربما يصحح لفظة لا ينتبه بعض الطلاب لها، و ينتبه الشيخ، وهو مصغٍ للسمع .

**

أُنْشِئَت مواقع كثيرة ، و جامعات ، و جوامع ، و معاهد ، و مدارس باسم الشيخ ، و كان إذا سُئل في حياته عن تسمية بعض الجوامع ، أو المعاهد ، أو المدارس الأهلية باسمه لا يرضى ، بل يكتب خطاباً يقول : الأفضل أن تسموا هذه المدارس بأسماء الصحابة ، أو التابعين ، أو ابن تيمية ، أو ابن القيم . و الشيخ أُطلق اسمه على أشياء كثيرة ، و هو القائل –رحمه الله– عبارة انتشرت بين طلاب العلم ، هي : (الموت في سبيل الله سهل ، لكن الأشد منه و الأعظم : الحياة في سبيل الله) . فالإنسان يمكنه أن يدخل فيفدي بنفسه في معركة ، في جهاد في سبيل الله ، و ما هي إلا دقائق و يموت ، لكن الأشد منه : أن يعيش في سبيل الله . و الشيخ طبقها –رحمة الله عليه– علماً و عملاً و اعتقاداً .

**

توفي أبوه و هو صغير ، فلم يدركه . و توفيت أمه و له من العمر خمسٌ و عشرون سنة . كان ضعيف البنية و هو صغير ، و ظل هكذا –رحمه الله– إلى أن توفي ضعيف البنية. و عمي في التاسعة عشرة من عمره ، و قد بدأ يضعف بصره قبل ذلك ، و عُرِض عليه أنه يتعالج ، ذلك

أن بعض الأطباء قال له : لو تعالجت ، لعل الله يكتب لك الشفاء . فما كان جوابه إلا أن قال : لا ، أنا رضيت بقضاء الله ، و أرجو أن أدخل في حديث : من أخذت حبيبتيه وصبر عوضته منهما الجنة .

و جاءه مرة رجل من إفريقيا يبكي ، و يقول : يا شيخ ، والله لو تفتيني الآن بالتبرع بعيني ؛ لأعطيك إياها . قال الشيخ على ذلك: الله يوفقك.

و الشيخ له مؤلفات قديمة ، فيها تعليقات له على بعض الكتب مما حضر عند شيوخه ، إذا أخطأ بعض الكتّاب في كلمة ، أو قال : اسمح لي يا شيخ ، أنا أخطأت . يقول له الشيخ مصححاً : هكذا تُكْتَب، مثلاً : عين و جيم ، إلى آخره .

من نعومة أظفاره و هو يسابق على الصف الأول ، كما قال ابن عمه الشيخ سعد بن عبد المحسن بن باز ، و هو يكبر الشيخ بعشر سنوات ، و كان قريباً من الشيخ ، و يعرفه منذ صغره ، فيقول : يسابق على الصف الأول من نعومة أظفاره ، و له مكان خلف الإمام ، لما كان عمره ثلاث عشرة سنة ، و لا يتخلف عنه أبداً.

كان في أواخر حياته قد فقده بعض الكتاب من القائمين على المكتب ، و خافوا على الشيخ أن يكون أصيب بمكروه ، أو زاد عليه المرض ، فلم يصلِّ معهم الفجر . طرقوا عليه البيت ، فانتبه بعد ما انتهت المساجد من صلاة الفجر . فقال : لا حول و لا قوة إلا بالله ، من أول ما بلغت ، أول مرة تفوتني صلاة الفجر جماعة . هذا كلامه في أواخر حياته .

ويتحدث ابن عمه الشيخ خالد بن عبد المحسن عن كرم الشيخ في صباه ، فيقول : إن الكرم معروف جبلّة في الشيخ منذ أن كان صبياً ، إذا خرج من المسجد و عمره ثلاث عشرة سنة ، أي

شخص غريب عن المسجد أو جاء عند أحد العلماء أو من أقرانه من الذين يدرسون عند العلماء يأخذ بيده و يذهب به إلى البيت ، و يعطيه أي شيء مما يأكلون . و استمر –رحمة الله عليه– إلى وفاته على حاله .

**

لم يأخذ الشيخ إجازة أكثر من خمسين سنة ؛ لأنه في وقت راحته في غير الدوام جميع أنواع العمل موجود في بيته ، و في سريره ، و في فراش الموت كذلك ، كل هذه يسير بها في كل وقت ، في السيارة ، و هو يغسل يديه بعد الأكل ، أو قبل الأكل ، تعرض عليه المعاملات ، و أيضاً إن لم يكن عنده معاملات تُقرأ عليه بعض الأبيات من المنظومات و يحفظها ، أو بعض الأحاديث .

**

في رمضان يزداد نشاطه ، و يأتي قبل بدء الدوام ، و لا يخرج إلا إذا انتهى العمل . يفطر معه في منزله بالرياض ما بين الخمسين إلى المائة كل يوم ، أما إذا كان في بيته في مكة فما بين المائتين إلي الثلاثمائة ، و ربما يذهب بعد التراويح في يوم حافل بالعمل و العبادات ، و الشفاعة و القيام ، بعد التراويح يذهب ساعتين أو ثلاث ساعات لمكتبه في الإفتاء ؛ لإنهاء بعض المعاملات .

و الله جلاله بارك في هذا العالم –رحمه الله– ، و أنسأ في عمره ؛ لكثرة صلاحه و بره بالمسلمين ، و اتاه من القوة والنشاط ، بحيث لا يظهر عليه التعب كما يتعب كثير من الشباب ، و المواقف في هذا الشأن كثيرة ، فمنها أن الشيخ عبد المجيد الزنداني –وفقه الله وحفظه– يقول : رافقت الشيخ لرحلة دعوية من جدة إلى مكة ، و العكس . فيقول : ما نرجع بعد المؤتمر إلا و نحن نتساقط على وجوهنا من التعب ، و هذا كلام بعض مرافقيه ، و الشيخ رجل طبيعي جداً ، ربما ينام ساعة أو ساعتين فتكفيه . فالبركة من الله تعالى ، و الإعانة من الله ، و كثرة ذكره و صلاحه و قيامه الليل و أشياء كثيرة .

يذهب الشيخ في النصف الأخير من رمضان إلى مكة ، و يكون في بيته الموجود في العزيزية بجنب جامعه ، و يذهب يصلي في الحرم . فشاهده الناس يصلي ، فاجتمعوا عليه بعد التراويح ، حتى ضاق نفسه. و كان المرافقين معه ستة ، يبعدون الناس عنه ، فتعبوا . و الشيخ مبتسم ، يقول : الله يهديهم ، الله يهديهم . و اجتمعوا ،حتى ضاق نفسه ، فخشوا على الشيخ ، و رفعوه على كرسي ؛ حتى يشم الهواء.

و خافوا عليه أنه يسير مع هذه الوفود بالسلالم الكهربائية ، فركب بالمصعد و نزل ، لما نزل من المصعد الخاص بالعمال ، و اقترب من سيارته ، اجتمع عليه الناس ، و لم يستطع أن يركب من كثرة الناس، واسودت ثيابه ، و تصبب عرقه من كثرة الذين سلموا عليه . مع ذلك لم تتغير أخلاقه ، فوسعهم حلمه. و ما يجد إلا أن يبتسم ، و يقول: الله يهديهم ، و لا يمنع أحداً أن يسلم عليه .

**

مرافقه و كاتبه الشيخ محمد الشويعر –حفظه الله- يقول : بحثت مرةً عن حديث ، فلم أجد هذا الحديث . و أخبرت الشيخ بعجزي التام ، فقال : افتح كتاب الإيمان ، و هي رسالة مختصرة للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و افتح صفحة كذا ، و تجد في الحاشية تخريج الحديث رواه النسائي . يقول الشيخ الشويعر : لما راجعت الكتاب وجدته كما قال الشيخ ، وبالصفحة ، ثم رجعت للنسائي فوجدت الحديث في أماكن متفرقة لم أستطع أن أجدها ن قبل . فيقول الشيخ : قرأت هذا الكتاب قبل أربعين سنة ، لما كنت في الخرج.

مرةً عرض عليه برنامج الحديث في الحاسب ، فيه جمع لحديث النبي ﷺ ، فعرضوا على الشيخ هذا البرنامج ، هل هو مناسب أو غير مناسب ؟ فقال الشيخ : افتحوا لنا البرنامج . ففتحوا البرنامج ، ثم ذكر لهم لفظ حديث ، و أن يأتوا بالكتاب ، و ألفاظه ، و من خرجه ؟ فتأخر البرنامج ، ما فتح ، ثم لما فتح لم يجدوا الألفاظ متقاربة . فالشيخ لم يوبخ ، و لم يصدر فتوى ، إنما

قال : أنتم مؤتمنون على حديث النبي ﷺ . فاعتذر له المشرف على برنامج الحديث ، فقال : يا شيخ ، إن هذا الحديث و عدد من الأحاديث أدخلناها خطأ ، فإذا دخل شيء خطأ يكون المخرجات خطأ . فذكرهم الشيخ بالله ، و قال : أنتم مؤتمنون على الحديث ، و سينفع الله جلاله بهذا الشيء ، فتأكدوا من الأحاديث .

**

ولما كان الشيخ –رحمه الله– في الخرج، كان في تلك البلدة رجل يعاديه، و يسبه و يشتمه. ثم إن الشيخ للحج ذهب، و رجع. ففي أثناء ذهابه للحج مات هذا الرجل، فلما رجع ، جاء الشيخ خبر موت الرجل، فقال أحد المرافقين للشيخ أنه مات، كأنه فرح، فغضب الشيخ ، و قال : لماذا ما أخبرتموني ؟، وذهب، و صلى على قبره، ثم ذهب لأولاده، فعزاهم، ودعا للميت، وقال: تراني في مقام والدكم، إذا بغيتم شيء فأنا مستعد.

قال له رجل: يا شيخ، حللني كلما اغتبتك. قال: عرضي مباح للمسلمين .

و قال له شخص في إحدى المحاضرات : إن أحد العلماء ، الشيخ فلان في دولة كذا ، يقول : إنك مبتدع يا شيخ ؟ فقال الشيخ : الله يوفقه ، و فقه الله . و بدأ يدعو له . و قال : إنه عالم مجتهد ، اسأل الله أن يوفقه ، و أن يعفو عنه . فلم يزد على ذلك .

ولم يُذْكَر في الكتب من هذا الرجل الذي يدعي أن الشيخ ابن باز مبتدع، لكن الشيخ دعا له في المحاضرة.

**

و في شريط مسجل له في محاضرة، قال له أحد السائلين: إنك يا شيخ ما تذكر آل بيت الرسول، قليلاً ما تذكرهم في المحاضرات، كأنه جفاء منك لهم ؟

فكان الجواب : البكاء، ولم يستطع أن يتمالك نفسه –رحمه الله– ، فأثنى عليهم، و ذكرهم بخير.

اتصل به شاب عربي من أمريكا يطلب مساعدة للزواج، فانتبه الشيخ أنه محتاج، وأنه هو المتصل. فقال الشيخ: أغلق، وأنا أتصل عليك . فأغلق، ثم اتصل عليه الشيخ من مكتبه، ثم أرسل له بعض المال.

**

بنى الشيخ مئات المساجد من حسابه، وفي يوم وفاته كان هناك ثلاثة ملفات لمساجد على مكتبه، صدّرت المعاملة يوم وفاته.

**

لما كان رئيساً للجامعة الإسلامية ، جاء خبر للملك فيصل –رحمه الله- يفيد أن الشيخ ابن باز وضعه المادي صعب، والضيوف عليه من كل جهة من العالم يقدمون للشيخ . فالملك فيصل – رحمه الله- أمر ببناء بيتٍ ، يعتبر قصراً في ذلك الوقت ، أمر بمبنى كبير ، و أراد الملك فيصل أن يُسجل باسم الشيخ، فامتنع قائلاً: بل يكتب باسم رئيس الجامعة، حتى إذا تركت الجامعة يسكن فيه من بعدي، فلم يرضَ أن يُكْتَب باسمه.

**

الشيخ محمد الزبن رئيس ديوان المظالم –رحمه الله- بالدمام يقول: مرة اختلفت أنا وأحد القضاة من قضاة الدمام في مسألة، فيقول: زرنا الشيخ مرة، و تباحثنا في هذه المسألة . فقال : افتحوا الكتاب الفلاني، صفحة كذا ، تجدون الجواب. فيقول: ففتحنا، فوجدنا الجواب كما قال .

**

في مجلة الدعوة كتب أحد الشباب يقول: كنت رأيت رؤيا، كأني كنت في حفرة سقطت فيها، وهي مظلمة، و مر بجانبي الشيخ ابن باز فأخذني، هذا في حياة الشيخ، فلما أفاق هذا الشاب هداه الله، فارتبط بالشيخ ارتباطاً علمياً .

**

لما مُنح الشيخ جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام المسلمين عام ١٤٠٢ هـ، صَفَّق بعض الحضور للشيخ، فنهاهم وقال: لا، التصفيق لا ينبغي. الأصل: تكبرون. فلم يجامل في هذا الموضع، مع إن الحضور مسؤولين، و عدد منهم من الأمراء، و الوزراء، و وجهاء الدول.
وحين انتهى الشيخ قال: إني لا أستحق هذه الجائزة، ولم أخدم الإسلام و المسلمين. وأنا متبرعٌ بها كاملةً لدار الحديث الخيرية بمكة. تبرع بها في المجلس، ولم يأخذ منها شيء.

**

مرةً دخل الشيخ إلى مجلسه و لم يسمع في صالة الغداء صوت كالعادة ، و هو معتاد على حضور الناس قبله، يسبقونه لمجلسه. فسأل الطباخين: أين الناس، لم يأت أحد؟
فقالوا له: إن حرس البيت منعوا الناس من الدخول. فغضب الشيخ، وذهب ينكر عليهم، ثم أمر بإدخال الفقراء قبل الناس.
ومرةً وصل إلى بيته في مكة ؛ لأن الشيخ ربما يذهب في الصيف إلى الطائف ، و بعد اجتماعات هيئة كبار العلماء يعود إلى بيته في مكة، ففتح بابه للناس فلم يجد إلا حضوراً قليلاً، فتألم. وسأل العاملين معه في المكتب، فقالوا: يا شيخ، إنك أتيت قريباً، ولم يعلم بك الناس. فقال: أخبروا جميع الجيران أن بابي مفتوح، وكل من قابلتموه في الطريق أخبروهم أن بيتي مفتوح، والله يحيي الجميع.

**

لما مرض الشيخ نصحه الأطباء بأكلٍ خاص له في عناية طبية أن لا يزيد في الملح ، أو السكر. فقال الشيخ: ما يضرنا، إن شاء الله. و الذي يأكلونه الفقراء معي أكلناه معهم. فاستمر على طريقته في الأكل.

و مرة في الحج على مائدته ، و الشيخ لا يأكل اللحم في الحج ، إنما يأكل الفواكه و الخضروات فقط، والخبز و يتخفف من الأكل، فوضعوا له سلطة فواكه، وأحضروها على مائدته ، و السفرة ممدودة. فسأل: هل أعطيتم جميع الحجاج، الثمانمائة، مثل ما وضعتم لي ؟ قالوا: لا. قال الشيخ: ما أريده.

**

إذا وجد الشيخ لبناً من بعض المزارع ، يقول الشيخ : إذا كان يكفي جميع الحضور من ضيوفي، و إلا لا تقدمونه، اتركوه للبيت.

**

قال له مرة بعض المحبين من جلسائه يوماً: يا شيخ، أنت الآن يأتي إليك الوفود، والوجهاء، والرسميين، لماذا لا تضع للمسؤولين مائدة لوحدهم، والفقراء معك في نفس الوقت لهم مجلس اخر، وأنت مع الوجهاء والمسؤولين ؟

فلما انتهى هذا المقترح، قال الشيخ: مسكين صاحب هذا الاقتراح ، ما تلذذ بالأكل مع الفقراء، ما يعرف لذة الأكل مع المساكين و الفقراء. أنا هذه طريقتي، واسأل الله –عز وجل– أن يميتني عليها، من كان يعجبه هذا الأكل، وإلا ما أجبرت أحد يدخل عليَّ على مائدتي.

**

طلب منه أحد الحضور مرة سؤالاً. فقال الشيخ: اسألني، وأنا أغسل. فسأله عن كلمة هل تجوز أو لا تجوز؟ قال الشيخ: لا بأس بها. ثم قال أحد الكتاب لهذا الرجل: لو أنك ما سألت الشيخ لجعلنا نقرأ معاملة من المعاملات ، فلابد أن ينجز أي شيء.

**

جميل خياط، من أقارب الشيخ عبد الله خياط و مدير شركة، كتب قصته مع الشيخ بعد وفاة الشيخ مباشرةً. فيقول: أعطاني رجل أعمال أوروبي له شراكة معنا في جدة مبلغ مليون و مائتي ألف ريال. وقال: أعطوه لابن باز. وهذا الرجل، رجل أعمال يسكن في جدة، وله شراكة مع الشركة في بعض الأعمال. فقال جميل خياط له: تعرف ابن باز ؟ قال: أسمع عنه كثيراً، وعن أعماله الخيرية، وهذا المبلغ له؛ لأجل مشروع الزواج التابع لابن باز.

يقول جميل خياط: ذهبت للشيخ، و سلمت عليه، و قلت : إني من أقارب الشيخ عبد الله خياط. فرحب بي و سألني عن الشيخ ؛ لأنه كان مريضاً إذ ذاك. ثم قال: إن هذا الرجل أعطاني مالاً كذا و كذا. قال الشيخ: الحمد لله، لا بأس به، لكن هل أسلم هذا الرجل ؟

قال: لا، ما أسلم. قال الشيخ: نقبل ماله، واسأل الله أن يهديه .

فهذا من حسن خلقه ، و من شهرة هذا العالم ، حتى من غير المسلمين .

**

الشيخ الدكتور ناصر الزهراني –وفقه الله– إمام جامع ابن باز في مكة يقول : لما انتهى العمال من بناء المسجد القريب من بيت الشيخ . يقول : شفعت للعمال بك يا شيخ ، لو نعطي العمال المساكين هدية رمزية مالية قليلة غير رواتبهم ؟ فقال الشيخ: كم هم ؟ قال: سبعين شخص. قال الشيخ: كم يكفيهم ؟ قال : مائة ، مائة ريال لكل واحد زيادة على الرواتب تقديراً لجهودهم. قال الشيخ: بل أعطوهم ثلاثمائة. قال الدكتور ناصر : يا شيخ ، يكفي مائتين . قال : لا ، ثلاثمائة ، أحسن .

في مجمع الفقه الإسلامي ، و كان يضم عدداً من العلماء. ففي بعض جلسات المجمع يكون فيها اختصار؛ لقلة الندوة من العلماء في المجمع ، فيجلسون في مجلسٍ خاص بهم ، ما بين رؤساء وفود الدول، ورؤساء العلماء ، و وفود العلماء . فعرضت مسألة في العقيدة و الأسماء و الصفات و الكلام حولها ، فبدأ الشيخ يقرر مذهب السلف . فتكلم أحد العلماء من بلاد أفريقيا : إنكم وهابية متشددون. فما كان من الشيخ إلا أن قال له: سبح ، الله يهدينا سبح . فلم يسكت هذا الرجل . فأمر الشيخ أحد المرافقين له، قال: ابحثوا عن كتاب في العقيدة لأحد علماء المالكية ممن يتبعهم هذا الرجل. فأتوه بثلاثين نسخة، ووزعت على الحضور في الجلسة، والجلسة ساعة طويلة، فوزع الشيخ الكتاب على العلماء، وقال: إن كان في كلامي خلافاً لأئمة السلف ، أو الإمام مالك ، فأشهدكم أني أتراجع عنه. وحصل الرد ضمناً، بمعنى أن ذلك الرجل المنكر قد قبل الحق ضمن كلام الشيخ .

**

عن الشيخ ناصر الزهراني: جاء أحد الشباب، أعرفه تماماً، إلى الشيخ ابن باز، فقال: يا شيخ، أريد منك هدية لا أنساها أبداً في حياتي. كلما رأيتها أتذكرك. فسكت الشيخ. ولما صلى المغرب، وهذا الرجل ذكّر أحد مرافقي الشيخ حتى ما ينساه. فناداه الشيخ ، فتذكر الموعد، وما قال له، فخلع مشلحه وأعطاه إياه. وقال الشيخ: هذه الهدية ما تنساني إن شاء الله .

**

كاتبة صحفية ، هي الان دكتورة ، و لها كتابات شهيرة ، تقول : في بداية عملي الصحفي كنت سأكتب موضوعاً حول مشروعية تأخير صلاة العشاء، وأنها تخفف على الناس في الاجتماعات و المؤتمرات، والحفلات الرسمية وغيرها فيها أمراء ، فأردت أن أقترح هذا الاقتراح في مقال، و آتي بالأدلة أن صلاة العشاء لا بأس أن تؤخر إذا كان في حفل. فتقول: اتصلت على الشيخ، وقال لي: صحيح ما قلتِ، و هذه سنة، لكن لو تكلمتِ يا بنتي بشيء ينفع المسلمين وهو أحسن،

أو تتكلمين عن أمور تتعلق بالنساء، وهي أفضل لكِ. فتقول: تركت هذا المقال، ولم أكتب عنه. فاقتنعت بكلام الشيخ.

و تردف فتقول: قبل اتصالي على الشيخ، اتصلت على أحد العلماء اسأله وأستشيره عن هذا الاقتراح، فقال: أنتم الحريم ما ينفعكم إلا الكنس والطبخ، لا تكتبي لا مقالات، ولا شيء يتعلق بالعلم.

و تقول: الفرق بين هذا العالم وبين الرجل الأول أيضاً من العلماء، لكنها لم تسمِّه في هذا المقال.

**

في أول رجوعه من المدينة في عام ١٣٩١ هـ ، كان إمامَاً للجامع الكبير، حتى هُدِم الجامع الكبير عام ١٤٠٨ هـ ، لثمانية عشر عاماً، والشيخ هو الإمام والخطيب، ويلقي الدروس في الجامع الكبير. فلما هُدِم، وبني مرة أخرى، هذا البناء الأخير ، اقترح عليهم الشيخ ابن باز التنازل لسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ –وفقه الله–.

**

يومياً كان الشيخ في كل فجر يتصل على أحد عشر رقماً من الموظفين عنده على بيوتهم؛ لإيقاظهم لصلاة الفج. على البيوت، وعلى بعض أقاربه.

ومن بركة وقته –رحمه الله– في مجلسٍ من بعد صلاة المغرب إلى أذان العشاء فقط، كان الشيخ إذا أذن العشاء كائناً من كان عنده، يترك كل شيء ويذهب للمسجد. هذه طريقته، أيّاً كان العمل، أو الظروف، أو مسائل طلاق، أو ضيف، أو ملك .هذه طريقته.

وإن أصر بعض الناس في إنهاء معاملات، يقول: أنا ذاهب إلى المسجد، اسأل، أو بعد الصلاة ونحن راجعون، ثم يعشي الناس . ومن بركة وقته من بعد المغرب إلى أذان العشاء أجاب عن ستين سؤالاً من أسئلة الحضور.

**

مرةً قُرِئت عليه عشر معاملات طلاق بين المغرب والعشاء. الوقت هو الوقت، ولم يتغير، إنما فرق البركة. ومسائل الطلاق تحتاج إلى تركيز ، مع وجود بعض المعاملات الأخرى، وفتاوى، و مهاتفين. فيأخذ الهاتف الأول ويجيب، فإن أطال قليلاً يستأذنه و يجيب على الثاني.

وفي مرةً بعد الفجر إلى طلوع الشمس في المسجد، أو في البيت إلى طلوع الشمس، قُرِئت عليه أربعين معاملة، ما بين طلاق، وفتاوى مهمة، وأحداث مهمة.

ومرةً أخرى، سافر من الطائف إلى الرياض، وقرئ عليه ستين صفحة من كتاب أعلام الموقعين، والذي يعرف كتاب أعلام الموقعين من طلاب العلم يعرف أن الكتاب دسم، وصعب، لا بد من تركيز ، وإعادة أكثر من نقطة. ولما نزل من المطار من سيارته إلى منزله قرئ عليه تقرير عن مشروع دعوي خارج المملكة يتكون من سبعة عشرة صفحة.

***

تم الكتاب ، والحمد لله على تمام نعمه ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه

***

**

*